

صيد الأعوام

النسخة الإلكترونية خاصة بالموقع

saaaid.net

تلاوة من كتاب العشق

مررتُ بقبرٍ مُشرقٍ وَسَطَ رَوْضَةٍ ... عَلَيْهِ من الأنوارِ مثلُ الشَّقَائِقِ.
فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فقال لي الثَّرَى: ... تَرَحَّمْ عَلَيْهِ إِنَّهُ قَبْرُ عَاشِقٍ.
[ابن المعتز]

جمع وترتيب

محمد حامد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اطلع في بروج اعتدال القدود شمس المحاسن والجمال وأهل في منازل السعود بدور اللطائف والكمال وزين أغصان القدود برمان النهود ورياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الحدود وألف بين ما نظم في الثغور وقلائد النحور وجعل تسريح الأبصار لذوي البصائر ولطافة الأفكار من أسباب الافتتان بتأمل الحسان فترهم وإن اختلفت أغراضهم منزلة الأغراض لرشق قسي الحواجب بسهام الألحاظ .

نحمده على تعديل أمزجة فرعها صحة التأمل في حُسن التجمل وتصفية نفس لازمها الاستبصار والتبصر في الفرق بين الجهل والتعقل ، ونصلي ونسلم على من بعث ينهي النفس عن الهوى والإرشاد إلى طريق العدل والاستواء والأمر بإعلاء العقل على النفس وقهر شهوات الجسم وتقييد مدارك الحس فحث على تهذيب النفس الأبية عن الرذائل الدنيئة سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المتخلقين بأكرم الأخلاق والأوصاف وأجمل اللطافة والعفاف ما نضرت الحقائق ونظرت الحدق وتأنق المفلق وتألّق الفلق.

وبعد فلما دلّ تنويع أصل الإيجاد وتفريع عالم السكون والفساد مع قدرة الموجد على جعل ما أوجد من أصل واحد على سأم النفس من ملازمة الشيء الواحد في كل حال واستراحتها في اختلاف الأطوار بالنظر والانتقال وكان أعظم مطلوب منها تحصيل العلوم التي هي سبب السعادة الدينية وتشبيد المباني الشرعية وجب إسعافها بالمفاكهات الأنيقة والأخبار اللطيفة الرشيقة لتنشط من عقال التعب وتستريح فتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوَصَب والتَّصَب وذلك هو العلوم الأدبية كالتواريخ والأخبار ولطائف الحكايات والأشعار فقد وقع اختياري على اختصار مصارع العشاق المنسوب إلى أبي بكر محمد بن جعفر البغدادي السراج رحمه الله فإنه وإن كان قد جمع فيه بين جد القول وهزله وظرائف نكت

العشق وأهله ورقيق اللفظ وجزله إلا أنه كتاب طال في غير طائل وجمع ما لا حاجة بهذه الصناعة إليه من المسائل كذكر الأسانيد والتكرار الذي هو شأن الأحاديث النبوية لتوثيق الأحكام الدينية كالإحلال بمحاسن الأخبار ولطائف الأشعار التي هي بهذا الفن أعلق من الجوى بأهل الهوى وعدم الترتيب المستلزم لاختلال التهذيب وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق في شرك الحب إلى غير ذلك مما يظهر لتأمل كتابنا مع أصله إذا طرح الهوى وانتظم في سلك الانصاف وأهله فألفت هذا الكتاب الذي هو في قلادة هذا الفن درة بيضاء وفي جبهة جواده غرة غراء أكملت فيه فوائده ورددت شوارده وأضفت ما نبذه ظهريا ولم آت شيئا فريا.

والله أسأل أن يعم نفعه ، ويجزي بالإحسان إحسانا هو ولي ذلك والقادر عليه

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

القسم الأول

قواعد في العشق

من كثرت لحظاته دامت حسراته

قال بعض الحكماء ربَّ حربٍ جُنيت من لفظةٍ وربَّ عشقٍ غُرس من لحظةٍ وقال العتيبي أبو الغصن الأعرابي قال: خرجت حاجاً فلما مررت بقباء تداعى الناس ألماً وقالوا قد أقبلت الصقيل فنظرت وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل فلما رميناها بالحدق ألقت البرقع على وجهها فقلت يرحمك الله إنا سفرٌ وفينا أجرٌ فأمتعينا بوجهك فانصاعت وأنا أرى الضحك في عينيها وهي تقول:

و كنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتبعتك المناظرُ
رأيت الذي لا تأكله أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرٌ^١

العقل عند الهوى أسيرٌ والشوق عليهما أميرٌ

قال جالينوس : العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد وفي الدماغ ثلاثة مساكن التخيل وهو في مقدم الرأس والفكر وهو في وسطه والذكر وهو في مؤخره وليس يكمل لأحد اسم عاشق إلا حتى إذا فارق من يعشقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره وقلبه وكبده فيمتنع عن الطعام والشراب باشتغال الكبد ومن النوم باشتغال الدماغ والتخيل والذكر له والفكر فيه فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقاً فإذا لقيه حلت هذه المساكن .^٢

^١ عيون الأخبار ٢٢/٤ ط دار الكتب العلمية بيروت

^٢ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢ / ١٤٨ ط دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة

ولعمري لقد أحسن فيما وصف واحتجّ لما قال فانتصف غير أنه ذكر حال العشق وحده وترك ذكر أحوال ما قبله وأحوال ما بعده وذلك أن الأحوال التي تتولد عن السماع والنظر مختلفة في باب العظم والصَّغر ولها مراتب فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ثم يقوى فيصير مودّة والمودّة سبب الإرادة فمن ودّ إنساناً ودّ أن يكون له خلاً ومن ودّ غرضاً ودّ أن يكون له مُلكاً ثم تقوى المودّة فتصير محبةً والمحبة سبباً للطاعة.

وفي ذلك يقول محمود الوراق^١:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطْعَمْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ثم تقوى المحبة فتصير خُلة والخُلة بين الآدميين أن تكون محبة أحدهما قد تمكّنت من صاحبه حتّى أسقطت السرائر بينه وبينه فصار متخللاً لسرائره ومطلّعا على ضمائره.

ويقال إنّ الخُلة بين الآدميين مأخوذة من تخلّل المودّة بين اللحم والعظم واختلاطهما بالدم والدم وهذا المعنى غير مخالف للأول بل هو أوضح سبب له لأن من حلّ من النفس هذا المحل لم يستبدّ عنه بأمر ولم يستظهر عليه بسرّ.

وقد أنشد عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في هذا النحو:

تَغْلَغَلُ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فَوَادِي ... فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
تَغْلَغَلُ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ ... وَلَا حَزَنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ^٢

^١ الكامل في اللغة والأدب ٥١٣/٣، التمثيل والمحاضرة ص ١٢، زهر الآداب ١٣٩/١، بهجة المجالس ٣٩٥/١، فوات الوفيات ٨١/٤، العقد الفريد ٢١٥/٣، وذكر ابن عبد البر في بهجة المجالس أنها تنسب للشافعي، وهي في ديوان الشافعي ص ٩٢.

^٢ الأغاني ١٧٦/٩ ط دار الفكر - بيروت

ثم تقوى الخلّة فتوجب الهوى والهوى اسم لانخطاط الحب في محابّ المحبوب وفي التوصل إليه بغير ثمالك ولا ترتيب.

ثم تقوى الحال فيصير عشقاً والعاشق يمنعه من سرعة الانخطاط في هوى معشوقه إشفاقه عليه وضئفه به حتّى أن إبقاءه عليه ليدعوه إلى مخالفته وترك الإقبال عليه فمن النَّاس من يتوهم لهذه العلّة أن الهوى أتم من العشق وليس الأمر كذلك ثم يزداد العشق فيصير تتيماً وهو أن تصير حال المعشوق مستوفية للعاشق فلا يكون فيه معها فضل لغيرها ولا يزيد بقياسه شيئاً إلا وجدته متكاملًا فيها.

وفي مثل هذا المعنى يقول أبو الشيص^١:

وقفَ الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... متأخراً عنه ولا متقدماً
أحدُ الملامة في هوائكِ لذيدة ... حباً لذكركِ فليلمني اللومُ
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً ... ما من يهون عليك من أكرم

وإذا كانت كل خواطر العشاق فيما يتمناه واقعة ممن يهواه على الأمر الذي يرضاه فهذه في المشاكلة الطبيعية التي لا يفنيها مرُّ الزمان ولا تزول إلا بزوال الإنسان وإذا صحَّ هذا المذهب لم يعجب من أن يميل الإنسان إلى الإنسان بخلة أو خلّتين فإذا زالت العلّة زال الهوى فلا يزال المرباط متنقلاً إلى أن يصادف من يجتمع فيه هواه فحينئذ يرضاه فلا ينعطف عنه إلى أحد سواه.

^١ التذكرة الحمدونية ٦ / ٦٠ ط دار صادر، بيروت

ثمَّ يزداد التَّيِّم فيصير وَلَهَا والوله هو الخروج عن حدود الترتيب والتَّعَطُّل عن أحوال التَّمييز حتَّى تراه يطلب ما لا يرضاه ويتمنَّى ما لا يهواه ثمَّ لا يحتذي مع ذلك مثالاً ولا يستوطن حالاً.

وقد قال أبو تمام في نحو هذا:

ولَهْتُهُ العُلَى فليسَ يعدُّ ال ... بؤسَ بؤساً ولا التَّعِيمَ نعيماً

والشَّوق تابع لكلِّ واحدة من هذه الأحوال والمستحسن يشق إلى ما يستحسنه على قدر محلّه من نفسه ثمَّ كلّما قويت الحال قوي معها الاشتياق فالحبُّ وما أشبهه يتهيأ كتماناً فإذا بلغت الاشتياق بطل الكتمان.

من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه

أصل الهوى يتولّد من التَّظَر والسَّماع ثمَّ ينمي حالاً بعد حال فإذا كان النظر الصَّاحي إلى الصُّورة الَّتِي يستحسنها طرفه مؤكّداً للمنظور إليه المحبّة في قلبه كان نظر الحبِّ بعد تمكُّن المحبّة له أحرى أن يغلبه على لُبّه ويزيده كرباً على كربه ألا ترى أن من حمَّ يومين متواليين كان ألمه في الثاني من اليومين إذا تساوى مقدار الحمّيين أصعب إليه من أوّل اليومين.

وفي مثل ذلك يقول حبيب بن أوس الطائي^١:

بَعَثَنَ الهوى في قلبٍ من ليسَ هائماً ... فقلَّ في فؤادٍ رُعنُهُ وهو هائمٌ

^١ العقد الفريد ٦ / ٢٦٢

وقال الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع^١ :
 وأتاني مُفحَمٌ بغيرته ... قلتُ له إذ خلوتُ مُحْتَشِماً
 تحبُّ بالله من يَحْصُكَ بالحبِّ ... فما قالَ لا ولا نعماً
 ثمَّ تولَّى مُقلِّتي خجلٍ ... أراد ردَّ الجوابِ فاحتشماً
 فكنتُ كالمُبْتَغِي بِحِيلَتِهِ بُرْءاً ... من السُّقْمِ فابتدا سقماً

ليس بلبيبٍ من لم يصف ما به لطبيبٍ

قال أنو شروان لبزرجمهر متى يكون العبيُّ بليغاً فقال إذا وصف هوًى أو حبباً . وقيل
 لبعضهم : متى يكون البليغ عبيّاً فقال إذا سئل عما يتمناه أو شكاه ما به إلى من يهواه .

وقال الجنون :

أتيتُ مع الحداثِ ليلي فلمْ أفلَ ... وأخليتُ فاستعجمتُ عندَ خلائي
 وجئتُ فلمْ أنطقْ وعدتُ فلمْ أحرُ ... جواباً كلاً اليومينِ يومَ عنائي
 فيا عجباً ما أشبهَ اليأسَ بالغنى ... وإنْ لم يكونا عندنا بسواءٍ

وهذا المعنى الذي ذكره ليس بمستنكر قد تمنع الحبُّ هيبة المحبوب من النيل الذي هو
 اللطف من الشكوى محلاً في القلوب.

^١ الأغاني ١٥ / ٢٦١

قال أبو العباس أحمد بن يحيى^١:

وإني لأخشى أن أموت فجأةً ... وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا
وإني لئنسني لقاءك كلما ... لقيتك يوماً أني أثبتك ما بيا
وقالوا به داءٌ عيأٌ أصابه ... وقد علمت نفسي مكان دوائيا

فهذا يخبر أن لقاءها هو الذي يمنعه من شكوى ما يجده إلا أنه يشفق من ضرره على نفسه ولا يُبقي بكتمانها على غيره على أنه قد قصر عنه كثير من أهل هذا العلم في قوله: إن لقاءها يحدث في قلبه حالاً لم تكن قبل ذلك ظاهرة من نفسه إذ لو كان الهوى قد استوفى منه حقه وتناهى به إلى غاية بعده لما كان اللقاء يزيد شيئاً ولا ينقصه.

كما قال يزيد بن الطثرية^٢:

ولما تناهى الحب في القلب وارداً ... أقام وسُدَّتْ بعدُ عنه مصادره
فأيُّ طبيبٍ يُبرئُ الحبَّ بعدما ... يسرُّ به بطنُ الفؤادِ وظاهره

إذا صحَّ الظفرُ وقعتِ الغيرُ

الحبيب يستعطف محبةً ليشرف على حقيقة ما في قلبه وليتمكن أيضاً هواه من نفسه فإذا وقع له اليقين استغنى عن التعرُّف وإذا حصل له الودُّ استغنى عن التألُّف فحيثُذ يقع الغضب عن غير ذنب والإعراض من غير وجدٍ لسكون القلب الوائق واستظهار المعشوق على العاشق.

^١ الأغاني ٢ / ١١

^٢ الأغاني ١٦ / ٢٠

قال جميل بن معمر^١:

إذا قلتُ ما بي يا بئينة قاتلي ... من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ رُدِّي بعضَ عقلي أعشْ به ... مع النَّاسِ قالتْ ذاكَ منكَ بعيدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يبئدُ يبئدُ
إذا فكَّرتُ قالتْ قد أدركتُ ودَّه ... وما ضربني بُخلي ففيم أجودُ
يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها ... ويحیی إذا فارقتها فيعودُ
وقال ذو الرمة^٢:

ولمَّا شكوتُ الحبَّ كيما تُثيبي ... بوجدي قالتْ إنما أنتَ تمزحُ
دلالاً وإبعاداً عليَّ وقد أرى ... ضميرَ الحشَى قد كادَ بالقلبِ يترحُ

فهذا التَّجَنِّي والمباعدة أمتع من الإقرار والمواصلة لأن الوصل المتقدم لوقوع العلم إن كان عن مودة صادقة لم يزد العلم بحقيقة الحال إلا تأكيداً وإن كان امتحاناً وتعرُّفاً لم تزد الثقة إلا وفاء وتعطُّفاً وإن كان الذي تظهره الثقة والإدلال نعمة لا يؤدى شكرها إذ كان دليلاً على تمام الحال التي قصدها ومنهم من يتظاهر عليه ثقلها فيضعف فؤاده عن حملها فتراه ينهى ويأمر بالكتمان ومن قنع بهذه الحال كان انتفاعه قليلاً وقلقه بتعرُّف حاله عند صاحبه طويلاً وليست تنال الرُّتب إلا بالتَّجاسر ولا تصحَّ العلى إلا للمخاطر وربما نجت الجبان قناعته وأهلكت الشُّجاع جسارته .

هوي امرؤ القيس فتاة من الحيِّ فلماً وقفت على ما لها عنده هجرته فأشفى على التلف فلما بلغها ذلك جاءت فأخذت بعضادتي الباب وقالت كيف نجدك يا امرؤ القيس فأنشأ يقول:

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٩٩/٥

^٢ المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص ٢٨١

دنت وظلالُ الموتِ بيني وبينها ... وأدلتُ بوصلي حينَ لا ينفعُ الوصلُ

ثمَّ لم يلبث إلاَّ يسيراً حتَّى مات فمن غلب عليه الجبن من مثل هذه الحال مال إلى التستر والكتمان ومن طمع في مثل ما ذكرنا من حسن المجازاة بالعدل والوصال مال إلى الإعلان وبلوغ الغاية في الوجهين جميعاً شديد والتوسُّط أقرب إلى السَّلامة لأن من لم تعلمه بما تنطوي له لم تلدَّ بما يبدو لك من وصله والهجر الذي يتولَّد عن الثَّقة بالوداد خير من الوصال الذي يقع من غير اعتماد ومن أطلَّعته على كل ما تضرمه له لم تجد سبيلاً إلى مكافاته على ما يتجدد لذلك من إحسانه هذا إذا سلمت من الدَّالة المؤدِّية إلى التلف فخير الأمور لمن أطاقه أن يظهر بعضاً ويخفي بعضاً ثمَّ يظهر الازدياد حالاً فحالاً على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها محالاً.

ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول^١:
 مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ سَيَكُمُ حَبَّةٌ ... حَتَّى يَشْكُكَ فِيهِ فَهُوَ كَذُوبُ
 الْحُبِّ أَغْلَبُ لِلرَّجَالِ بِقَهْرِهِ ... مِنْ أَنْ يُرَى لِلسَّرِّ فِيهِ نَصِيبُ
 وَإِذَا بَدَأَ سِرُّ اللَّيِّبِ فَإِنَّهُ ... لَمْ يَدُ إِلَّا وَهُوَ مَغْلُوبُ
 إِنِّي لَأُبْغِضُ عَاشِقًا مُتَحَفِّظًا ... لَمْ تَنْتَهَمْهُ أَعْيُنُ وَقُلُوبُ

التَّذلُّلُ لِلْحَبِيبِ مِنْ شِيمِ الْأَدِيبِ

قد ذكرنا أن تقصير المحبوب عن مواصلة محبة وتراخيه عن إظهاره على كل ما له في قلبه إنما يتولَّدان عن وقوع الثَّقة به فربَّما جهل الحبُّ على نفسه فتوهَّم أنَّ ذلك داخل في باب

^١ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١١٦/٢ ط شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت

الخيانة والغدر فكافى عليه بالانحراف والهجر فيجني على نفسه ما لا يتلافاه العذر ولا يقاومه
الصبر والحازم من صبر على مضاضة التذلل والتمس العز في استشعار التذلل فحينئذ يتمكن
من وداد محبوبه ويظفر من هواه بمطلوبه.

قال الحسن بن هانئ^١:

يا كثير التَّوَحُّ في الدَّمَنِ ... لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنَّةُ العَشَّاقِ واحدةٌ ... فإذا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ
وقال كثير^٢:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُولَةً ... لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ ثَقَلَتْ
أَصَابَ الرَّدَى مَنْ كَانَ يَهْوَى لَكَ الرَّدَى ... وَجُنَّ اللَّوَاتِي قَلْنَ عَزَّةً جُنَّتْ
خَلِيلِي هَذَا رَسْمُ عَزَّةٍ فَاعْقِلَا ... قُلُوبُ صَيِّكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ

وهؤلاء كلهم ومن جرى في هذا القول مجراهم إنما يتضاجرون على خلاتهم لثقلهم
إيَّاهم عن عاداتهم ومنعهم إيَّاهم ما استعبدوه من مواصلاتهم لتغلب الحيرة على قلوبهم يحسبون
أنَّ انحرافهم عن أحبَّابهم أقلُّ أذى عليهم من الصبر لهم على محبَّاتهم ولو قد أنفذوا ما عزموا
عليه من الفراق والهجر لشاهدوا ما يضطرُّهم إلى الرجوع بالصَّغر والتَّوسل إلى الصَّفح بالعذر

ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول^٣:

لَا بَدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ ... تَكُونُ بَيْنَ الْوَصْلِ وَالصَّرْمِ
حَتَّى إِذَا الْمَجْرُ تَمَادَى بِهِ ... رَاجَعَ مِنْ يَهْوَى عَلَى رَغَمٍ

^١ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٦٣٥/٢

^٢ الأغاني ٩ / ٣٩

^٣ الأغاني ٦ / ٣١٠

من طال سروره قصرت شهوره

من صبر على الامتحان لمن يهواه على مثل ما ذكرناه كان خليقاً أن يبلغ أقصى مُناه
وأهل هذه الحال الذين يحمدون الهوى ويشكرونه ويصفون لذاته للذين لا يعرفونه ويزرون
على عيشٍ من لم يتطعم مذاقه ولم يُتعبّد باسترقاقه ألم تسمع الذي يقول^١:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جليداً
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي ... وإن لأم ذو الشنان فيه وفندا
تبعث الهوى جُهدي فمن شاء لامي ... ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا
والكميت أنصف من هذا حيث يقول^٢:

ما ذاق يؤس معيشة ونعيمها ... فيما مضى أحد إذا لم يعشق
الحب فيه حلاوة ومرارة ... سائل بذلك من تطعم أو ذق

أما هذه المخاطبة فقلما يقع ألطف منها لفظاً ولا أجل منها موقعاً ولو لم يصبر المحب
على امتحان إلفه إلا بسمع مثل هذا من لفظه لكان ذلك حظاً جزيلاً ودركاً جليلاً فكيف
وحال الصفاء إذا ابتدأت بين المتحابين بالمشاكلة الطبيعية ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق
الدنيئة ثم عذبت بالرعايات الاختيارية بلغت بهما الحال إلى حيث انقطعت بهم دونه الآمال
وعلى أن الحزم لمن سومح بالوصول ألا يرسل نفسه كل الإرسال فإن ذلك ربما دعا المحبوب
إلى الملal وإن كان مقيماً على رعاية الحال.

ولقد أحسن الذي يقول^٣:

^١ الأغاني ١٥ / ١٢٦

^٢ المجلس الصالح ص ٢٤٢

^٣ المجلس الصالح ص ١٦٤

عليك بإقلالِ الزَّيَّارَةِ إِنَّهَا ... تكونُ إذا دامتُ إلى الهجرِ مسلَكًا
فإنِّي رأيتُ القطرَ يُسَامُ دائماً ... ويُسألُ بالأيدي إذا هو أمسكاً

مَنْ كَانَ ظَرِيفًا فَلْيَكُنْ عَفِيفًا

لو لم تكن عَفَّةً المتحايين عن الأذناس وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة النَّاسِ محرماً في
الشرائع ولا مستقبحاً في الطبائع لكان الواجب على كلِّ واحد منهما تركه إبقاءً ودّه عند
صاحبه وإبقاءً على ودِّ صاحبه عنده.

قال حمزة بن أبي ضيغم^١:
وبتنا خلافَ الحيِّ لا نحنُ منهم ... ولا نحنُ بالأعداءِ مُختلطانِ
وبتنا يقيناً ساقطَ الطَّلِّ والنَّدَى ... من اللَّيْلِ برداً يمينَ عَطْرانِ
نذودُ بذكرِ الله عَنَّا غَوَى الصَّبَى ... إذا كادَ قلبانَا بنا يردانِ
ونصدِرُ عن ريِّ العفافِ وربَّما ... سُقينا عليكِ النَّفسَ بالرَّشْفانِ

وقال العباس بن الأحنف^٢:
أتأذنونَ لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهواتُ السَّمْعِ والبصرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إن طالَ الجلوسُ به ... عَفُ الضَّمِيرِ ولكن فاسقُ النَّظَرِ
وأحسن من هذا قول عمر بن أبي ربيعة^٣:

^١ المجلس الصالح ص ١٠١

^٢ التذكرة الحمدونية ٦ / ٢٢٩

^٣ العقد الفريد ٥٦/٧

نظرتُ إليها بالخصبِ مِنْ مَنْى ... وليَ نظرٌ لولا التَّحَرُّجُ عارمُ
 فقلتُ أَشْمَسُ أَمْ مصابيحُ بيعةٍ ... بدتْ لكَ خلفَ السَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حالمُ
 بعيدةٌ مهوى القرطِ إمَّا لنوفلٍ ... أبوها وإمَّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ
 طلبنا الصَّبَى حتَّى إذا ما أَصْبَنَهُ ... نزعنا وهنَّ المسلماتُ الكرائمُ

و عن الأصمعي أَنَّهُ قال بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول^١:

لَنْ يقبلَ اللهُ مِنْ معشوقةٍ عملاً ... يوماً ووامقُها غضبانُ مهجورُ
 وكيفَ يَأْجُرُها في قتلٍ عاشِقَها ... لكنَّ عاشِقَها في ذاكَ مأْجورُ

قال فقلت لها يرحمك الله أفي مثل هذا الموضع تنشدني هذا فقالت إليك عني يا عراقي لا رهقك فقلت لها وما الحب فقالت هيهات جل والله عن أن يُحصى وخفي عن أن يُرى فهو كامن ككُمون النار في حجرها إن قدحته ورى وإن تركته توارى ثم أنشأت تقول:

إنسُ غرائرُ ما هممنَ بريئةٍ ... كظباءِ مكَّةَ صيدهنَّ حرامُ
 يُحسبنَ من لينِ الحديثِ فواسقاً ... ويصدُّهنَّ عنِ الحنا الإسلامُ^٢

و دخل العباس بن سهل الساعدي على جميل وقد احتضر فقال له جميل بلِّغنا أَتظنُّ رجلاً عاش في الإسلام لم يزن ولم يسرق ولم يسفك دمًا حراماً ناجياً من هول يوم القيامة قال العباس فقلت أي والله فمن ذلك قال إنِّي لأرجو أن تكونه قال فتبسَّمت وقلت أبعاد إتيانك بثينة عشرين سنة فقال إنِّي في آخر يوم من أيام الدُّنيا وأول يومٍ من أيام الآخرة فلا

^١ الظرف والظرفاء ص ٩٢

^٢ الظرف والظرفاء ص ٩٢

نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن كنتُ حَدَّثْتُ نفسي بحرامٍ منها قَطُّ عَمَّا وراء ذلك قال ثم مات من يومه.

ليسَ من الظَّرفِ امتِّهانُ الحبيبِ بالوصفِ

من ساحتته الأيام لمحابه ورُزق حسن الوفاء والمساعدة من أحبابه ما يجب عليه في حدود الظرف دون ما يجب عليه من رعاية حقوق الإلف أن يقابل نعم الله عليه بما يوجب المزيد فيها لديه فإن لم يفعل ذلك فلا ينبغي له أن يتعرض لأسباب المهالك وليعلم أن وصف ما في صاحبه من الخصال المرتضاة مُغري بمن علمها بالمشاركة له في هواه ولقد أحسن الذي يقول:

ولستُ بواصفٍ أبداً خليلاً ... أُعْرضُهُ لأهواءِ الرِّجالِ

وما بالي أشوقُ عينَ غيري ... إليه ودونه سترُ الحِجالِ

كأنِّي آمنُ الشُّركاءَ فيه ... وآمنُ فيه أحداثَ الرِّمالِ^١

وما قصر علي بن محمد العلوي حيث يقول^٢:

ربَّما سرَّني صدودك عني ... وتنائيكَ وامتناعك منِّي

ذاك ألا أكونُ مفتاحَ غيري ... وإذا ما خلوتُ كنتَ التَّمَنِّي

وإذ قد دللنا على قبح وصف الخليل بما فيه من الخلق والخلق الجميل فلا حاجة بنا إلى دلالة على قبح الوصف لما حمل عليه نفسه من المسامحة بصاحبه والمصارعة إلى بلوغ محبته فإن المحبوب ربما دعت الرأفة بمحبته أو الإشفاق عليه إلى أن يحمل نفسه على ما لا يوجبه حقُّ

^١ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢ / ٢٥٧

^٢ أخبار النساء ص ١٠١

الهُوَى عليه وعلى ما لم يوصله صاحبه منه وأن يدعه إليه تحقّقاً بالرّعاية لمن يهواه وتطرّفاً بالسياسة له إلى أكثر ما يتمنّاه وإن لم يقع ذلك إلّا بالحمل على النفس والغضّ منها فإذا كان وصف الخلقة الّتي لا يتهيأ نقلها ولا يعاب بها صاحبها ليس بجميل كان وصف الخلائق الّتي قد سُمح فيها أخرى أن يكون غير جميل.

قال امرئ القيس:

فلَمَّا دنوتُ تسدّيْتُها ... فثوباً نسيْتُ وثوباً أجزُ
ولم يرنا كاليّ كاشحٌ ... ولم يُفشَ منّا لَذَا البيتِ سرُ
وقد رابني قولُها يا هناهُ ... ويحكْ ألحقتَ شرّاً بشرّاً^١

فما أدري من أي أمره أعجب أمن خشية في نفسه أم من جهله بأمره يفرح بأن لم يرههم كاشحٌ ولم يفش لهم في البيت سرٌ وما عسى الكاشح لو رآهم إن كان يصنع بهم هل كان يستطيع أن يشيع عليهم إلّا بعض تشييعهم على أنفسهم.

ولعمري قد أحسن الذي يقول:

ما يبلغُ الأعداءُ منْ جاهلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ منْ نفسه

فأما هذا النحو من الشّعْر فلست أنشط لذكره لا من شعر امرئ القيس ولا من شعر غيره فهو فعل خارج عن حدّ الديانة والمروءة وما خرج عن حدّ هذين البابين تعدّى عيه من فاعله إلى ناشره ومستحسنه وأما ما ذكرناه في الباب الثامن من وصف اجتماع الحبّ مع محبوبه ومُسامحته له فيما يحور محبوبه فهو لعمري معيب ممّن حكاه عن نفسه وعن صاحبه إلّا أنّه عيبٌ لا ينهتك ستر المودّة. مثله فمن أجل ذلك سأمنا بذكره وإن كانت مرتبة الكمال

^١ خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ١/ ٣٧٥

موجبة لغيره وكذلك نتساهل إن شاء الله في ذكر بعض ما وصفه المحبُّون من صور المحبوبين وإن كان فيه بعض المهجنة بهم فإنَّ فيه بعض المنفعة لغيرهم.

سوء الظنِّ من شدَّة الضنِّ

قال الزبير بن بكار: قال جميل بن معمر: ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلاَّ غرت على بثينة وهي بالحجاب وبينهما مسيرة ثلاث.^١

وقال العباس بن الأحنف^٢:

لم ألقَ ذا شجنٍ يوحُ بحبه ... إلاَّ ظننْتُك ذلك المحبوا
حذراً عليك وإني بك واثق ... ألا ينال سواي منك نصيبا
وقال بشار بن برد^٣:

كأنَّ فؤاده كرهٌ تترى ... حذارِ البين لو نفع الحذارُ
يُروِّعنا السَّرارُ بكلِّ شيءٍ ... مخافةً أن يكونَ به السَّرارُ
قال أحمد بن يحيى:

وما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلوَ المذاقِ
ترأه باكيا أبدا حزينا ... مخافةً فرقةً أو لاشتياق
فبيكي إن نأوا شوقاً إليهم ... وبيكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التناهي ... وتسخن عينه عند التلاق^٤

^١ عيون الأخبار ٤ / ٢١

^٢ العقد الفريد ٨ / ١٣٠

^٣ زهر الآداب وثمر الألباب ٣ / ٨٠١ ط دار الجليل، بيروت

^٤ الأمايلي للزجاجي ص ٤٤ ط دار الجليل - بيروت

وهذه المكاره كلها أثمار تلك الملاذ التي قبلها وذلك أن من هوى إنساناً فإنما قصاره حين يهواه أن يعيد نظره إليه فيروى من شخصه ويستمتع من لفظه فإذا هَمَّ ذلك له ازداد وحده به أضعافاً على ما كان في قلبه ثم تدعوه نفسه بعد ذلك إلى كثرة التلاقي والمواصلة وتنسبط للمسائلة والمشاورة وهو في كل هذه الأحوال مشغول بحظوظ نفسه غير فارغ معها لصباغة غيره بل يحب أن يكون إلفه سمحاً بالمواصلة لمن علم أنه يودُّه ليكون ذلك سبباً له إلى مواصلته وتسهيلاً له السبيل إلى معاشرته فإذا تمكَّن ودُّه من نفس محبوبه فاستشعر الوفاء له ودفع قياده إليه فلم يعترض شيء من أمره عليه لكسبه ذلك ضمناً به وصيانة له.

إذا ازداد رعيًا للهوى زِدْتُهُ هَوًى ... وضنني به مقدار هذين يضعفُ
قفوه أمني زائدٌ في تخوفي ... ولا حظَّ لي في أن يزول التَّخَوُّفُ
فلا يتشاغل عاذلٌ بنصيحتي ... فمثلي على إرشاده لا يوقِفُ
ولا يرث لي في ذلتي وتواضعي ... فإنني بهذا الذلُّ أزهى وأشرفُ

فما ظنُّك بترادف حالين كلُّ واحدةٍ منهما سبب لصاحبتهما متى يكون انقضاؤهما أم كيف يتوهَّم زوالهما لا سيَّما وإحداهما قد كانت قوَّهما في نفسها منميةً لها قبل أن تبتدئ الأخرى في معوتتها فإذا انتهت الحال إلى حيث وصفنا فرغ الحبُّ حينئذٍ من المطالبة بحظوظ نفسه وتشاغل بالمطالبة بحقوق إلفه فأنف له من معاشرة غيره بل صانه وأشفق عليه من مخالطته هواه وعاد إلى ما كان يحسب له به مكرمةً من برِّه به فجعله عليه هُجْنَةً وأوهم نفسه أن ذلك الذي ناله غيره ممنوع من كلِّ من سألَه ألم تسمع الذي يقول:

فلا تُكثري قولاً منحتك ودَّنا ... فقولك هذا في الفؤادِ مُريبُ
تُعَدِّينَ ما أوليتني منك نائلاً ... وللقابسِ العجلانِ فيك نصيبُ^١

^١ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢ / ٢٦٣

وفي نحو هذا المعنى يقول الآخر:

تَمَتَّعْ بِهَا مَا سَاعَفَتْكَ وَلَا تَكُنْ ... عَلَيْكَ شَجاً تُؤْذِيكَ حِينَ تَبِينُ
وإنَّ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيَانَ فَإِنَّهَا ... لِآخِرٍ مِنْ خُلَاهَا سَتَلِينُ^١

فحيثُ يظنُّ الحبُّ ما لا يخشاه ويتمنَّى ما لا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الذي ذكرناه.

يُسِيءُ مِنْ كَثَرَةِ الظَّنِّ الظُّنُونُ بِهَا ... حَتَّى يَظُنَّ ظُنُوناً لَيْسَ يَخْشَاهَا

ومرتبة العشق التي هي في هذا الطريق إلى هذه المرتبة توجب على الحب طاعة المحبوب في كلِّ ما أحبه حتَّى لا يعصي له أمراً ولا يُقْبِحَ له فعلاً.

والعاشق ما دامت حال العشق مالكة يتوهم ألا غاية بعدها ولا رتبة فوقها ويرى أن اعتراض الحب على محبوبه إنما هو من نقض حاله في قلبه وليس الأمر بحيث علي بل هو بضده.

ولقد أحسن علي بن الرومي في قوله^٢:

يَا أُخِي أَيْنَ رِيْعُ ذَاكَ الْإِحْءَاءِ ... أَيْنَ مَا كَانَ بَيْنَنَا مِنْ صَفَاءِ
أَنْتَ عَيْنِي وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي ... طَبَقُ أَجْفَاهَا عَلَى الْأَقْدَاءِ

^١ العقد الفريد ٧/ ١٣٧

^٢ أحسن ما سمعت ص ٢١ ط دار الكتب العلمية .

مَنْ وَفَى الْحَبِيبُ هَانَ عَلَيْهِ الرَّقِيبُ

وإنَّما يغلظ أمر الرقيب على من يمتحن بمفارقة الحبيب فأما من غلبه الفراق وملكه
الإشفاق وأذاع سره الاشتياق قلَّ اكترائه بمن يرتقبه بل سهل عليه ألا يعاين من يحبه إذا وثق
بقربه منه وأمن من إعراضه عنه وربما كانت غيبة الحبيب أيسر من حضوره مع الرقيب وهذا
شيء تختلف فيه الآراء على حسب غلبات الأهواء.

من منع من كثير الوصال قنع بقليل النوال

قال ذو الرمة^١:
أَلِمَّا بِي قَبْلَ أَنْ تَطْرَحَ التَّوَى ... بِنَا مَطْرَحًا أَوْ قَبْلَ بَيْنِ يُزِيلُهَا
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَعْرَسُ سَاعَةٍ ... قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا
خَلِيلِي عُدًّا حَاجَتِي مِنْ هَوَاكُمَا ... وَمَنْ ذَا يُدَاوِي النَّفْسَ إِلَّا خَلِيلُهَا
وقال جميل:

وَيَقْلَنَ إِنَّكَ قَدْ رَضِيتَ بِبَاطِلٍ ... مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي اعْتِرَالِ الْبَاطِلِ
وَلِبَاطِلٍ مِمَّنْ أَحَبُّ حَدِيثُهُ ... أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الْبَغِيضِ الْبَاطِلِ
وَلَرُبَّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلَهَا ... بِالْجِدِّ تَخْلُطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
فَأَجَبْتُهَا بِالْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتُرٍ ... حُبِّي بُثْنَةً عَنْ وَصَالِكِ شَاغِلِي
لَوْ كَانَ فِي قَلْبِي كَقَدْرِ قَلَامَةٍ ... فَضْلٌ وَصَلْتُكَ أَوْ أَتَتْكَ رِسَائِلِي^٢

^١ ديوان ذي الرمة: ٩١٣

^٢ الشعر والشعراء ٥٠٠/١ ط دار الحديث، القاهرة

أما هذا فقد دلنا بغاية جهده على شدة تمكُّنها من قلبه وأخبرنا مع ذلك في شعره أنه لو
هَيَّأ خلاص شيء من حبه من يدها لصرفه إلى غيرها وهذه حال لا تُرضي أهل الوفاء ولا
يستعملها أهل الصفاء.

وإني لأرضى منك يا ليل بالذي ... لو أخبره الواشي لقرت بلابله
بلى وبأن لا أستطيع وبألني ... وبالوعد حتى يسأم الوعد آمله
وبالتظرة العجلى وبالحول تنقضي ... وأخره لا تلتقي وأوائله^١

هذه لعمري قناعة شديدة تدل على أن وراءها ذلة وكيدة لأن من يتهياً له من يهواه لا
يقنع بأن لا يراه وبأن يعده وعده إلا يطالبه بوفائه ولعمري إن هذه الحال تقر عين المعادي
وتسخن عين الموالي إلا أنه وإن كان قد بالغ في القناعة فإنه قد التمس التعلل بالوعد ويتأمل
اللقاء على البعد ومن قنع بترك اللقاء وأقام على حال الوفاء كان أتم حالاً.

وقال أبو صخر الهذلي^٢:

ويقر عيني وهي نازحة ... ما لا يقر يمين ذي الحلم
إني أرى وأظن أن سترى ... وضح النهار وعالي النجم

وهذه لعمري قناعة مفرطة في باها وإن كانت مقصرة عن حال التمام لأن صاحب هذه
الحال يستجلب بعداً لنفسه نسيم الوصال .

وكل هذه الأحوال ناقصة عن حد التمام على عجب أصحابها بما وافتخارهم بذكراها
وتوهمهم أن قد هيأ لهم على أنفسهم ما لم يتهيأ لغيرهم من صبرها لأحبائهم على الحظ

^١ الوحيات ص ١٨٩ ط دار المعارف .

^٢ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١٣٤/٢

اليسير من نواهم وأتم من هؤلاء في الحال وأحسن صبراً على قليل النوال بل على ترك جميعه من رضي من التل بسلامة محبوبه وكان ذلك نهاية مطلوبه.

مَنْ حُجِبَ مِنَ الْأَحْبَابِ تَذَلُّ لِلْحُجَّابِ

أصل الحجاب يكون من جهتين إما أن يقع من المحبوب اختياراً وإما أن يوقعه غيره به اضطراراً فأما الاضطرار فقسم واحد وهو صون المحبوب عن المحجوب وأما الاختيار فينقسم على ضروب فربما كان امتحاناً للمحب من المحبوب وربما كان خوفاً عليه من الرقيب وربما كان استدعاءً للزيادة في الحال وربما كان إشفاقاً على النفس من العذال وتصوناً عن قبيح المقال وربما كان على جهة الضجر والملال وهذا هو شر الأحوال .

قال قيس بن ذريح:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عيني من دائم البكا ... ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري^١
وقال أبو تمام الطائي^٢:

صبراً على المطل ما لم يتله الكذب ... فللخطوب إذا ساحتها عقب
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً ... إن السماء تُرجى حين تحتجب
وقال ابن أبي طاهر^٣:

حُجِبْتُ وَقَدْ كُنْتُ لَا أُحِبُّ ... وَأُبْعِدْتُ عَنْكَ فَمَا أَقْرَبُ
وَمَا لِي ذَنْبٌ سِوَى أَنِّي ... إِذَا أُغْضِبْتُ لَا أُغْضِبُ

^١ التذكرة الحمدونية ٦ / ١٠١

^٢ ديوان أبي تمام ٢٢

^٣ دمية القصر وعصرة أهل العصر ١ / ٣٢٩ ط دار الجيل، بيروت

وَأَنْ لَيْسَ دُونَكَ لِي مُطْلَبٌ ... وَلَا دُونَ بَابِكَ لِي مُهْرَبٌ
فَلَيْتَكَ تَبْقَى سَلِيمَ الْحَلِّ ... وَتَأْذَنُ إِنْ شِئْتَ أَوْ تَحْجُبُ

وأرى في هذه الأبيات ما يدلُّ على ضجر من المحجوب وقلة صبر منه على نازلات الخطوب ولعمري كان الضَّجْر على ما لا يصلح منه الانتصار ولا ينبسط عليه الاقتدار مهجناً لظهوره ومزرياً. مستشعره فإن من تسامح له الزَّمان وتغافلت عنه صروف الأيام فوقع في مرعى خصيب وظفر بما لم يأمله المحجوب ثم عطفت عليه الأيام عطفة الحنق المغتاض فاسترجعت ما أعطته واستردَّت ما أعارته لغير معنَّف على الحيرة والتَّخليط والتَّأسُّف على ما قدَّم من التَّفريط.

ولا ينبغي للعاقل أن يفرط في الجزع من غير الأيام فإنَّ الدَّهر حالٌ بعد حالٍ وكما كان اتِّصال السُّرور ذريعة إلى وقوع الخذور فكذلك ربَّما كان وقوع المكروه من أقوى الأسباب لرجوع المحابِّ ولقد أحسن كل الإحسان أبو تمام حيث يقول:

قَدْ يَنْعَمُ اللَّهُ بِالْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَتَلَيَّ اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ

مَنْ مَنَعَ مِنَ الْوَصُولِ اقْتَصَرَ عَلَى الرَّسُولِ

ذكروا أنَّ جميلاً وكثيراً التقيا فقال جميل لكثير بأني أريد أن تصير إلى بنية فتأخذ لي عليها موعداً، فقال له: ويحك من عند عمِّها جئت وغاشية أهلها كثير قال له جميل: إنَّ الحيلة تأتي من وراء ذلك فقال له كثير: فأعطني علامة تعرفها قال جميل: آخر يوم التقينا كنَّا في وادي الدَّوم فأصاب ثوبها شيء من ورق الشَّجر فغسلته فمضى كثير إلى عمِّها فقال له: ما الذي ردَّكَ؟ فقال: أبيات صنعتها في عزَّة أحببت أن تسمعها قال: وما هي؟ فأنشأ يقول:

أقول لها يا عزَّ أرسل صاحبي ... على نأي دارٍ والموكلُ مُرسلُ
بأن تجعلني بيني وبينك موعداً ... وأن تأمريني ما الذي فيه أفعُلُ
أما تذكرين العهدَ يومَ لقيتكم ... بأسفل وادي الدَّومِ والثَّوبُ يُغسلُ

فلما سمعت ذلك بثينة قالت: إخساً قال لها عمُّها: ما الذي أحسأت يا بثينة؟ قالت: كلباً
كان يعترينا ليلاً وقد رأيته نهاراً فانصرف كثيرٌ إلى جميل وعرفه أنا قد ذكرت الليل فصر
إليها.^١

قال ابن أبي أمية^٢:

أقول وقد أجدَّ رحيلُ صَحْبِي ... لِخِدْنِيَّ اهْدِيا هدياً جميلاً
ألمَّا قبلَ بينكما بسُلْمِي ... فقولاً أنتِ ضامنةٌ قتيلاً
رجاً منك التَّوَالِ فلم تُثِيلِي ... وقد أورثته سقماً طويلاً
فإن وصلتكما سُلْمِي فقولاً ... نَرَى في الحقِّ أنْ نصلَ الوَصُولاً
وإنْ آنستُما بخلاً فلسنا ... بأوَّلِ مَنْ رَجَا حرجاً بخيلاً
وقال عمر بن أبي ربيعة:

أرسلتُ أسماءَ في معتبةٍ ... عَتَبَتْهَا وهي أحلى مَنْ عتبُ
إذ أتى منها رسولٌ موهناً ... وجدَّ الحيَّ نياماً فانقلبُ
ضربَ البابَ فلم يشعرْ به ... أحدٌ يفتحُ عنه إذ ضربُ
قال أيقاظٌ ولكن حاجةٌ ... عرضتُ تُكتمُ منَّا فاحتجبُ
ولهذا ردَّني فاجتهدتُ ... يمينَ حلفتُ عندَ الغضبِ
أشهدُ الرَّحْمَانَ لا يجمعُنا ... سَقَفُ بيتٍ رَجياً حتَّى وجبُ

^١ المحاسن والأضداد ص ٢٩٢ ط دار ومكتبة الهلال، بيروت

^٢ الأُمالي ص ١٢٥

قلتُ يا هندُ اعْمِدِي لي نحوها ... واحلفي باللهِ كَشَّافِ الكربِ
 فأنتِها طَبَّةُ عالمةٌ ... تَخْلُطُ الجَدَّ مراراً باللَّعبِ
 ترفعُ الصَّوتَ إذا لانتَ لها ... وتراخى عندَ سورَاتِ الغضبِ
 لم تزلْ تصرِفُها عن رَأْيِها ... وتأنَّها برفقٍ وأدبٍ
 ولما سمع ابن أبي عتيق هذا الشعر قال لعمر بن أبي ربيعة النَّاسُ في طلب خليفة مثل
 قوَّادتك هذه منذ قتل عثمان بن عفان فما يقدرُون عليه.

قال أبو تمام الطائي في وصفه كتاباً ورد عليه وأحسن^١:
 فضضتُ خِتامَهُ فتبَلَّجتُ لي ... غرائبُهُ عن الخَيْرِ الجليِّ
 وكانَ أَجَلَ في عيني وأبْهَى ... على كبدِي من الزَّهرِ النَّديِّ
 وأحسنَ موقِعاً مِنِّي وعندي ... من البُشرى أَتَتْ بعدَ النَّعيِّ
 وضمَّنَ صدرُهُ ما لم تضمَّنْ ... صدورُ الغانياتِ من الحليِّ

مَنْ أَحَبَّهُ أَحِبَّابُهُ وَشَى بِهِ أَتْرَابُهُ

مكايد الوشاة كلها تنقسم على ثلاثة أقسام فسعاية المتحايين إلى غيرهما وسعاية المحبِّ إلى محبوبه وسعاية المحبوب إلى محبِّه فهذه عند كثير من الأدباء أضعف المكايد أثراً وليس الأمر كذلك ولا هو أيضاً بضدِّ ذلك ولكنَّه محتاج إلى نقصان أمَّا العشاق والمُتَمِّمون فلا يقبلون قول الوشاة بل لا يسمعونَه لأنَّ الثَّقةَ منهم بأحبَّابهم ماحيةٌ لقول من وشى بهم وأمَّا أهل الوله

^١ التذكرة الحمدونية ٨ / ١٣٩

المدلّهون فيقبلون ما لا يسمعون فضلاً عمّا يسمعون لما قدّمنا من وصفهم وغلبة الظنّ على أنفسهم ونحن نذكر إن شاء الله من كلّ ما قيل في ذلك طرفاً.

قال الأحوص^١:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزّلُ ... حذرَ العدى وبه الفؤادُ موكلُ
أصبحتُ أمنحك الصّدودَ وإني ... قسماً إليك مع الصّدودِ لأميلُ
وتجنّيتُ بيتَ الحبيبِ وذكره ... أرضي البغيضَ به حديثُ مُعضِلُ
هل عيشنا بك في زمانك راجعٌ ... فلقد تفحّشَ بعدك المتعلّلُ
ولو أنّ ما عاجلتُ لينَ فؤاده ... فقَسَا استُلينَ به للانَ الجندلُ
وقال معاذ ليلي^٢:

إذا جئتُها وسَطَ النساءِ منحتُها ... صدوداً كأنّ النَّفسَ ليسَ تُريدُها
ولي نظرةٌ بعدَ الصّدودِ من الهوى ... كنظرةٍ ولهى قد أُميتَ وحيدُها
وقال أيضاً^٣:

أهاؤك إجلالاً وما بكِ قدرةٌ ... عليّ ولكنّ ملءَ عينٍ حبيبُها
وما هجرتكِ النَّفسُ يا ليلُ إنّها ... قليلٌ ولا أنْ قلّ منك نصيبُها
ولكنّهم يا أملحِ النَّاسِ أكثرُوا ... بقولٍ إذا ما جئتُ هذا حبيبُها
أُتضربُ ليلي إن مررتُ بذي العصي ... وما ذنبُ ليلي إن طوى الأرضَ ذيبُها
وقال عروة بن حزام^٤:

^١ خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ٢ / ٤٩

^٢ حماسة الخالدين ص ٥٤

^٣ التذكرة الحمدونية ٦ / ١٠٩

^٤ خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ٣ / ٣٧٩ ط مكتبة الخانجي، القاهرة

تَكْنَفَنِي الْوَاشُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... وَلَوْ كَانَ وَاشٍ وَاحِدٌ لَكَفَانِي
 إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا نَسْتَلِذُهُ ... تَوَاشَوْا بِنَا حَتَّى أَمَلُّ مَكَانِي
 أَلَا لَعَنَ اللَّهُ الْوُشَاةَ وَقَوْلَهُمْ ... فَلَانَةُ أَضَحَتْ خُلَّةً لِفَلَانٍ
 أَلَا لَيْتَ كُلِّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوًى ... مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ يَلْتَقِيَانِ
 أَنَاسِيَّةٌ عَفْرَاءُ وَصَلِيٍّ بَعْدَ مَا ... جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بِالْهَمَلَانِ
 إِذَا رَامَ قَلْبِي هَجْرَهَا حَالَ دَوْنَهَا ... شَفِيعَانِ مِنْ قَلْبِي لَهَا جَدِلَانِ
 إِذَا قُلْتُ لَا قَالَا بَلَى ثُمَّ أَصْبَحَا ... جَمِيعًا عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي يَرِيَانِ
 وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ^١:

لَقَدْ قَرَعَ الْوَاشِي بِأَهْوَنِ سَعِيهِ ... صِفَاءً قَدِيمًا أَخْطَأَتْهَا الْقَوَارِغُ
 فَأَقْلَقَنِي فِي ضَعْفِهِ وَهُوَ سَاكِنٌ ... وَشَرَّدَ عَنْ عَيْنِي الْكَرَى وَهُوَ هَاجِعُ
 وَأَنْشَدَنَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ لِيَزِيدَ الْغَوَانِي الْعَجَلِي:
 سَرْتُ عَرَضَ ذِي قَارٍ إِلَيْنَا وَبَطْنِهِ ... أَحَادِيثُ لِلْوَاشِي بَيْنَ دَيْبُ
 أَحَادِيثُ سَدَّاهَا شَيْبُ وَنَارَهَا ... وَإِنْ كَانَ لَمْ يَسْمَعْ بَيْنَ شَيْبُ
 وَقَدْ يَكْذِبُ الْوَاشِي فَيُسْمَعُ قَوْلُهُ ... وَيَصْدُقُ بَعْضُ الْقَوْلِ وَهُوَ كَذُوبُ

من لم يعاتب على الزلة فليس بحافظ للخلة

المعاتبه على الذنوب من الحبِّ والمحَبوب قد تجري على ضروب فمنها معاتبه استتابٍ تقع
 على الارتباب ليزول الشكُّ بما يجري فيها من الجواب ومعاتبه تقع بعد اليقين يقصد بها
 العاتب إلى أن يعلم هل من ذلك الذنب عذر أم هو داخل في باب الغدر ومنها معاتبه توقيف

^١ الجليس الصالح ص ٤٢٣

تجري على جهة التعنيف وهذه حال لا تكاد تجري بين المتحايين إلا عند انقطاع الحال بينهما أو عند ضجرة شديدة تلحقهما أو تلحق أحدهما وأحمد أحوال العتاب صيانة الحال عن أن يجري فيها شيء من الاختلال بقيا على المذنب لا بقيا على المؤنب وترك جميع المعاتبة يدخل في باب الإهمال والموقف على كل ذنب يوجب قطع المواصللة واتصال العتب.

قال البحري^١:

و كنتُ إذا استبطأتُ وُدَّكَ زرتُهُ ... بتفويفٍ شعرٍ كالرِّداءِ المُجبرِّ
عتابٌ بأطرافِ القوافي كأنَّهُ ... طِعَانٌ بأطرافِ القنا المتكسِّرِ

بُعد القلوب على قرب المزار أشدُّ من بعد الدِّيار من الدِّيار

الهجر على أربعة أضرب هجر ملالٍ وهجر دلالٍ وهجر مكافاةٍ على الذُّنوب وهجرٌ يوجبه البغض المتمكِّن في القلوب فأما هجر الدِّلال فهو الذُّ من كثير الوصال وأما هجر الملal فيطلبه من الأيام والليالي إما بنأي الدَّار وإما بطول الاهتجار.

وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

لا تجزَعَنَّ من هجرٍ ذي مِلَّةٍ ... أظهرَ بعدَ الوصلِ هِجرانا
يمِلُّ هذا مثلَ ما مِلَّ ذا ... فيرجعُ الوصلُ كما كانا

وأما الهجر الذي يتولَّد عن الذَّنْب فالتَّوبَةُ تخرجه عن القلب وأما الهجر الذي يوجبه البغض الطَّبِيعي فهو الذي لا دواء له وقد قال الجاحظ لكلِّ شيءٍ رفيقٌ ورفيقُ الموتِ الهجر وليس الأمر كما قال بل لكلِّ شيءٍ رفيقٌ ورفيقُ الموتِ.

^١ التذكرة الحمدونية ٤٠٤/٥

ألم تسمع قول قيس بن الملوح^١ :
 فوالله ثم الله إنني لدائبٌ ... أفكرُّ ما ذنبِي إليها فأعجبُ
 ووالله ما أدري علامَ صرمتني ... وأيُّ أموري فيك يا ليلُ أركبُ
 أأقطعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه ... أم اشربُ كأساً منكم ليس تُشربُ
 أم اهربُ حتَّى لا أرى لي مُجاوراً ... أم أفعلُ ماذا أم أبوحُ فأغلبُ
 وإنهما يا ليلُ إن تفعلِي بنا ... فأخرُ مهجورٌ وأوَّلُ مُعتبُ

ما عتبَ من اغتفرَ ولا أذنبَ من اعتذر

المعتذر لا ينفكُّ من إحدى حالين إمَّا أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فعذره مقبول وإن كان كاذباً فإنه لم يتجشَّم مضاضة الكذب في نفسه إلاَّ لنفاسة صاحبه في صدره ومن كان بهذه الحال قبل عذره بل وجب شكره.

وقد قال البحتري^٢ :
 إقبل معاذيرَ مَنْ يأتِيكَ معتذراً ... إن برَّ عندك فيما قال أو فجرًا
 فقد أطاعكَ مَنْ يُرضيكَ ظاهره ... وقد أجلكَ مَنْ يعصيكَ مُستترا
 وقال أيضاً^٣ :

يُخوِّفني مَنْ سوءِ رأيكَ معشرٌ ... ولا خوفَ إلَّا أن تجورَ وتظلما
 أعيدك أن أخشاكَ مِنْ غيرِ حادثٍ ... أتيتُ ولا جرمُ إليك تقدما

^١ الأغاني ٢ / ٢١

^٢ السحر الحلال في الحكم والأمثال ص ٦٧ ط دار الكتب العلمية

^٣ التذكرة الحمدونية ٤ / ١١٠

أُفِرُّ بما لم أجنِه متصِّلاً ... إليك على أنني إحالك ألوماً

إذا ظهر الغدر سهل الهجر

العلة في سهولة الهجر عند ظهور الغدر ضربٌ من المكروه وكلُّ مكروهٍ فبعد النفس عنه خيراً لها من القرب منه وعلى أن نفس المحبِّ إذا استيقنت بالغدر لم ترضَ بمقاومة الحجر لأنَّ في الحجر ضربٌ من التأديب وضربٌ من الانتقام والنفس المرَّة لا تعباً بمن غدر بها ولا تستصلحه بمعاقبة ولا ترصده بمعاقبة بل تخلي فكرها عن ذكره وتصون خواطرها عن الخوض في أمره.

يا قلبُ قد خانَ مَنْ كلفتَ به ... فخلَّ عنكَ البكاء في أثره

ومن النَّاس مَنْ تضعف قواه عن هذه الحال فلا يسأل عمَّا يصير إليه من النِّكال وكلُّ ذلك على حسب التَّوفيق والخذلان .

وقال امرؤ القيس^١:

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضىته ... وفرتَ به العينانِ بدلتُ أخرا

وذلك أنني لم أثق بمصاحبٍ ... من النَّاسِ إلَّا خائني وتغيَّرا

وقال العباس بن الأحنف^٢:

كُتبتُ تلومُ وتستريبُ زيارتي ... وتقولُ لستَ لنا كعهدي العاهدِ

فأجبتُها ومدامعي منهلةً ... تجري على الخدينِ غيرَ جوامدِ

يا عتبُ لم أهجركم لملايةً ... حدثتُ ولا لمقالٍ واشٍ حاسدِ

^١ ديوان امرئ القيس ص ٩٧

^٢ نشوة السكران من صهباء تذكّار الغزلان ص ٤٤ ط المطبعة الرحمانية بمصر

لكنني جرّبتكم فوجدتكم ... لا تصبرون على طعامٍ واحدٍ
وقال عمر بن أبي ربيعة^١:

أنا لا أبدأً بغدر أبداً ... فإذا ما غدرتُ لم أترك
أتراني أقعدُ الليلَ لها ... ساهراً أطلبُ وصلاً قد هلك
وهي فيما تشتهي لاهيةً ... متُّ إن دارَ بهذينِ الفلكُ

أمّا سيلو الحبّ عمّن غدر به فغير معيب عليه إذ ليس ذلك مفوضاً إليه وإنّما يوجبه نفور
النفس عمّن خالف شكلها كما توجب المحبة سكون النفس إلى شيء شاكل طبيعتها وأمّا
تشنيه بالغدر على محبوبه فإن ذلك لعمرى قبيح وما على من سلا عن الفه أن يضمّر ذلك في
نفسه ولا يقص على غيره ما ظهر له من سوء فعله فإن ظهر منه على ترك المواصلّة عارض في
ذلك بضرب من المجاملة.

كما فعل الذي يقول^٢:

وقاتل كيف تماجرثما ... فقلتُ قولاً فيه إنصافُ
لم يكُ من شكلي فناكرته ... والناسُ أشكالُ وأُلفُ

مَنْ راعهُ الفراقُ ملكهُ الاشتياقُ

الترويع بالفراق هو السهم الذي لا يعدل عن مقاتل العشاق من رمى به من المحبوبين
أصاب ومن دُعي به من المحبين أجاب وربّما ولعت نفوس العشاق محاذرة وقوع الفراق عن
غير سبب يوجبه إظهار الإشفاق وتلك حال لا يتهيأ معها وصال.

^١ الظرف والظرفاء ٩٧

^٢ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢ / ١٣٦

وعلى أن من العشاق من يتحاصر روعات الفراق وذلك إما لما ناله من مضاضة هجرٍ أو
مواقعة غررٍ وإما لطغيان النفس ونشاطها وانسائها في محبتها واستظهارها بغرّة الجهل على
أحبائها ولمن كان بهذه الخلل باب مفردٌ ووصفٌ مجردٌ.

وقال أبو تمام^١:

يا بُعدَ غايَةِ دمعِ العينِ إنْ بُعدوا ... هي الصَّبَابَةُ طُولَ الدَّهْرِ والسَّهْدُ
قالُوا الرَّحِيلُ غَدًا لَا شَكَّ قَلْتُ لَهُمْ ... اليَوْمَ أَيقَنْتُ أَنَّ اسْمَ الحِمَامِ غَدُ
وقال أبو نواس^٢:

طرحتم من التَّرحالِ أمراً فغمَّنا ... فلو قد فعلتم صَبَحَ الموتُ بعضنا
زعمتم بأنَّ النَّأيَ يحزُّكم نعم ... سيحزُّكم عِلْمي ولا مثلَ حُزننا
تعالوا تُقارعكم ليشبَّ عندنا ... مَنْ اشجَى قلوباً أو مَنْ اسخنَ أعيننا
أطالَ قصيرُ اللَّيْلِ يا رحمُ عندكم ... فإنَّ قصيرَ اللَّيْلِ قد طالَ عندنا
ولا يعرفُ اللَّيْلُ الطَّويلَ وكربه ... من النَّاسِ إلَّا مَنْ ينجُمُ أو أنا

وأكثر استظهار خوف الفراق إنما هو على المتيمين والعشاق الذين استغرقهم الضعف
بأحبائهم وجرت خلائق أحبتهم على نهاية محلهم فأماهم مقصورة إلى الحذر من زوالهم فأما
من قد خرج عن حدود العشاق والمتيمين إلى مرتبة المؤلهين فإن حذاره من الخيانة والغدر
يشغله عن محاذرة الفراق والهجر.

وقال توبة بن الحمير^٣:

قالت مخافةً بيننا وبكت له ... والبينُ مبعوثٌ على المتخوِّفِ

^١ ديوان أبي تمام ٩٩

^٢ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢ / ٧١ ط شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت

^٣ الأمالي للقيلي ١٦٦/١ ط دار الكتب المصرية

لو مات شيء من مخافة فرقة ... لأماتني للبين طول تخوفي
ملاً الهوى قلبي فضقت بحمله ... حتى نطقت به بغير تكلف

فليلى الأحيلى عفا الله عنا وعنهما إن كان ما حكاها لنا توبة عنها في البيت الثاني حقاً فإنها كانت جاهلة بأحوال العشاق غافلة عما تولده روعات الفراق ولعمري إن من مراثيها في توبة بعد وفاته لدالة على أنها لم تتعلق من الهوى إلا بأطرافه إذ لو كان الهوى قد بلغ بها أقصى الحال كانت حياتها بعد وفاة توبة ضرباً من المحال .

قل من سلا إلا غلبه الهوى

من كان سلوه تابعاً لظفره بما من أجله كان ابتداء محبته فإن الهجر والفراق لا يعيدان له هوى ولا يتبعان على ضميره أسى ومن كانت طبيعته بمشاكله طبيعته فسلا لضجرة لحقته من مخالفة محبوبه أو من تعذر بعض مطلوبه أو لتأذ بحاجب أو رقيب أو لمال من سعاية واش أو عذول فإن أدنى عارض يطيف به من فراق أو هجر أو من مخافة خيانة أو غدر يعيد عليه قلق الإشفاق ويرده بعد السلو إلى مواقف العشاق وربما ألم بمن هذه صفته في المنام طائف من خيال فردّه إلى أتم ما كان عليه من الحال.

وداع دعا إذ نحن بالحيف من منى ... فهيج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري^١

^١ المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص ٣٤٣

مَنْ غَلَبَهُ هَوَاهُ عَلَى الصَّبْرِ صَبَرَ لِمَنْ يَهْوَاهُ عَلَى الْغَدْرِ

هذه الحال ليست جارية على الترتيب فيقع لصاحبها عذر أو تأنيب لأنها حال قد تجاوزت حدَّ العشق يرضى المحب بكل فعل المحبوب وهو صاح عنها فأوقع له اختياره الرضى بها والمحبة معها ثم تبعته أشياء من غير جنسها إلا أنها ليست هتكاً لحجاب المودة فاجتمعت معها وهذه حال وقعت بالمحبوب بعد أن وقع الرضى من محبة بخلافها ثم وقع السخط منه بحدوثها والتباعد من صاحبها ثم عرضت الحيرة التي لا تميز معها فردته بالصُّغر إلى ما لا يرضاه وصيرته على ما كان قبل وقوعه يخشاه وبين الرضى الاختياري وبين الرضى الاضطراري بَوْنٌ بعيد.

قال البحتري^١:

تمادى بها وجدي وملك وصلها ... خلّ الحشا في وصلها جدّ زاهدٍ
وما النَّاسُ إلاَّ واحدٌ غيرُ مالكٍ ... لما يتغيّ أو مالكٌ غيرُ واحدٍ
سقى الغيثَ أكتافَ الحمى من محلّةٍ ... إلى الحقف من رمل اللوى المتقاودِ
وقال عبد الله بن طاهر^٢:

طلبتُ أخاً محضاً صحيحاً مسلماً ... نقيّاً من الآفاتِ في كلِّ موسمٍ
لأمنحه ودّي فلم أدرك الذي ... طلبتُ ومن لي بالصَّحيح لمسلمٍ

أمّا من دعتَه الضرورة إلى الصبر على من غدر به فلا مدخل لنا في أمره وأمّا من يتمنى لإلفه أن يميل إلى حبٍّ غيره ليكون ذلك عاطفاً له عليه وداعياً له إلى وصله فهو من الحمق في

^١ ديوان البحتري: ٦٢٢

^٢ الصداقة والصديق ص ٣٥٥ ط دار الفكر المعاصر

محلّ قلّ ما يتهياً مثله وما أحسب من هذه صفته يكون إلاّ داخلًا في جملة من وقعت لهم المحابُّ لتنفيذ ضرب من الشّهوات.

مَنْ تَجَلَّدَ عَلَى النَّوَى فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْبَلَا

اجتراء العشّاق على المبادرة إلى الفراق يكون إما لنفي أقوال الوشاة عنهم وعن أنفسهم وإما لضجرة تلحقهم من مكروه يقع بهم وإما لنشاط في النّفس وزهد ليحققها لقوّة الظّفر بما قد حصل لها فترى نفسها أجلّ من محبوبها لأنّها مالكة ولا شيء في العالم يعدله وهو وإن كان مالكا لها فإنّها لا ترى نفسها في حدّ ما يُفتخر بملكه فهي لهذه العلة تتكبر عليه.

وربّما أعرّض العاشق عن المعشوق إما من جهة الامتحان للصبر وإما لتجديد حاله عند محبوبه وكثيراً ما يجري الأمر في ذلك على ضدّ تقديره.

قال أبو تمام^١:

هيَ البدْرُ يُغْنِيها تودُّدٌ وجهها ... إلى كلّ مَنْ لاقَتْ وإنْ لم تودِّدِ
على أنّي لم أحوِرْ وفراً مجمّعا ... ففرتُ بهِ إلاّ بشمْلِ مبدِّدِ
ولم تعطيني الأيّامُ نوماً مسكناً ... ألذُّ بهِ إلاّ بنومٍ مشرِّدِ
وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ ... لذيّاجتيهِ فاعترِبْ تتجدِّدِ
فإنّني رأيتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ حُبَّةً ... إلى النّاسِ أنْ ليستَ عليهمُ بسرمدِ
وقال زهير بن أبي سلمى^٢:

لعمرك والخطوبُ معبراتٌ ... وفي طولِ المعاشرةِ التّقالي

^١ الأغاني ١٦ / ٤١٦

^٢ جمهرة الأمثال ١٠٦/١ ط دار الفكر - بيروت

لقد باليتُ مظعنٌ أُمُّ أوفى ... ولكن أُمُّ أوفى لا تُبالي

في الوداع قبل الفراق بلاغ إلى وقت التلاق

فعل الوداع وتركه نقص كله ممن قدر أن يرد الفراق عن نفسه وذلك إن الحزم لأهل
الهوى ألا يسيطوا على أرواحهم يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش
ويبرح القلوب فكيف إذا تحكّم فيه سلطان الفراق وأمدّت صاحبه الفكر بخواطر الإشفاق
والتهبت في الضمير لوعات الاشتياق حينئذ تُسكب العبرات وتتمكّن الحسرات.

وقال حبيب بن أوس الطائي:

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت ... فيه النوى فأليم كل أليم^١

فإن كان لا بدّ من فراق فلا يكن إلا بعد تشييع ووداع . عن محمد بن سيرين أنه قال
إن كان لا بدّ من قيد فليكن مجلياً.

ما خلق الفراق إلا لتعذيب العشاق

أما الفراق فمستغنٍ ببشاعة اسمه عن الإغراق في وصفه. وقد اختلف العشاق في التفصيل
والفراق فمن أهل الهوى من يُعظم شأن الهجر على شأن النوى وينشد محتجاً لذلك:

وأُنقذها من غمرة الموت أنه ... صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمّدٍ

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢ / ١٥١

فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مورداً ... من الدَّمِ يجري فوقَ خدِّ مورداً^١

والهجر إذا خرج عن أن يكون عقاباً على ذنبٍ أو تذلاً بإظهار تجنُّ أو عتب أو مراقبة
لواشٍ أو مللاً من العذل فلا معذر له غير الغدر والخيانة وترك المقام للهوى بحق الرعاية فهذا
أصعب أسباب الهجر ومما ينقص من صعوبته ويكفُّ من عاديته أنه إذا جرى هذا المجرى لحق
المقصود به ضربٌ من الغيظ لقيح ما صنع به عن غير سبب موجب له وليس شخص المحبوب
بناءً عن نظره فيتمالك عنه من إزعاج الشوق بفكره ما يذهب بغيظه ويُلين من قلبه ومع
الفراق زوال ذلك كله لأن غيبة الشخص عن الناظر مزيلة لكل غيظ وغافرة لكل ذنب
وذهابة بكل عجب يتداخل المحبوب والمحِب فالنفوس تذلل للفراق وتنقاد معه لدواعي الإشفاق
والاشتياق فهذا مقدار ما يتسهَّل لنا من وصفهما ويجوز أن نقطع به من الحكم بينهما.

قال ابن ميادة:

سلَّ الله صبراً واعترفُ بفراقٍ ... عسى بعدَ بينٍ أن يكونَ تلاقي

ألا ليتني قبلَ الفراقِ وبعدهُ ... سقاني بكأسٍ للمنيَّةِ ساقِي^٢

وقال أبو تمام^٣:

لو كانَ في البينِ إذ بانوا لهمُ دعةٌ ... لكانَ بينهم منَ أعظمِ الخطرِ

فكيفَ والبينُ موصولٌ بهِ تعبٌ ... يكلِّفُ البيدَ في الإدلاجِ والبُكرِ

لو أنَّ ما تبليجني الحادثاتُ بهِ ... يكونُ بالماءِ لم يُشربْ من الكدرِ

لو كانَ بالعيسِ ما بي يومَ رحلتهمُ ... أعيَتْ على السَّائقِ الحادي فلم تسرِ

كأنَّ أيدي مطاياهمُ إذا وحدثَ ... يقعنَ في حُرٍّ وجهي أو على بصري

^١ الأغاني ١٦ / ٤١٦

^٢ الوَحشيَّات ص ١٨٨ ط دار المعارف، القاهرة

^٣ الأمالي ١ / ١٦٤

وقال ذو الرمة^١:

أراحَ فريقُ حيرتكَ الجمالا ... كأنهم يريدونَ انتقالا
فكدتُ أموتُ من حزنٍ عليهم ... ولم أرَ صاحبَ الأظعانِ آلا
وميةً في الطَّعائنِ وهيَ شكَّت ... سوادَ القلبِ فاقْتَتِلَ اقتتالا
ولم أرَ مثلها نظراً وعيناً ... ولا أُمَّ الغزالِ ولا الغزالا
هيَ السُّقْمُ الَّذي لا بُرءَ منه ... وبُرءُ السُّقْمِ لو بذلتُ نوالا
من غاب قرينه كثر حنينه

من شأن من غاب عن خليله أن تناله حيرة في جميع أموره يصحو عنها ويرجع إليه تمييزه فمن كان المتناول له من تلك الحيرة والآخذ بعنانه من تلك الغمرة داعٍ من غلبات الاشتياق ونائه عن المقام في قبضة الفراق لم يتمالك عن أحبابه وقتاً من الأوقات ولم يتشاغل عنهم بضرب من اللذات ومن كان الآخذ بيده من تلك الغمرات والمتخلّص بخواطره من تلك السكرات ضرباً من الاشتغال بغير تلك الحال سلا على مرّ الأيام والليالي وما دام في تلك الحيرة فهو متشاغل بتذكّر من فارقه والشوق والحنين إلى من خلّفه ألم تسمع الذي يقول:

وإنَّ امرءاً في بلدةٍ نصفُ قلبه ... ونصفٌ بأخرى غيرها لصبورُ
وددتُ من الشَّوقِ المبرِّحِ أنِّي ... أعارُ جناحي طائرٍ فأطيرُ
فما من نعيمٍ العيشِ بعدكٍ لذّة ... ولا لسرورٍ لستِ فيه سرورُ^٢
وقال مسلم بن الوليد^٣:

^١ الصناعتين ص ٤٤٨ ط المكتبة العصرية - بيروت

^٢ العقد الفريد ٦٧ / ٧

^٣ خزنة الأدب وغاية الأرب ٣٨٣ / ٢

يذكرُنيكَ البُخلُ والجودُ والعلَى ... وقيلُ الحنا والحلمُ والعلمُ والجهلُ
فألقاكَ عن مكروهِها مُتترِّهاً ... وألقاكَ في محمودها ولكَ الفضلُ

من لم يلحق بالحمول بكى على الطلول

إذا كان صحوُّ المفارق لأحبابه من التحنُّن الَّذي ذكرناه بقلبه داعياً له قبل هواه ندم على
مقامه بعد مضيِّ أحبابه أو على اجترائه على السَّفر وأحبَّته مقيمون في الحضر فاستقبح صنيعه
وتلافى تصنيعه فإن كان المحبُّ هو المسافر عن حبيبهِ.

كان كقول عبيد الراعي^١:

دعاني الهوى من أمٍّ وبرٍّ ودونها ... ثلاثة أحماسٍ فديتُكَ داعياً
فَعُجْنَا لذكراها وتشبيه صوتها ... قلاصاً بمجهولِ الفلاةِ صواديا
بغبراءٍ محرافٍ يبيتُ دليلها ... مُشيحاً عليها للفراقِ راعياً
وإن كانَ المحبوب المسافر والمحبُّ هو المتخلفُ عن إلفه تعسَّف ركوب المهالك في
اللَّحاق.

كما قال العرجي^٢:

كم قد عصيتُ إليك من مُتصَحِّح ... داني القراية أو وعيدِ أعادي
وتنوفةٍ غبراءٍ أرمي عرضها ... شوقاً إليك بلا هداية هادي

^١ سمط اللآلي في شرح أمالي القاضي ١ / ٣٥٩ ط دار الكتب العلمية

^٢ الظرف والظرفاء ص ٦٥

ويروى أنَّ بشر بن مروان كان في معسكرٍ له بظهر البصرة فنَادى بكثرة انصراف الجند من العسكر إلى المدينة فنَادى مناديه من وجد بالبصرة من الجند سَمَّرت كفه بمسمارٍ وكان في العسكر فتَّى يَألف حَلَّةً له بالبصرة فكتب إليها.

لولا مخافة بشرٍ أو عقوبته وأن يسمرَّ في كفي بمسمارٍ إذن لعطلت ثغري ثمَّ زرتكم إنَّ الحبَّ إذا ما اشتاق زوَّار.

فكتبت إليه:

ليسَ الحبُّ الَّذي يخشى العقابَ ولو ... كانت عقوبته في كِيَّة النَّارِ
إنَّ الحبَّ الَّذي لا عيشَ ينفعُهُ ... أو يستقرَّ ومن يهواه في الدَّارِ

فلَمَّا قرأ الأبيات دخل البصرة فأخذه صاحب الحرس فجاء به إلى بشر بن مروان فقال له بشرُ ألم تسمع النداء قال بلى قال فما حملك على مخالفتي قال هذه الأبيات ودفعها إلى بشر فلَمَّا قرأها أمر مناديه فنَادى من أحبَّ المقام في العسكر فليقم ومن أحبَّ دخول البصرة فليدخل.^١

من قصر عن مصاحبة الجار لم تنفعه مسائلة الدار

كان المجنون لما أصابه ما أصابه يخرج فإذا أتى الشَّام قال لهم أين أرض بني عامر فقالوا له وأين أنت من أرض بني عامرٍ وقف عند جبلٍ يقال له التَّوباد ثمَّ أنشد:

وأجهشتُ للتَّوبادِ لما رأيته ... وهللَ للرحمانِ حينَ رأني

^١ روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٢٠٨ ، الأمالي ٢ / ٣٠ ، زهر الأكم في الأمثال والحكم ١ / ١٤٥

وأذريتُ دمعَ العينِ لما رأيتهُ ... ونادى بأعلى صوتهِ فدعاني
وقلتُ له أينَ الذينَ عهدتهمُ ... حوالَيْكَ في عيشٍ وخيرِ زمانٍ
فقالَ مضوياً واستودعوني بلادهمُ ... ومنْ ذا الذي يبقى على الحدَثانِ
وإنِّي لأبكي اليومَ من حذري غداً ... فراقَكَ والحَيانِ مُؤْتلفانِ
سجلاً وهتّاناً ووبلاً ودِمةً ... وسحاً وتسجماً وينهملانِ
قالَ ثمَّ يمضي حتّى يأتي العراقَ فيقولُ مثلَ ذلكَ ثمَّ يأتي اليمنَ فيقولُ مثلَ ذلك.^١

من منع من البراح تشوّق بالرياح

كلُّ متشوّقٍ من العَشَّاقِ بنسيمِ ريحٍ أو لمعانِ برقٍ أو سجعِ حمامٍ فهو ناقصٌ عن حالِ
التمامِ من جهتينِ إحداهما قلةُ صبره على فقدِ صاحبه حتّى يحتاج أن يرى ما يشوقه بذكره
والأخرى أن من كانت هذه صفته فإنَّ الصَّبابةَ لم تتمالك على قلبه فتشغله عن أن يتشوّقَ
بشيءٍ يلمُّ به غيرُ أنَّ الشَّوْقَ بما ذكرناه إنّما يقصّرُ بأهله عن درجة الكمالِ وليس بمدخلٍ لهم
في جملة الموصوفين بالنقص والإخلالِ ومن مختار ما قيل في الشَّوْقِ بالرياح.

قول ذي الرمة^٢:

إذا هبَّتِ الأرياحُ من نحوِ جانبٍ ... بهِ أهلٌ مَيِّهاجٍ شوقي هبوبُها
هوًى تذرِفُ العينانِ منه وإنّما ... هوًى كلِّ نفسٍ حيثُ حلَّ حبيبُها

^١ الأمازي ١ / ٢٠٧ ، الأغاني ٢ / ٤٩

^٢ ديوانه: ٦٩٤ - ٦٩٥

من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزجر

سبيل كلّ مشغوف بشيء ما كان أن يحذر عليه ما دام في قبضته ويرجو رجوعه إذا
خرج عن يده فالحب ما دام مقيماً مع محبوبه فخوابطه موقوفة على الحذر عليه من الزوال
وفكره مرتنة بالخوف من تغيير الحال فإذا فارق محبوبه وافتقد مطلوبه اشتغلت خوابطه بتأمل
أوبته كاشتغالها بمحاذرة فرقه إذ هو غير خال من الأحوال فتراه حينئذ يتيامن بالسوانح
حسب تشاؤمه بالبوارح .

قال عبد الله بن قيس الرقيات^١:

بشّر الظبي والغراب بسعدى ... مرحباً بالذي يقول الغراب
قال لي إن خير سعدى قريب ... قد أنى أن يكون منه اقتراب
قلت أنى تكون سعدى قريباً ... وعليها الحصون والأبواب
حبذا الرّيم والوشاحان والقص ... ر الذي لا تناله الأسباب
فعسى أن يؤتني الله أمراً ... ليس في غيّه علينا ارتقاب

طريق الصبر بعيد وكتمان الحب شديد

كان يقال سرّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره وأمّا اطلاع سائر الناس على وجد
الحب بالمحبوب فهو خطأ من وجوه أولها تعرّض المحبوب لما لا يحب من القالات والتشنيعات
ثم تعرّض الحب نفسه للسعاية والارتقاب له وإنما يوصى بهذه الوصية من أمر سرّه إليه فأما

^١ الأغاني ١٧ / ٢٧٥

من قد أخرجت الحال زمام السرّ من يديه فلا ذنب له ولا لوم عليه وأمّا أسرار المحبوب عند الحبّ مثل مواعيده له وزيارته إيّاه ومساعدته له على ما يهواه وما يجري بينهما من المعاتبات بل من سرائر المخاصمات فإنّ غالبات الوجد لا توجب إفشائه بل توجب صونه وإخفائه ولن يشيع مثل ما وصفنا إلّا ضعيفٌ في الحال جدّاً فكتمان هذا أئين وجوباً من أن نزيد القول فيه توكيداً وإفشاء الحبة وحدها إلى غير المحبوب فواجبٌ على من أطاق كتمها ألاّ يظهرها ومن عجز فخارجٌ عن باب المنع والوجوب ومن ضاق صدره عن سرّه فلم يلم غيره على نشره وإن كان في الحقيقة ملوماً لأنّ للمرء أن يتطوّع بإظهار سرّه وعلى المستودع أن لا يظهر سرّ مستودعه.

قال يزيد بن الطثرية:

ومُستخبرٍ عنها ليعلمَ ما الذي ... لها في فؤادي غيرَ أنّي أُحاذرُ
وردتُ به عمياءَ منها ولم أكنُ ... إذا ما وشى واشٍ بليلى أناظرُهُ^١
وقال ذو الرمة^٢:

فما زلتُ أطوي النَّفسَ حتّى كأنّها ... بذي الرّمثِ لم تخطرْ على قلبِ ذاكرِ
حياءٍ وإشفاقاً من الرّكبِ أن يروا ... دليلاً على مستودعاتِ السّرائرِ
ولعمري إنّ هذه الحال الجميلةً بين أهل الصّفاء غير أنّها من الأعداء أحسن منها من
الأولياء إذ ليس عجيباً أن يكتُم الوليُّ سرّاً وليّه كما يعجب من كتمان العدو سرّاً عدوّه.

^١ التذكرة الحمدونية ٦ / ١٣٧

^٢ عيون الأخبار ٢ / ١٩٧

مَنْ غَلَبَ صَبْرُهُ ظَهَرَ سِرُّهُ

ذكروا أنَّ سَكِينَةَ بنتَ الحُسَيْنِ رَكِبَتْ فِي جَوَارِيهَا فَمَرَّتْ بِعُرْوَةَ بنِ أُذَيْنَةَ اللَّيْثِيِّ وَهُوَ يَغْنِي فَقَالَتْ لَجَوَارِيهَا: مِنَ الشَّيْخِ؟ قَالُوا: عُرْوَةُ فَعَدَلْتُ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا التَّمَامِ أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَمْ تَعْشَقْ قَطُّ وَأَنْتَ تَقُولُ:

قَالَتْ وَأَبْتَشُّهَا وَجَدِي فَبَحْتُ بِهِ ... قَدْ كُنْتُ عِنْدِي تَحْتَ السِّتْرِ فَاسْتَرِ
أَلَسْتُ تَبْصُرُ مَنْ حَوْلِي فَقُلْتُ لَهَا ... غَطَّى هَوَاكُ وَمَا أَلْفَى عَلَى بَصْرِي
كُلُّ مَنْ تَرَى حَوْلِي مِنْ جَوَارِيٍّ أَحْرَارٍ إِنْ كَانَ خَرَجَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ قَلْبِ سَلِيمٍ قَطُّ.^١

مَنْ لَمْ يَقَعْ لَهُ الْهَوَىٰ بِاِكْتِسَابٍ لَمْ يَنْزَجِرْ بِالْعِتَابِ

الْعَلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعَاتِبَةَ إِنَّمَا هِيَ تَوْقِيفٌ عَلَى مَوَاضِعِ الْمَصْلُحَةِ وَتَبَيَّنَ لِمَا فِي الْحَالِ الَّتِي بَقِيَ عَلَيْهَا الْمَعَاتِبُ مِنَ الْمُنْقِصَةِ فَمَنْ كَانَ أَصْلُ هَوَاهُ اخْتِيَارًا لِنَفْسِهِ فَتَبَيَّنَ مَوْضِعُ النَّقْصِ فِي اخْتِيَارِهِ رَجَعَ إِلَى قَوْلِ عَدَّالِهِ وَمَنْ وَقَعَ هَوَاهُ مُضْطَرًا بِغَلْبَةِ إِلَى الانْقِيَادِ لِأَلْفِهِ لَمْ يَلْقَ الْعَدْلَ بِسَمْعِهِ لِأَنَّ الْعَدْلَ يَأْتِيهِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ وَالشَّيْءُ لَا يُوجِبُ زَوَالَهُ إِلَّا ضِدُّ مَا أَوْجَبَ ثَبَاتَهُ فَكَمَا أَنَّ الْهَوَى الْاِخْتِيَارِيَّ يَضَادُّهُ التَّوْقِيفُ عَلَى مَوَاضِعِ الْحَالِ فَيُوجِبُ عَلَى صَاحِبِهِ أَنْ يَخْتَارَ إِزَالَتَهُ فَكَذَلِكَ الْهَوَى الْاِضْطِرَارِيُّ لَا يَزَالُهُ إِلَّا اضْطِرَارٌ يَضَادُّهُ وَالْهَوَى الْاِخْتِيَارِيُّ أَيْضًا عَلَى ضَعْفِهِ لَا تَحْوِيهِ ضَرُورَتُهُ وَلَا تَعَارِضُ فِي تَرْكِهِ لِأَنَّهَا تَحْيِيءُ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ وَهُوَ لَا يَزُولُ إِلَّا بِزَوَالِ الْجِهَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْهُ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ عِلَّةً لَشَيْءٍ فَيَزُولُ الْمَعْلُولُ وَالْعِلَّةُ قَائِمَةٌ.

^١ التذكرة الحمدونية ٢ / ٣٧٥

ولقد أحسن عمر بن ضبيعة الرقاشي حيث يقول^١:
 قضى الله حبَّ المالكيَّة فاصطبر ... عليه فقد تجرَّي الأمور على قدر
 ألا فليقل مَنْ شاءَ ما شاءَ إنَّما ... يُلامُ الفتى فيما استطاعَ من الأمرِ
 ولقد أحسن أبو تمام حيث يقول^٢:
 أَلَمْ تَرَي خَلَيْتُ عَيْنِي وشَانَهَا ... وَلَمْ أَحْفَلِ الدُّنْيَا وَلَا حَدَثَانَهَا
 لَقَدْ خَوَّفَتْنِي النَّاتِبَاتُ صُرُوفَهَا ... وَلَوْ آمَنْتَنِي مَا قَبِلْتُ أَمَانَهَا
 عَيْنَانُ مِنَ اللَّذَاتِ قَدْ كَانَ فِي يَدِي ... فَلَمَّا مَضَى الْإِلْفُ اسْتَرَدَّتْ عَنَانَهَا
 يَقُولُونَ هَلْ يَبْكِي الْفَتَى لْخُرِيدَةٍ ... مَتَى مَا أَرَادَ اعْتَاظَ عَشْرًا مَكَانَهَا
 وَهَلْ يَسْتَعِضُّ الْمَرْءُ مِنْ خَمْسٍ كَفَّهُ ... وَلَوْ صَاغَ مِنْ حَرِّ اللَّجِينِ بَنَانَهَا

مَنْ قَدَّمَ هَوَاهُ قَوِيَ أَسَاهُ

من كان أوَّل ما وقع به من أسباب المحبة استحساناً ثمَّ ينمي على الترتيب الذي وصفناه
 حالاً فحالاً حتَّى ينتهي إلى بعض الأحوال الصَّعَاب التي ذكرناها كان زوالها إن زال بطيئاً
 ومن عشق بأوَّل النَّظَر سلا مع أوَّل الظَّفَر فإن لم يظفر بمن يهواه سلا إذا تعدَّر عليه ما يتمنَّاه
 فإذا وقع الهوى بأوَّل نظر ثمَّ ارتقى صاحبه ارتقاءً بغير ترتيب حتَّى صار مدلَّهاً بمن يهواه قبل
 أن تطول معاشرته كان بقاء ذلك الهوى يسيراً وهكذا كل شيء في العالم إن اعتبرته وجدت
 ما ارتقى إلى هذه الغاية القصوى بغير ترتيب انحطَّ انحطاطاً طويلاً .

ولعمري لقد أحسن الذي يقول:

^١ التذكرة الحمدونية ٦ / ٥٨

^٢ نهاية الأرب في فنون الأدب ٥ / ٢٢٢

وما كان حُبِّها لأوَّلِ نظرةٍ ... ولا غمرةً من صبوَّةٍ فتجلَّتْ
ولكنَّها الدُّنيا تولَّتْ فما الَّذي ... يُعزِّي عن الدُّنيا إذا ما تولَّتْ^١

فهؤلاء البائسون قد صبروا على أحبَّتهم إمَّا طائعين وإمَّا كارهين فإن كانوا طائعين فهو أحمدٌ ممَّن يتلاعب ويتنقل في كل ساعة عن إلفه إلى سواه وإن كانوا كارهين فإنَّ السبب الَّذي اضطرهم إلى المقام على ما يؤلمهم ويمنعهم عن الانتقال إلى ما يختارونه لو لم يكن سبباً أمَّلِكُ بهم منهم ما عليهم فهم على كل الجهات أتمُّ في الحال ممَّن جعل هواه ضرباً من الإشغال ينفرد له إذا نشط ويتركه إذا كسل من أنَّهم لم يرتقوا في المحبة على من انتهى بل صعدوا بأول نظرة إلى ذروتها فكما كان ارتقاؤهم سريعاً كان انحطاطهم قريباً.

فمنهم الوليد بن عبيد الطائي حيث يقول^٢:
نظرةٌ ردَّتِ الهوى الشرَّقةَ غرباً ... وأملتْ نهجَ الدُّموعِ الجوّاري
ما ظننتُ الأهواءَ قبلكِ تُمحي ... من صدورِ العشاقِ محوَ الدِّيارِ
كانَ يحلُّو هذا الهوى فأراه ... عادَ مرّاً والسُّكرُ قبلَ الخمارِ
وإذا ما تنكَّرتُ لي بلادٌ ... أو حليلٌ فإني بالخيارِ

لا يُعرف المقيمُ على العهدِ إلّا عندَ فراقٍ أو صدٍّ

من شأن من كان مجاوراً لأحبَّائه وساحمته الأيام ببلوغ محابه أن يصرف خواطره إليهم وإن لا يؤثر صحبة أحد غيرهم عليهم بل الجاري من عادة أهل الأدب إذا أقبل عليهم يستقلون أن يظهروا له المودة بل يعتقدونها في الحقيقة فإذا كانت هذه حال أهل الأدب مع

^١ ديوان المعاني ١/ ٢٨٤ ط دار الجيل - بيروت

^٢ الموازنة ١/ ٤٨٠ ط دار المعارف

من يعاشرهم من غير الأحاب كان أحبابهم أخرى أن يغلبوا على قلوبهم وإنما يبين الصادق في هواه إذا فارقه أو صد عنه من يهواه فأقام حينئذ عليه و لم ينتقل إلى ما سواه.

أنشد عمر بن أبي ربيعة^١:

يقولون إني لستُ أصدقُ في الهوى ... وإني لا أركأ حينَ أغيبُ
فما بال طرفي عفاً عما تساقطت ... له أنفسٌ من معشرٍ وقلوبُ
عشيّةٍ لا يستكرُّ القومُ إن رأوا ... سفاهَ الحجي مَن يُقالُ لبيبُ
ولا نظرةً من عاشقٍ إن مضتْ له ... بعينِ الصبي كسلى القيامِ لعوبُ
يروحُ يرجو أن تحطَّ ذنوبُهُ ... فراحَ وقد عادتْ عليه ذنوبُ
وما الشكُّ أسلاني ولكنْ لذي الهوى ... على العينِ مني في الفؤادِ رقيبُ
ولقد أحسن ذو الرمة حيث يقول^٢:

إذا غيّرَ النَّأيُ المحبينَ لم أجد ... رسيسَ الهوى من حبٍّ ميةً يبرحُ
تصرّفُ أهواءُ القلوبِ ولا أرى ... نصيبك من قلبي لغيرك يُمنحُ
أرى الحبَّ بالمهجرانِ يُمحي فيمتحي ... وحبك ممّا يستجدُّ ويذبحُ
أبينُ وشكوى بالتهارِ شديدةٌ ... عليّ وما يأتي به الليلُ أبرحُ
هي البرءُ والأسقامُ والهَمُّ ذكرُها ... وموتُ الهوى لولا التناهي المبرحُ
إذا قلتُ تدنو ميةً اغبرّ دونها ... فيافٍ لطرفِ العينِ فيهنّ مطرحُ
فلا القربُ يُيدي من هواها ملالةٌ ... ولا حبُّها إن تترح الدارُ يترحُ

^١ زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٢٩٧

^٢ التذكرة الحمدونية ٦/ ٥٦

قليلُ الوفاء بعدَ الوفاةِ أجلٌ من كثيره وقتَ الحياةِ

الوفاء اسم للثبات على الشرائط فكلُّ من عقد على نفسه أو عقد عليه غيره ممَّن يلزمه عقده شيئاً فثبت عليه ولم يزل عنه سُمِّي موفياً وكلُّ من شرط على نفسه شرطاً وزال عنه للزوال سُمِّي غادراً وليس يسمَّى موفياً من فعل فعلاً جميلاً لم يشرط على نفسه فعله ولا شرطه عليه من يلزمه شرطه ولا يسمَّى غادراً من فعل فعلاً قبيحاً لم يجب عليه تركه ولا شرط عليه من يجبُ شرطه فالمحبوب يكون موفياً لمحبه ويكون غادراً بعهدته والمحبة لا يكون موفياً ولا غادراً لأنَّ محبته قائمة له إلى محابِّ إلفه فيما يصلح الانقياد إلى مثله فهو يأتي طاعته بطبعه لا وفاءً بشرط لزمه وكلُّ من لم يصلح أن يسمَّى موفياً لم يصلح أن يسمَّى غادراً وإنَّما يصلح أن يكون المحبوب موفياً وغادراً لأنه يأتي ما يأتيه مختاراً ويشترط لإلفه الشرائط على نفسه فيفعل ما ضمن أو يتركه فيكون موفياً أو غادراً بفعله أو تركه وهذا الذي ذكرناه من أنَّ المحبة لا يكون موفياً ولا غادراً إنما هو ما دامت محبته قائمة فأما إذا زالت المحبة بسلوِّ عارض أو بوفاة المحبوب فالمحب حينئذ يكون موفياً غادراً.

قالت امرأة من عامر بن صبيعة:

وإنِّي لأستحييه والتُّربُ بيننا ... كما كنتُ أستحييه حينَ يراني
أهابُك إجلالاً وإن كنتَ في الثرى ... لوجهك يوماً إن يسؤك مكاني

ويروى عن هذه المرأة أنَّها زارت قبر زوجها وعليها حلِّي وثياب مصبغة فالتزمت القبر ثم أنشأت تقول:

يا صاحبَ القبرِ يا مَنْ كانَ ينعمُ بي ... عيشاً ويكثرُ في الدُّنيا مؤاتائي
نسيتَ ما كنتَ من قُرْبِي تحبُّ وما ... قد كانَ يُلهيك من ترجيع أصواتي
أزورُ قبرك في حلِّي وفي حُللٍ ... كائنِي لستُ من أهلِ المصيباتِ

فمن رآني من حزني مفاجئة... طويلة الحزن في زوَّارِ أمواتٍ
فبينما هي ملتزمة القبر إذ شهقت شهقةً فماتت^١

^١ العقد الفريد ٢٣٣/٣ ، التذكرة الحمدونية ٢٩ / ٣

القسم الثاني
في أحوال العشاق وأخبارهم

المأمون يسأل ما هو العشق

قال أبو العالية الشامي: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهتم بها قلبه، وتؤثرها نفسه.

قال: فقال له ثمامة: اسكت يا يحيى! إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو محرم صاد ظيباً أو قتل نملّة، فأما هذه فمسائلنا نحن.

فقال له المأمون: قل يا ثمامة، ما العشق؟ فقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكة لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها، وقود تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه.

فقال له المأمون: أحسنت والله يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.^١

العشق داء أهل الظرف

قال عبد الله بن جعفر المديني قلت لأبي زهير المديني: ما العشق؟ قال: الجنون والذل، وهو داء أهل الظرف.^٢

^١ المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي ٢٣٨/١ ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، مصارع العشاق ١٢/١ ط دار صادر، بيروت، نهاية الأرب في فنون الأدب ١٢٧/٢ ط دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة

^٢ مصارع العشاق ١٢/١

العشق أوله لعب وآخره عطب

قال المظفر بن يحيى: قال بعض الفلاسفة: لم أر حقاً أشبه بباطل ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزله جد وجدته هزل، وأوله لعب وآخره عطب.^١

ذنوب اضطرار

قال يحيى بن معاذ: لو كان إلي من الأمر شيء ما عذبت العشاق، لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار.^٢

المجنون الشاعر

قال مساور الوراق: قلت لمجنون كان عندنا، وكان شاعراً، ويقال إن عقله ذهب لفقد ابنة عم كانت له، فقلت له يوماً: أجز هذا البيت:

وَمَا الْحُبُّ إِلَّا شُعْلَةٌ قَدَحَتْ بِهَا ... عَيُونُ الْمَهَا بِاللَّحْظِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ.

قال فقال على المكان:

وَنَارُ الْهَوَى تَخْفَى، وَفِي الْقَلْبِ فِعْلُهَا ... كَفَعَلَ الَّذِي جَادَتْ بِهِ كَفُّ قَادِحِ.^٣

^١ مصارع العشاق ١٢/١ ، نهاية الأرب في فنون الأدب ١٢٦/٢

^٢ مصارع العشاق ١٢/١

^٣ الأمالي ١٢٦/٢ ط دار الكتب المصرية ، مصارع العشاق ١٢/١ ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ١٩٩/٤

الجنة لمن عشق وعف

قال نبطويه: دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حبٌ من تعلم أورثني ما ترى.

فقلت: ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين، أحدهما النظر المباح، والثاني اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فأورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فإنه معني منها ما حدثني أبي قال: حدثنا سويد بن سعيد قال: حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من عشق وكنم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة^١، ثم أنشدنا لنفسه:

انظرُ إلى السَّحَرِ يجري في لَوَاحِظِهِ، ... وانظر إلى دَعَجٍ في طَرَفِهِ السَّاجِي.

وانظر إلى شَعَرَاتٍ فوقَ عَارِضِهِ ... كَأَنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ في عَاجِ.

وأنشدنا لنفسه:

ما لَهُم أنكَرُوا سَوَاداً بَخْدِي ... هـ، ولا يُنْكِرُونَ وَرَدَ العُصُونِ.

إنْ يَكُنْ عَيْبُ خَدِّهِ بُدَدَ الشَّعْ ... رِ، فَعَيْبُ العَيُونِ شَعْرُ الجُفُونِ.

^١ موضوع. رواه ابن حبان في "المجروحين" (٣٤٩ / ١) والخطيب في "تاريخه" (٥ / ١٥٦، ٢٦٢، ٥٠ / ٦ - ٥١، ٧١ / ٢٩٨، ١٣ / ١٨٤٠) والثعالبي في "حديثه" (١٢٩ / ١) وأبو بكر الكلاباذي في "مفتاح المعاني" (٢ / ٢٨١) والسلفي في "الطيوريات" (٢ / ٢٤) وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢ / ٢٦٣ / ٢)

فقلت له: نفيت القياس في الفقه، وأثبتته في الشعر. فقال: غلبة الهوى، وملكة النفوس دعنا إليه.

قال: ومات في ليلته أو في اليوم الثاني.^١

سقراط والعشق

قال سقراط الحكيم: العشق جنون، وهو ألوان كما أن الجنون ألوان.^٢

العاشق التقي

قال علي بن عاصم: قال لي رجل من أهل الكوفة من بعض إخواني: ألا أريك فتى عاشقاً؟ قال: بلى، والله، فإني أسمع الناس ينكرون العشق وذهاب العقل فيه، وإني لأحب رؤيته، فعدي يوماً أجى معك فيه.

قال: فوعدته يوماً فمضينا فأنشأ صاحبي يحدثني عن نسكه وعبادته، وما كان فيه من الاجتهاد، قلت: وبعن هو متعلق؟ قال: بجارية لبعض أهله كان يختلف إليهم، فوقعت في نفسه، فسألهم أن يبيعوها منه، فأبوا، وبذل لهم جميع ماله، وهو سبعمائة دينار، فأبوا عليه ضراراً وحسداً أن يكون مثلها في ملكه، فلما أبوا عليه، بعثت إليه الجارية، وكانت تحبه حباً شديداً: مربي بأمرك، فوالله لأطيعنك ولأنتهين إلى أمرك في كل ما أمرتني به. فأرسل إليها: عليك بطاعة الله، عز وجل، فإن عليها المعول والسكون إليها، وبطاعة من يملك رقك، فإنها

^١ التذكرة الحمدونية ١٥٤/٦ ط دار صادر، بيروت، مصارع العشاق ١٤/١

^٢ مصارع العشاق ١٥/١، نشوار المخاضرة وأخبار المذاكرة ٢٢٧/٦

مضمومة إلى طاعة ربك، عز وجل، ودعي الفكر في أمري لعل الله، عز وجل، أن يجعل لنا فرجاً يوماً من الدهر، فوالله ما كنت بالذي تطيب نفسي بنيل شيء أحبه أبداً في ملكي، فأمنعه، أمد يدي إليه حراماً بغير ثمن، ولكن أستعين بالله على أمري، فليكن هذا آخر مرسلك إلي، ولا تعودني فأني أكره والله أن يراي الله تعالى، وأنا في قبضته، ملتمساً أمراً يكرهه مني، فعليك بتقوى الله، فإنها عصمة لأهل طاعته، وفيها سلو عن معصيته.

قال: ثم لزم الاجتهاد الشديد، ولبس الشعر وتوحد، فكان لا يدخل منزله إلا من ليل إلى ليل، وهو مع ذلك مشغول القلب بذكرها ما يكاد يفارقه، فوالله ما زال الأمر به حتى قطعه، فوالآن ذاهب العقل واله في منزله.

قال: ثم صرنا إلى الباب واستأذنا فأذن لنا. قال علي: فدخلت إلى دار قوراء سرية، وإذا أنا بشاب في وسط الدار على حصير متر بآزار ومرتد بآخر. قال: فسلمنا عليه، فلم يرد علينا السلام، فجلسنا إلى جنبه، وإذا هو من أجمل من رأيت وجهاً، وهو مطرق ينكت في الأرض، ثم ينظر إلى ساعده، ثم يتنفس الصعداء، حتى أقول قد خرجت نفسه، وهو مع ذلك كالخلال من شدة الضر الذي به.

قال: فالتفت، فإذا أن بوردة حمراء مشدودة في عضده، قال: فقلت لصاحبي: ما هذه؟ فوالله ما رأيت العام ورداً قبل هذه! فقال: أظن فلانة، وسماها، بعثت بها إليه، فلما سماها رفع رأسه فنظر إلينا ثم قال:

جَعَلْتُ مِنْ وَرْدَتِهَا ... تَمِيمَةً فِي عَضْدِي.

أَشْمَهَا مِنْ حَبِّهَا ... إِذَا عَلَانِي كَمَدِي.

فَمَنْ رَأَى مِثْلِي فَتًى ... بِالْحَزَنِ أَضْحَى مَرْتَدِي.

أَسْقَمَهُ الْحُبُّ، فَقَدْ ... صَارَ حَلِيفَ الْأَوْدِ.

وَصَارَ سَهْوَ دَهْرُهُ ... مُقَارِنًا لِلْكَمَدِ.

قال: ثم أطرق، فقلت: الساعة، والله، يموت. اقل علي بن عاصم: وورد علي من أمره ما لم أتمالك، وقمت أجر ردائي، فوالله ما بلغت الباب حتى سمعت الصراخ فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات والله! قال علي: فقلت: والله لا أبرح حتى أشهده. قال: وتسامع الناس فجاءوا بطبيب فقال خذوا في أمر صاحبكم، فقد مضى لسبيله، فغسلوه وكفنوه ودفنوه وانصرف الناس.

فقال لي صاحبي: امض بنا! فقلت: امض أنت فأني أريد الجلوس ههنا ساعة، فمضى، فما زلت أبكي وأعتبر به. وأذكر أهل محبة الله، عز وجل، وما هم فيه. قال: فبينما أنا على ذلك، إذا أنا بجارية قد أقبلت كأنها مهابة، وهي تكثر الالتفات، فقالت لي: يا هذا! أين دفن هذا الفتى؟ قال علي: فرأيت وجهاً ما رأيت قبله مثله، فأومأت إلى قبره؟ قال: فذهبت إليه، فوالله ما تركت على القبر كثير تراب إلا ألقته على رأسها، وجعلت تتمرغ فيه، حتى ظننت أنها ستموت، فما كان بأسرع من أن طلع قوم يسعون حتى جاؤوا إليها، فأخذوها، وجعلوا يضربونها، فقامت إليهم فقلت: رفقاً بها، برحمتكم الله! فقالت: دعهم أيها الرجل يبلغوا همتهم، فوالله لا انتفعوا بي بعده أيام حياتي، فليصنعوا بي ما شاؤوا.

قال علي: فإذا هي التي كان يحبها الفتى، فانصرفت وتركتها.^١

موت عروة بن حزام

^١ مصارع العشاق ١٧/١

قال النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري: وليت صدقات بني عذرة، قال: فدفعت إلى فتى تحت ثوب، فكشفت عنه، فإذا رجل لم يبق منه إلا رأسه، فقلت: ما بك؟ فقال:

كَأَنَّ قِطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا، ... عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ.

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ، ... وعرّافٍ يُجَدِّ إنْ هُمَا شَفِيَانِي.

ثم تنفس حتى ملأ منه الثوب الذي كان فيه، ثم بخمد، فإذا هو قد مات، فأصلح من شأنه، وصليت عليه، فقيل لي: أتدري من هذا؟ هذا عروة بن حزام.^١

ليلي العامرية ومجنونها

قال الهيثم بن عدي: حدثنا عثمان بن عمار عن أشياخهم من بني مرة قال: رحل رجل منا إلى ناحية الشام مما يلي تيماء والشرارة في طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت له، وقد أصابه مطر، فعدل إليها، فتحنح، فإذا امرأة قد كلمته، فقالت له: انزل، فتزل وراحت إبلهم وغنمهم فإذا أمر عظيم وإذا رعاء كثير، فقالت لبعض العبيد سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقلت: من ناحية اليمامة ونجد. فقالت: أي بلاد نجد وطئت؟ قلت: كلها. قالت: بمن نزلت هنا؟ قلت: ببني عامر، فتنفست الصعداء، وقالت: بأي بني عامر؟ فقلت: ببني الحريش. فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعت بذكر فتى يقال له قيس ويلقب بالمجنون؟ فقلت، إي والله، ونزلت بأبيه، وأتيته حتى نظرت إليه، يهيم في تلك الفيافي، ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له ليلي فيبكي، وينشد أشعاراً يقولها فيها.

^١ خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب ٣/٢١٦ ط مكتبة الخانجي، القاهرة، الظرف والظرفاء ص ٧٢ ط مكتبة

الخانجي، مصارع العشاق ٣٠/١

قال: فرفعت الستر بيني وبينها، فإذا شقة قمرٍ لم تر عيني مثلها، فبكت وانتحبت حتى ظننت، والله، أن قبلها قد انصدع، فقلت لها: أيتها المرأة! اتقي الله، فوالله ما قلت بأساً، فمكنت طويلاً على تلك الحال من البكى والنحيب ثم قالت:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي، وَالْخُطُوبُ كَثِيرَةٌ... مَتَى رَحَلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌّ فَرَاغٌ.

بنفسي مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ... وَمَنْ هُوَ، إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّهَ، ضَائِعٌ.

ثم بكت حتى غشي عليها، فلما أفاقت قلت: من أنت، بالله؟ قالت: أنا ليلي المشؤومة عليه، غير المساعدة له. فما رأيت مثل حزنها ووجدتها، فمضيت وتركتها.^١

عبد الله بن جعفر وجاريته.

نظر عبد الله بن جعفر إلى جارية له كان يحبها حباً شديداً وهي تلاحظ مولاه فسألها: بالله هل تحبين فلاناً؟ فقالت: أعيدك بالله يا سيدي! قال فسألها: بالله لا تكتميني ذلك! فسكتت فأعتقها ودعاه فزوجها إياه. قال: ثم إن نفسه تتبعها فدعا مولاه فقال: أتزل عنها ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا والله، ولا مائة ألف درهم. قال: بارك الله لك فيها! قال فأعرض عنها؟ قال: فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات مولاه وتزوجها ابن جعفر بعد ذلك.

قال ابن حسين فذكرت هذا الحديث لأبي ياسين الرقي فحدثني عن بعض أصحابه أن عبد الله بن جعفر لما دخلت عليه أنشأ يقول:

^١ أشعار النساء ص ٨٨ ط دار عالم الكتب، الشعر والشعراء ٥٥٣/٢ ط دار الحديث، القاهرة، خزنة الأدب

ولب لباب لسان العرب ٢٣٢/٤، مصارع العشاق ٣٣/١

رَضِيتُ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، ... وَسَلَّمْتُ أَمْرَ اللَّهِ فِي كَمَا مَضَى.

بَلَانِي وَأَبْلَانِي بِحُبِّ دَنِيَّةٍ، ... وَصَبَّرَنِي حَتَّى أَمَحَى الْحُبُّ فَاَنْقَضَى.

لَعَمْرِي! مَا حُبِّي بِحُبِّ مَلَالَةٍ، ... وَلَا كَانَ وَدِّي زَائِلًا فَتَنَقَّضًا.

وَلَكِنْ حُبِّي مَعَهُ دَلٌّ يَزِينُهُ، ... وَيُعْرِضُ أَحْيَانًا إِذَا الْحُبُّ أَعْرَضَا.^١

صريعاً الحب

قال أبو بكر بن دريد : أخبرنا عبد الرحمن عن عمه عن يونس قال: انصرفت من الحج فمررت بملوية وكان لي فيها صديق من بني عامر بن صعصعة، فصرت إليه مسلماً، فأنزلني، فبينما أنا عنده، ونحن قاعدان بفنائيه، إذا نساءً مستبشرات، وهن يقلن: تكلم تكلم! فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فتى منا كان يعشق ابنة عم له، فزوجت، وحملت إلى ناحية الحجاز، فإنه لعلی فراشه منذ حول ما تكلم، ولا أكل، إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه. فقلت: أحب أن أراه. فقام، وقمت معه فمشينا غير بعيد، وإذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت، لم يبق منه إلا خيال، فأكب الشيخ عليه يسأله، وأمه واقفة، فقالت: يا مالك! هذا عمك أبو فلان يعودك، ففتح عينيه، وأنشأ يقول:

لِيَكْنِي الْيَوْمَ أَهْلُ الْوَدِّ وَالشَّقَقِ، ... لَمْ يَبْقَ مِنْ مَهْجَتِي إِلَّا شِفَا رَمَقٍ.

الْيَوْمَ آخِرُ عَهْدِي بِالْحَيَاةِ، فَقَدْ ... أُطْلِقْتُ مِنْ رَبَقَةِ الْأَحْزَانِ وَالْقَلَقِ.

^١ مصارع العشاق ٣٩/١

ثم تنفس الصعداء فإذا هو ميت، فقام الشيخ، وقمت فانصرفت إلى خباته فإذا جارية
بضة تبكي وتتفجع. فقال الشيخ: ما يبكيك؟ فأنشأت تقول:

ألا أبكي لَصَبِّ شَفِّ مُهَجَّتِهِ ... طولُ السَّقامِ وأضنى جسمه الكَمَدُ.

يا لَيْتَ مَنْ خَلَّفَ القلبَ الهَيَّومَ به، ... عِنْدِي فَأشكو إليه بعض ما أَجِدُ.

أَنْشُرُ ثُرْبِكَ أَسْرَى لي النسيمُ به، ... أم أنتَ حَيْثُ يُنَاطُ السَّحَرُ والكَيْدُ.

ثم انثنت على كبدها، وشهقت، فإذا هي ميتة.^١

السل داء الحب

قال محمد بن جعفر بن زبير: سمعت رجلاً من بني عذرة عند عروة بن الزبير يحدثه، فقال
عروة: يا هذا بحق أقول لكم إنكم أرق الناس قلوباً. فقال: نعم، والله، لقد تركت بالحي
ثلاثين قد خامرهم السل، وما بهم داء إلا الحب.^٢

الحب للحبيب الأول

قال أبو محمد الرقاعي: خرج أبو حمزة يشيع بعض الغزاة، وكان راكباً، فسمع قائلاً
يقول:

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شَعَتْ مِنَ الهَوَى، ... ما الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الأوَّلِ.

^١ أشعار النساء ص ٨٤ ، مصارع العشاق ٤٠/١

^٢ مصارع العشاق ٤٢/١

فسقط حتى خشينا عليه.^١

من الحب اليائس إلى التعب

روى أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد ملازماً للمسجد الجامع، لا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه، حسن القامة، حسن السميت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال، وعقل، فشغفت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه، وهو يريد المسجد، فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، ثم اعمل ما شئت. فمضى ولم يكلمها. ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه، وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى اسمع كلمات أكلمك بها. فأطرق فقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً. فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالةً مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في هذا الأمر بنفسي معرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم، معاشر العباد، في مثال القوارير أدنى شيء يعيبه، وجملة ما أكلمك به أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

قال: فمضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً، ثم خرج من منزله. فإذا بالمرأة واقفة في موضعها، فألقى إليها الكتاب، ورجع إلى منزله. وكان في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المرأة أن الله، تبارك وتعالى، إذا عصي حلم، فإذا عاود العبد المعصية ستر، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله، عز وجل، لنفسه غضبةً تضيق منها السموات والأرضون والجبال والشجر والدواب، فمن ذا

^١ مصارع العشاق ٤٣/١

الذي يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرت باطلاً، فإني أذكرك يوماً تكون السماء كالمهل، وتصير الجبال كالعهن، وتجنو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي، فكيف بصلاح غيري، وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طيب، هو ولي الكلوم الممرضة، والأوجاع الممرضة، ذلك الله رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإني متشاغل عنك بقوله، عز وجل: وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق، فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على طريقه، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا أبداً إلا بين يدي الله، عز وجل. وبكت بكاءً كثيراً، ثم قالت: أسأل الله، عز وجل. الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك. ثم تبعته فقالت: امنن علي بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل عليها! فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله عز وجل: وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار.

قال: فأطرقت، وبكت بكاءً أشد من بكائها الأول، ثم أفأقت، فقالت: والله ما حملت أنثى ولا وضعت إنساً كمثلك في مصري وأحيائي. وذكرت آياتاً آخرها:

لألبسنَ لهذا الأمرِ مدرعةً، ... ولا ركنْتُ إلى لذاتِ دُنْيَايَا.

ثم لزم بيتها فأخذت بالعبادة. قال: فكانت إذا أجهدتها الأمر تدعو بكتابه فتضعه على عينيها، فيقال لها: وهل يغني هذا شيئاً؟ فتقول: وهل لي دواء غيره؟ وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها، فإذا صلت قالت:

يَا وَارِثَ الْأَرْضِ هَبْ لِي مِنْكَ مَغْفِرَةً، ... وحلَّ عني هوى ذا الهاجرِ الدَّانِي.

وانظُرْ إلى حَلَّتِي، يا مُشْتَكِي حَزَنِي، ... بَنظَرَةٍ مِنْكَ تَجْلُو كُلَّ أَحْزَانِي.

فلم تنزل على ذلك حتى ماتت كمدًا، وكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي عليها، فيقال له: مم بكائك، وأنت قد أيسستها؟ فيقول: إني ذقت طعمها مني في أول أمرها وجعلت قطعها ذخيرةً لي عند الله، عز وجل، وإني لأستحيي من الله، عز وجل،؟ أن أسترده ذخيرةً ذخرتها عنده.^١

وفاء زوجة

تزوج مالك بن عمرو الغساني بابتة عم النعمان بن بشير فشغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شجاعاً، فاشترطت عليه أن لا يقاتل إذا لقي، شفقةً عليه وضناً به، وإنه غزا حياً من لحم، فباشر القتال، فأصابته جراح فقال، وهو متقل منها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ غَزَالٍ تَرَكْتُهُ، ... إِذَا مَا أَتَاهُ مُصْرَعِي كَيْفَ يَصْنَعُ؟.

فَلَوْ أَنِّي كُنْتُ الْمُؤَخَّرَ بَعْدَهُ، ... لَمَا بَرَحْتُ نَفْسِي عَلَيْهِ تَطَّلَعُ.

وإنه مكث يوماً وليلةً ثم مات من جراحه، فلما وصل خبره إلى زوجته بكنه سنةً، ثم اعتقل لسانها فامتنعت من الكلام، وكثر خطابها، فقال عمومتها وولادة أمرها: نزوحها لعل لسانها ينطلق، ويذهب حزنها، فإنما هي من النساء، فزوحها بعض أبناء الملوك فساق إليها ألف بعير، فلما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها قامت على باب القبة ثم قالت:

^١ مصارع العشاق ٤٧/١

يقولُ رجلٌ: زَوْجُوهَا لَعَلَّهَا ... تَقَرُّ، وترضى بعده بِحَلِيلٍ.
فَأَخْفَيْتُ فِي النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا ... رَجَاءٌ لَهُمْ، وَالصَّدَقُ أَفْضَلُ قِيلَ.
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا ... أَقَامَ، وَنَادَى صَحْبَهُ بِرَحِيلَ.
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا ... ضُرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ غَيْرُ نَكُولِ.
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا ... خَفِيفٌ عَلَى الْأَحْدَاثِ غَيْرُ ثَقِيلِ.
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا ... صَرُومٌ كَمَا ضِي الشَّقَرَتَيْنِ صَقِيلِ.^١

جميل والبنات العذريات

قال هشام بن محمد سمعت رجلاً من بني عذرة يحدث قال: لما علق جميل بثينة وجعل ينسب بها استعدي عليه أهلها ربعي بن دجاجة، وهو يومئذ أمير تيماء، قال: فخرج جميل هارباً حتى انتهى إلى رجل من عذرة، بأقصى بلادهم، وكان سيّداً، فاستجار به، وكان للرجل سبع بنات، فلما رأى جميلاً رغب فيه، وأراد أن يزوجه ليسلو عن بثينة، فقال لبناته: البسن أحسن ثيابكن وتحلين بأحسن حليكن، وتعرضن له، فلعل عينه أن تقع على إحداكن فأزوجه.

قال: وكان جميل: إذا أراد الحاجة، أبعد في المذهب، فإذا أقبل رفعن جانب الحباء، فإذا رآهن صرف وجهه، قال: ففعلن ذلك مراراً، فعرف جميل م أراد به الشيخ، فأنشأ يقول:

^١ مصارع العشاق ٥٠/١

حلفتُ لكيما تعلميني صادقاً، ... وللصدق خيرٌ في الأمور وأنجح.

لتكليم يومٍ واحدٍ من بُنيّة ... ورؤيتها عندي ألدّ وأملح.

من الدهر لو أخلو بكنّ، وإثما ... أعالج قلباً طامحاً حيثُ يطمح.

فقال الشيخ: أرخين عليكِ الحياء، فوالله لا يفلح هذا أبداً.^١

الظريفة العاشقة

قال عباس بن عبيد: كان بالمدينة جارية ظريفة حاذقة بالغناء، فهويت فتىً من قریش، فكانت لا تفارقه ولا يفارقها، فملّها الفتى وتزايدت هي في محبته وأسفت، فغارت، فولت وجعل مولاهما لا يعبأ بذلك ولا يرق لشكواهما، وتفاقم الأمر بها حتى هامت على وجهها، ومزقت ثيابها، وضربت من لقيها، فلما رأى مولاهما ذلك عاجلها فلم ينجع فيها العلاج، وكانت تدور بالليل في السكك مع الأدب والظرف. قال: فلقيها مولاهما ذات يوم في الطريق، ومعه أصحاب له، فجعلت تبكي وتقول:

الحُبُّ أوّلُ ما يكونُ لِحاجةٍ، ... يأتي به وتسوقهُ الأقدارُ.

حتى إذا اقتحَمَ الفتى لِحَجِّ الهوى، ... جاءتْ أمورٌ، لا تُطاقُ، كبارُ

قال: فما بقي أحد إلا رحمها، فقال لها مولاهما: يا فلانة امضي معنا إلى البيت، فأبت

وقالت:

^١ مصارع العشاق ٥١/١

شغل الحلي أهله أن يعارا.

قال: وذكر بعض من رآها ليلةً، وقد لقيتها مجنونة أخرى، فقالت لها: فلانة! كيف أنت؟ فقالت: كما لا أحب، فكيف أنت من ولهك وحبك؟ قالت: على ما لم يزل يتزايد بي على مر الأيام.

قالت لها: تغني بصوت من أصواتك فيني قرية الشبه بك. فأخذت قصبةً توقع بها وغنت:

يا مَنْ شكا أَلماً للحبِّ شَبَّهَهُ ... بالنارِ في القلبِ من حُزْنٍ وتذكارِ.

إِنِّي لأَعْظِمُ ما بي أنْ أُشَبَّهَهُ ... شيئاً يُقاسُ إلى مثلي ومقدارِ.

لَوْ أَنَّ قَلْبِي في نارٍ لأَحْرَقَهَا، ... لأنَّ أحزائهُ أذكى من النَّارِ.

ثم مضت^١.

عاشق يموت كتماناً

قال مالك بن سعيد: حدثني مشيخة من خزاعة أنه كان عندهم بالطائف جارية متعبدة ذات يسار وورع، وكانت لها أم أشد عبادةً منها، وكانت مشهورة بالعبادة، وكانتنا قليلتي

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ١٥٤/٢، مصارع العشاق ٥٣/١، الظرف والظرفاء ص ٦٠

المخالطة للناس، وكانت لهما بضاعة مع رجل من أهل الطائف، فكان يبضعها لهما، فما رزقهن الله من شيء أتاها به.

قال: وبعث يوماً ابنه، وكان فتىً جميلاً مسرفاً على نفسه، إليهن ببعض حوائجهم، فقرع الباب، فقالت أمها: من هذا؟ قال: أنا ابن فلان. قالت: ادخل! فدخل وابتتها في بيت، ولم تعلم بدخول الفتى، فلما قعد معها خرجت ابتتها، وهي تظن أنها بعض نسائهن حتى جلست بين يديه، فلما نظرت إليه قامت مبادرةً فخرجت، ونظر إليها فإذا هي من أجمل العرب.

قال: ووقع حبها في قلبه. فخرج من عندها، وما يدري أين يسلك، فأتى أباه، فأخبره برسالتهم، وجعل الفتى ينحل ويدوب جسمه، وتغير عما كان عليه، ولزم الوحدة والفكر، وجعل الناس يظنون أن الذي به من عبادة قد لزمها، حتى سقط على فراشه.

فلما رآه أبوه على تلك الحال دعا له الأطباء والمعالجين، فجعلوا ينظرون إليه، فكل يصف به دواء، ويقول: به داء لا يقوله صاحبه، والفتى مع ذلك ساكت لا يتكلم، حتى إذا طالت علته واشتد عليه الأمر دعا أبوه فتیاناً من الحي، وإخوانه الذين كانوا له أنساً، فقال لهم: اخلوا به وسلوه عن علته لعله يخبركم ببعض ما يجده، فأتوه فكلّموه وسألوه، فقال: والله ما بي علة أعرفها فأبينها لكم، وأخبركم بما أجد منها، فأقلوا الكلام.

وكان الفتى فطناً ذا عقل، فلما طال به الوجد دعا امرأة من بعض أهله فخلا بها، وقال: إني ملق إليك حديثاً ما ألقيته إليك إلا عند الإياس من نفسي، فإن ضمنت لي كتمانته أخبرتك وإلا صبرت حتى يحكم الله في أمري ما يحب، وبعد، فوالله ما أخبرت به أحداً قبلك، ولئن كتمت علي لا أخبر به أحداً بعدك، وإن هذا البلاء الذي أرى بي لا شك قاتلي وإنه يجب علي في محبتي له أن أكون لمن أحب صائناً وعليه مشفقاً من تزيد الناس وإكثارهم حتى يصير

الصغير كبيراً، والكبير عندهم الباقي ذكره أبداً، الله الله في أمري، واجعليه محرراً في صدرك فإن فعلت فلك حسن المكافأة، وإن أبيت فالله يحسن لك الشكر.

فقلت له المرأة: قل يا بني ما بدا لك، فوالله ما أجد في الدنيا أحداً أحب بقاءه غيرك، وكيف لي أن يكون عندي بعض دوائك، فوالله لأكتمن أمرك ما بقيت أيام الدنيا. فقال لها: إن من قصتي كذا وكذا! فقلت له: يا بني أفلا أخبرتنا، فوالله ما رأيت كلمة أسكن بمجامع القلب فلا تفارقه أبداً، من كلمة: محب عاشق أخبر من يحبه أنه له وامق، فتلك الكلمة تزرع في قلوب ذوي الألباب شجراً لا تدرك أصوله. فقال لها: ومن لي بها، وكيف السبيل إليها وقد بلغك حالها وقصتها وشدة اجتهداها وعبادتها؟ قالت له: يا بني علي أن آتيك بما تسر به.

قال: فلبست ثوبها وأتت منزل الجارية، فدخلت فسلمت على أمها وحادثتها ساعة. فسألتها أمها عن حاله وعن وجعه، فقالت: والله لقد رأيت الأوجاع والآلام، فما رأيت وجعاً قط كوجعه، وإن وجعه يزيد في كل يوم، وألمه يترقى، وهو في ذلك صابر غير شاك لا يفقد من جوارحه شيئاً، ولا من عقله. فقالت أمها: أفلا تدعون له الأطباء؟ قالت: بلى، والله فما وقع أحد منهم على دائه، ولا يفقه دواءه.

ثم قامت فدخلت على الجارية في بيتها الذي كانت تتعبد فيه، فسلمت عليها، وحادثتها ساعة، وقد كان وقع إلى الجارية خبره، فعلمت أن ذلك من أجلها، فقالت لها المرأة: يا بنية أبلت شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التي أنت عليها. قالت: يا عمتاه أية حال سوء تريني عليها قالت لا يا بنية ولكن مثلك يفرح في الدنيا ويلذ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لك، غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته، فيجمع الله لك بذلك الدارين جميعاً، فوالله ما حرم الله، عز وجل، على عباده ما أحل لهم.

فقالت: يا عمتاه، أو هذه الدار دار بقاء لا انقطاع لها ولا فناء فتكون الجوارح قد وثقت بذلك، فتجعل الله تعالى منظر هممها، وللدنيا شطرها، فتعد الجوارح إذا التعب راحةً والكد سلامةً، أم هذه الدار دار فناء وتلك دار بقاء ومكافأة، والعمل على حسب ذلك.

قالت: يا بنية لا! ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بباقية على أحد، ولا دائمة له، ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعات صدقة منه على النفوس، تنال فيها ما أحل لها من مخافة الشدة عليها.

فقالت الجارية: صدقت يا عمتاه، ولكن لله عباد قد علموا وصح في هممهم شيء من دخر ذخروه عنده، فجعلوا هذا الشكر الذي جعله ذخيرة عنده، إذ لم تكن الدنيا كاملة لهم، ولا هم متنقصون شيئاً قدموه لأنفسهم، وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جملة الكرامة، وإن كلامك ليدلني على أن تحته علة، وهو الذي حملك على مناظرتك لي على مثل هذا، وقد كنت أظن قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله، عز وجل، والخدمة له، والتقرب إليه بالأعمال الزكية التي تبلغ رضاه وترفع عنده فقد أصبحت متغيرة عن ذلك العهد الذي كنت أعهدك عليه، فأخبريني بما عندك وأوضح لي ما في نفسك، فإن يكن لك جواب أعتبتك، وإن يكن فيه حظ تابعتك، وإن يكن أمراً بعيداً من الله تعالى وعظمتك.

قالت: يا بنية فأنا مخبرتك به، والذي منعي من إلقائه إليك هيبتك، إذ بسطتني وعلمت أن عندي خيراً وأمرتني بإلقائه، فإن من قصة فلان كذا وكذا.

قالت: قد ظننت ذلك فأبلغه مني السلام، وقولي: أي أخاه! إني والله قد وهبت نفسي لمليك يكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة، ويعين من انقطع إليه وخدمه بالهمم الرفيعة، وليس إلى الرجوع بعد الهبة سبيل، فتوسل إلى مولاك ومولاي. محابه، واضرع إليه في غفران ما

قدمت يداك من عمل لم يهبه فيه، ولم يرضه، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله، وأول ما يجب علي أن أعظك به، فإذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصدور، فإنه لا يحسن بعد كان لمولاه عاصياً وعن أمره مولياً ناسياً لأن ينسي ذنوبه والاعتذار منها، ويلزم نفسه مسألة الحوائج لعلها داعية له إلى الفتنة إن لم يتداركه الله تعالى بكرمه، فاستنفذ نفسك يا أخي من مهلكات الذنوب، فإن له فضلاً وسع كل شيء، ولست مؤيستك من فضله إن رآك متبتلاً إليه ومما قدمت يداك معتذراً أن يمن بي عليك، فإنه الملك الذي يجود على من ولى عنه بكرمه، فكيف من أقبل إليه، فلا يشك أنه إذا جاد على من ولى عنه، يكون لمن أطاعه مكرماً وإليه وقت الندامة مسرعاً، وما أبقيت لك حجة تحتج بها، فليكن ما أخبرتك به نصب عينك ولا ترادني في المسألة، فلا أجيبك والسلام.

قال: فقامت المرأة من عندها، فأنته، فأخبرته بمقالتها. قال: فبكى بكاءً شديداً، فقالت له العجوز: والله يا بني ما رأيت امرأة خوف الله، عز وجل، في صدرها، مثل هذه المرأة فاعمل بما أمرتك به، فقد، والله، بالغت في النصيحة، وأحسنست الموعظة، فلا تلق نفسك في مهلكات الأمور، فتندم حيث لا تغني الندامة، ولو علمت يا بني أن حيلة تنفذ غير الذي دعيتك إليه لاحتلتها، ولكن عندي من ذلك ما أرجو أن محتالة، ولكني رأيت الله، عز وجل، قد جعلته نصب عينها، فهي إليه ناظرة ومن جعل الله عز وجل نصب عينيه لها عن زينة الحياة الدنيا، ورفعتها، واشتغل بما قد جعله نصب عينيه.

وجعل يبكي ويقول: كيف لي بالبلوغ إلى ما دعت إليه ومتى يكون آخر المدة التي نلتقي فيها؟ قال: فاشتد وجعه ذلك، وحال عن ذوي العقول، فلما نظر القوم إليه في تلك الحال، وجعل لا يقره قرار، حبسوه في بيت، وأوثقوه، وتوهم القوم أن الذي به من عشق، فكان ربما أفلت، فيخرج من منزله فيجتمع عليه الصبيان، فيقولون له: مت عشقاً، مت عشقاً! فكان يقول:

أُفْشِي إِلَيْكُمْ بَعْضَ مَا قَدْ يَهِيْجُنِي ... أَمْ الصَّبْرُ أَوَّلَى بِالْفَتَى عِنْدَ مَا يَلْقَى.

أَوْعِدْ وَعْدًا مَا لَهُ، الدَّهْرُ، آخِرٌ ... وَأَوْمِرُ بِالتَّقْوَى، وَمَنْ لِيَّ بِالتَّقْوَى.

سَلَامٌ عَلَى مَنْ لَا أَسْمِيَهُ بِاسْمِهِ ... وَلَوْ صِرْتُ مِثْلَ الطَّيْرِ فِي قَفْصٍ يُلْقَى.

أَلَا أَيُّهَا الصَّبِيَّانُ لَوْ ذُقْتُمُ الْهَوَى ... لَا يُقْتَتَمُ أَتَى مُحَدِّثُكُمْ حَقًّا.

أَحِبِّكُمْ مِنْ حُبِّهَا، وَأَرَاكُمْ ... تَقُولُونَ لِي: مُتْ يَا شَجَاعُ بِمَا عِشَقَا.

فَلَمْ تُنْصِفُونِي، لَا، وَلَا هِيَ أَنْصَفَتْ ... فَرَفَقًا رُؤِيدًا، وَيَحْكُمُ بِالْفَتَى رَفَقًا.

فلما صح ذلك عند أهله وعلموا أنه عاشق جعلوا يسألونه عن أمره، فكان لا يجيبهم، وكتمت العجوز قصته، فأخذوه فحبسوه في بيت فلم يزل فيه حتى مات، رحمه الله.^١

سوسن العابدة ومرادها

عن أبي إدريس الأودي قال: كان رجلان في بني إسرائيل عابدان وكانت جارية يقال لها سوسن، عابدة، وكانوا يأتون بستاناً فيتقربون فيه بقربان لهم، فهوي العابدان سوسن فكتم كل واحد منهما عن صاحبه، واختبأ كل واحد منهما خلف شجرة ينظران إليها، فبصر كل واحد منهما بصاحبه، فقال كل واحد منهما لصاحبه: ما يقيمك ههنا؟ فأفشى كل واحد منهما إلى صاحبه حب سوسن، فاتفقا على أن يراوداها عن نفسها، فلما جاءت لتقرب قالا لها: قد عرفت طواعية بني إسرائيل بني إسرائيل لنا، فإن لم تواتينا قلنا، أصبحنا: إنا أصبنا معك رجلاً، وإن الرجل فاتنا، وإنا أخذناك، فقالت لهما: ما كنت لأطيعكما، فأخذاها،

^١ مصارع العشاق ٦٠/١

وأخرجها، وقالوا: أخذنا سوسن مع رجل، وإن الرجل سبقنا وذهب، فأقاموا سوسن على المصطبة، فكانوا يقيمون المذنب ثلاثة أيام، فتتزل نار من السماء، فتأخذه، فأقاموا سوسن، فلما كان اليوم الثالث جاء دانيال، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فوضعوا له كرسيًا، فجلس عليه، وقال: قدموهما إلي! فجاءا كالمستهزئين، فقال: فرقوا بين الشاهدين! قال لأحدهما: خلف أي شجرة رأيتهما؟ فقال: وراء تفاحة، وقال للآخر: خلف أي شجرة رأيتهما؟ فاختلفا، فترلت نار من السماء، فأحرقتهما، وأفلتت سوسن.^١

عزة وكثير

قال محمد بن سلام الجمحي: أرادت عزة أن يعرف ما لها عند كثير فتنكرت له، وقامت به متعرضة، فقام فاتبعها، فكلّمها، فقالت له: فأين حبك عزة؟ فقال: أنا الفداء لك، لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك. قالت: ويحك! لا تفعل، فقد بلغني أنها لك في صدق المودة، ومحض المحبة والهوى على حسب الذي كنت تبدي لها من ذلك وأكثر، وبعد، فاين قولك:

إِذَا وَصَلْتَنَا حِلَّةً كِي نُزِيلَهَا ... أَبَيْنَا، وَقَلْنَا: الْحَاجِيَّةُ أَوَّلُ.

فقال كثير: بأبي أنت وأمي! أقصري عن ذكرها، واسمعي ما أقول، ثم قال:

مَا وَصَلُ عَزَّةَ إِلَّا وَصَلُ غَانِيَةٍ ... فِي وَصَلِ غَانِيَةٍ مِنْ وَصَلِهَا خَلْفُ.

ثم قال: هل لك في المخالة؟ فقالت له: كيف بما قلت في عزة وسيرته لها؟ فقال: أقبله فيتحول إليك، ويصير لك. قال: فسفرت عن وجهها، عند ذلك، وقالت: أغدراً وانتكائاً يا فاسق؟ وإنك لها هنا، يا عدو الله! فبهت وأبلس ولم ينطق، وتخير وحجل، ثم إنها عرفته أمرها

^١ مصارع العشاق ٧٤/١

ونكته وغدره بها، وأعلمته سوء فعالة، وقلة حفاظه، ونقضه للعهد والميثاق، ثم قالت: قاتل الله جميلاً حيث يقول:

لَحَى اللَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُ الْوَدُّ عِنْدَهُ، ... وَمَنْ حَبَلُهُ إِنْ مَدَّ غَيْرُ مَتِينٍ.

وَمَنْ هُوَ ذُو وَجْهَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ ... عَلَى الْعَهْدِ حَلَّافٌ بِكُلِّ يَمِينٍ.

قال: فأنشأ كثير يقول بانخزالٍ وحصر وانكسار، يعتذر إليها، ويتنصل مما كان منه، ويحتال في دفع زلته، متمثلاً بقول جميل، ويقال: بل سرقه من جميل وانتحله لنفسه فقال:

أَلَا لَيْتَنِي قَبْلَ الَّذِي قُلْتُ شَيْبَ لِي ... مِنَ الْمُذْعِفِ الْقَاضِي سِمَامُ الذَّرَارِحِ.

فَمُتَّ وَلَمْ تَعْلَمْ عَلَيَّ خِيَانَةً، ... أَلَا رُبَّ بَاغِي الرِّبِّحِ لَيْسَ بِرَابِحٍ.

فَلَا تَحْمِلِيهَا وَاجْعَلِيهَا حَيَانَةً، ... تَرَوْحَتْ مِنْهَا فِي مِيَاحَةِ مَائِحٍ.

أَبُوهُ بَذَنِي أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُهَا، ... وَإِنِّي بِيَاقِي سِرَّهَا غَيْرُ بَائِحٍ.^١

ابنة أبي ربيعة وأبو مسهر

قال محمد بن خلف: كتب إلي أبو علي الحسن بن عليل العتري، ثم لقينته بعد ذلك، فحدثني به قال: حدثني أبو شراعة القيسي قال: حدثنا شيبان بن مالك قال: قال حماد الراوية: أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم،

^١ مصارع العشاق ٨٨/١

فقال عمر: أحدثكم عن بعض ذلك: إنه كان لي خليل من عذرة، وكان مستهتراً بحديث النساء، يشبب بهن، وينشد فيهن على أنه لا عاهر الحلة ولا سريع السلوة، وكان يوافي الموسم كل سنة، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار، وتوكت له السفار، حتى يقدم، وإنه راث عني ذات سنة خبره، وقدم وفد عذرة، فأتيته القوم أنشد عن صاحبي، فغذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال: عن أبي المسهر تسأل؟ قلت: عنه نشدت وإياه أردت. قال: هيهات أصبح، والله، أبو مسهر لا مؤيساً منه فيهمل، ولا مرجواً فيعمل، أصبح والله كما قال:

لَعَمْرُكَ مَا حَبَّبِي لِأَسْمَاءَ تَارِكِي ... صَحِيحاً، وَلَا أَقْضِي بِهِ فَأَمُوتُ.

قال قلت: وما الذي به؟ قال: به مثل الذي بك من طول تهكمكما في الضلال، وجركما أذيال الحسار، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار. قال قلت: من أنت منه يا ابن أخي؟ قال: أنا أخوه. قال قلت: والله ما يمنعك من أن تتركب طريق أخيك التي ركبها، وتسلك مسلكه الذي سلك، إلا أنك وأخاك كالوشى والبجادن لا يرقعك ولا ترقعه، ثم انطلقت وأنا أقول:

أَرَأَيْتَ حُجَّاجُ عَذْرَةَ رُوحَةٍ ... وَلَمَّا يَرُوحُ فِي الْقَوْمِ جَعْدُ بْنُ مَهَجَعٍ.

خليلين نشكو ما نلاقي من الهوى، ... فتى ما أقل يسمع وإن قال أسمع.

فلا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ خِلاً، فَإِنِّي ... سَأَلَقِي كَمَا لَاقَيْتَ فِي الْحُبِّ مَصْرَعِي.

فلما حججت وقفت في الموضع الذي كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات، وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف، وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فإقبل حتى خالف بين عنق ناقتي وناقته، ثم اعتنقني وجعل يبكي. فقلت: ما الذي دهاك وما غاك؟ فقال: برح العدل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عذيلة ذات بث ... لقد علمت بأن الحب داء.

ألم تنظروا إلى تغيير جسمي، ... وإني لا يزالني البكاء.

وإني لو تكلفت الذي بي ... لعفى الكلم وانكشف الغطاء.

وإن معاشري ورجال قومي ... حثوفهم الصبابة واللقاء.

إذا العذري مات بحتف أنف، ... فذاك العبد يكيه الرشاء.

فقلت: يا أبا مسهر! إنما ساعة عظيمة، وإنك في جمع من أقطار الأرض، ولو دعوت كنت قميناً أن تظفر بحاجتك، وأن تنصر على عدوك. قال: فجعل يدعو حتى إذا تدلت الشمس للغروب وهم الناس بأن يفيضوا سمعته يهملهم، فأضحت له مستمعاً، فإذا هو يقول:

يا رب كل غدوة وروحه، ... من محرم يشكو الضحى ولوحه.

أنت حسيب الخطب يوم الدوحة.

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله! إني امرؤ ذو مال كثير من نعم وثناء وإني خشيت على مالي التلف، فأتيت أخوالي من كلب، فأوسعوا لي عن صدر المجلس وسقوني بحمة البئر، فكانوا خير أحوال حتى هممت بمواقعة إبل لي بماء يقال له الخرزات، فركبت وتعلقت معي شراً كان أهدها إلي بعض الكلبين، وانطلقت، حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم، ورفعت لي دوحة عظيمة، فقلت: لو نزلت تحت هذه الشجرة، وتروحت مبرداً؟ فترلت فشددت فرسي بغصن من أغصانها ثم جلست تحتها، فإذا بغبار قد سطع، فتبينت فبدت لي شخوص ثلاثة، فإذا رجل يطرد مسحلاً وأتانا، فلما قرب مني إذا عليه درع أصفر وعمامة خر سوداء، وإذا هو تنال فروع شعره كتفيه، فقلت في نفسي: غلام

حديث عهدٍ بعرس، فأعجلته لذة الصيد فنسي ثوبه وأخذ ثوب امراته. فما لبث أن لحق بالمسحل فصرعه ثم ثنى طعنة الأتان فصرعها، ثم أقبل، وهو يقول:

نَطَعْنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً ... كَرَّكَ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ.

قال فقلت: إنك قد تعبت وأتعبت. فلو نزلت. فثنى رجله فترل فشده فرسه بغصن من أغصان الشجرة ثم أقبل حتى جلس قريباً مني، فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول الشاعر:

وَإِنْ حَدِيثًا مِنْكَ، لَوْ تَبَدَّلْتَنِي، ... جَنَى النَحْلِ فِي أَلْبَانِ عَوْدٍ مَطْفِلٍ.

قال: فيينا هو كذلك إذ حك بالسوط على ثنيته، فرأيت، والله، يا ابن أبي ربيعة ظل السوط بينهما، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط فقلت: مه! فقال: ولم؟ قلت: إني أخاف أن تكسرهما، فإلهما رقيقتان. قال: هما عذبتان، ثم رفع عقيرته فجعل يغني:

إِذَا قَبِلَ الْإِنْسَانُ آخَرَ يَشْتَهِي ... ثَنَائُهُ لَمْ يَأْتُمْ وَكَانَ لَهُ أَجْرًا.

فإن زادَ زادَ اللهُ في حَسَنَاتِهِ ... مَثَاقِيلَ يَمْحُو اللهُ عَنْهُ بِهَا الْوِزْرَا.

ثم قال لي: ما هذا الذي تعلق في سرجك؟ قلت: شراب أهداه إلي بعض أهلط، فهل لك فيه؟ قال: وما أكرهه. فأتيته به فوضعه بيني وبينه، فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة، قد أضلت ولداً، أو ذعرها قانص، فعلم أين نظري، فرفع عقيرته يغني:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا.

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهٍ، ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانَا.

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال: وقع رجل منا باليمامة وأنشدني، ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسي، فرجعت وقد جر العمامة عن رأسه، وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش، فقلت: سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك! قال: كيف قلت ذاك؟ قلت: مما راعني من نورك وبهرني من جمالك. قال: وما الذي يروحك من زرق الدواب وحبيس التراب، ثم لا تدري أينعم بعد ذلك أم ييأس.

ثم قال إلى فرسه، فلما أقبل برقت لي بارقة الدرع، فإذا ثدي كأنه حق. قلت: نشدتك الله امرأة؟ قال: إي، والله، امرأة تكره العهر، وتحب الغزل. قلت: والله وإنا كذلك. قال: فجلست تحدثني، ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكرًا، واستحسننت والله، يا ابن أبي ربيعة الغدر، وزين في عيني، ثم إن الله، عز وجل، عصمني بمنه، فجلست منها حجرة، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فالثت عمامتها برأسها، وأخذت الرمح، وجالت في متن فرسها، فقلت: أما تزوديني منك زاداً؟ فأعطيتني ثيابها، فشمت منها كالنبات الممطور، ثم قلت: أين الموعد؟ فقالت: إن لي أخوة شرسين، وأباً غيوراً، والله لأن أسرك أحب إلي من أن أضرك. قال: ثم مضت، فكان آخر العهد بها إلى يومي هذا فهي، والله، التي بلغت بي ما تراه من هذا المبلغ، وأحلتني هذا المحل.

قال قلت: وأنت والله يا أبا مسهر ما استحسن الغدر إلا بك، فإذا قد اخضلت لحيته بدموعه. قال قلت: والله ما قلت لك ذلك إلا مازحاً، وداخلتني له رقة، فلما انقضى الموسم، شددت على ناقتي، وشد على ناقته، وحملت غلاماً لي على بعير، وحملت عليه قبة آدم خضراء كانت لأبي ربيعة، وأخذت معي ألف دينار ومطرف خز، ثم خرجت حتى أتينا كلباً، فإذا الشيخ في نادي قومه، فأتيته، فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ قلت: عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. قال: المعروف غير المجهول، فما الذي جاء بك؟ فقلت: جئت خاطباً. قال: أنت الكفو لا يرغب عن حسبه، والرجل لا يرد عن حاجته.

قال قلت: إني لم آتُك في نفسي، وإن كنت موضع الرغبة، ولكت أتيتكم لابن أختكم العذري.

قال: والله إنه لكفيء الحسب الكريم المنصب، غير أن بناقي لم يقعن إلا في الحي من قريش.

قال: فعرف الجزع من ذلك في وجهي، فقال: أما إني لم أصنع بك شيئاً لم أصنعه بغيرك، أخيرها ما اختارت.

قال قلت له: والله ما أنصفتني. قال: وكيف ذاك؟ قال: كنت تختار لغيري، ووليت الخيار لي غيرك.

فأوماً إلي صاحبي أن دعه يخيرها. قلت: خيرها.

فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا، فارتأي رأيك. قال: فأرسلت إليه: ما كنت أستبد برأي دون القرشي، أما الخيار فخيار ما اختار.

قال: قد صيرت الأمر إليك. فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه، وقلت: قد زوجته الجعد بن مهجع، وأصدقته هذه الألف دينار وجعلت تكرمتهما العبد والقبعة، وكسوت الشيخ المطرف، فقبله وسر به، وسألته أن يبيني بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك، وضربت القبعة وسط الحي وأهديت إليه ليلاً وبنت عند الشيخ خير مبيت. فلما أصبحت غدوت، فقامت بباب القبعة، فخرج إلي وقد تبين الجذل في وجهه. قال: فقلت له: كيف كنت بعدي، وكيف هي بعدك؟ فقال: أبدت لي كثيراً مما أخفت يوم رأيته. فقلت: ما حملك على ذلك؟ فأنشأ يقول:

كُتِمَ الهَوَىٰ إني رأيتك جازعاً... فقلتُ فتى بعض الصديق يُريدُ.

وإن تطرحني أو تقول: فتية... يُضِرُّ بها برح الهوى فتعود.
 فوريت عما بي وفي الكبد الحشا... من الوجد برح، فاعلمن، شديد.
 قال فقلت: أقم على أهلك، بارك الله لك! وانطلقت إلى أهلي، وأنا أقول:
 كفيت أخي العذري ما كان نابه... ومثلي لأثقال التائب أحمل.
 أما استحسنست مني المكارم والعلى،... إذا أطرحت، أني أقول وأفعل.^١

لروعات الحب نيران

قال أعرابي : اشرحوا الرأي عند الهوى، وافطموا النفوس عند الصبي، ولقد تصدعت
 كبدي للعاشقين من لوم العاذلين، ولروعات الحب نيران على أكبادهم مع دموع على الغواين
 كغروب السواني.^٢

أيهما أصدق عشقاً

قال رجل من بني عامر بن لؤي ما رأيت بالحجاز أعلم منه: حدثني كثير أنه وقف على
 جماعة يفيضون فيه وفي جميل، وفي أيهما أصدق عشقاً، ولم يكونوا يعرفونه بوجهه، ففضلوا
 جميلاً في عشقه، فقلت لهم: ظلمتم كثيراً، كيف يكون جميل أصدق عشقاً من كثير، ولما أتاه
 عن بشينة بعض ما يكره قال:

^١ التذكرة الحمدونية ٢٠٣/٦، مصارع العشاق ٩٢/١، العقد الفريد ١٥١/٨ ط دار الكتب العلمية - بيروت

^٢ مصارع العشاق ١٠٠/١

رَمَى اللهُ فِي عَيْنِي بُشِينَةً بِالْقَدَى، ... وَفِي الْغُرِّ مِنْ أَنْيَاهَا بِالْقَوَادِحِ.

وَالْقَوَادِحِ مَا بَنْقَبُهَا وَيَعْيِيهَا، وَكَثِيرٌ أَتَاهُ عَنْ عِزَّةٍ مَا يَكْرَهُ فَقَالَ:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مَخَامِرٍ ... لَعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ.

قال: فما انصرفوا إلا على تفضيلي.^١

عمر الوادي والراعي

أخبرنا أبو بكر الأردستاني بمكة قال: حدثنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا يوسف بن عمر الزاهد قال: حدثنا جعفر بن محمد بن نصير قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثنا مؤمل بن طلوت قال: حدثنا مكي بن العذري قال: سمعت عمر الوادي قال: بينا أنا أسير بين العرج والسقيا إذ سمعت رجلاً يتغنى بيتين لم أسمع بمثلهما قط، وهما:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدَى بِأَرْضِهَا ... أَرَى الْأَرْضَ تُطَوِّى لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا.

مِنَ الْحَفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا ... إِذَا مَا انْقَضَتْ أُحْدُوْتُهُ لَوْ تَعِيدُهَا.

قال: فكدت أسقط عن راحلتي طرباً، فسمت ستمته، فإذا هو راعي غنم، فسألته إعادته، فقال: والله لو حضرني قرى أقرية ما أعدته، ولكني أجعله قراك الليلة، فإني ربما تغنيت بهما وأنا غرثان فأشبع، وظمان فأروى، ومستوحش فأنس، وكسلان فأنشط، فاستعدته إياهما، فأعادهما حتى أخذتهما، فما كان زادي حتى وردت المدينة غيرهما.^٢

^١ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص ٢٥٧، مصارع العشاق ١٠١/١

^٢ مصارع العشاق ١٠٣/١

من شهداء الهوى

كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَتًى مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ مِنْ وَلَدِ سَعِيدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى قَبِيلَةِ
لَبْعَضِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ طَرِيفًا ظَرِيفًا، وَكَانَتْ الْجَارِيَةُ تُحِبُّهُ وَلَا يَعْلَمُ بِحُبِّهَا، فَأَرَادَ يَوْمًا أَنْ يَشْكُو
ذَلِكَ، فَقَالَ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ: امْضُ بِنَا إِلَى فُلَانَةٍ، وَانْطَلِقَا فَدْخُلَا إِلَيْهَا وَتَوَافَى فَتَيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ
وَالْأَنْصَارِ، فَلَمَّا جَلَسَتْ مَجْلِسَهَا وَاحْتَجَرَتْ بِمَزْهَرِهَا، قَالَ الْأُمَوِيُّ تُغْنِينِ:

أَحْبَبَكُمْ حُبًّا بِكُلِّ جَوَارِحِي ... فَهَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِمَا لَكُمْ عِنْدِي

وَتَجْزُونَ بِالْوَدِّ الْمَضَاعِفِ مِثْلَهُ ... فَإِنَّ الْكَرِيمَ مِنْ جَزَى الْوَدِّ بِالْوَدِّ

قَالَتْ نَعَمْ، وَأَحْسَنَ مِنْهُ، وَغَنَتْ:

لَلَّذِي وَدَّنَا الْمَوَدَّةَ بِالضَّعِّ ... فَ وَفَضْلَ الْبَادِي بِهِ لَا يُجَازَى

لَوْ بَدَأَ بِنَا لَكُمْ مَلَأَ الْأَرْضَ ... ضِ وَأَقْطَارَ شَامِيهَا وَالْحِجَارَا

فَعَجِبَ الْقَوْمُ مِنْ سُرْعَتِهِ مَعَ شُغْلِ قَلْبِهِ، وَمِنْ ذَهْنِهَا وَحَسَنِ جَوَابِهَا فَازْدَادَ بِهَا كَلْفًا،
وَصَرَحَ عَمَّا فِي قَلْبِهِ فَقَالَ:

أَنْتِ عُنْدَ الْفَتَى إِذَا هَتَكَ السَّتَّ ... رِ وَإِنْ كَانَ يُوسِفَ الْمَعْصُومَا

مِنْ يَقُمْ فِي هَوَاكِ يَقْصُرُ عَنِ اللَّوِّ ... مِ وَإِمَّا زَالَ كَانَ مَلُومَا

وَبَلَغَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ عَلَى الْمَدِينَةِ خَبَرَهَا، فَاشْتَرَاهَا بِعَشْرِ حَدَاقٍ وَوَهَبَهَا لَهُ وَمَا يُصْلِحُهَا، فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ حَوْلًا ثُمَّ مَاتَتْ فَرثَاهَا، فَقَالَ:

قَدْ تَمْنَيْتُ جَنَّةَ الْخُلْدِ بِالْجَهِّ ... دَفُدْ خُلَّتْهَا بِلَا اسْتِثْهَالٍ

ثُمَّ أَخْرَجْتُ إِذْ تَطَعَمْتُ بِالنَّعِّ ... مِمَّا مِنْهَا وَالْمَوْتُ أَحْمَدُ حَالِي

وَكُرِّرْ هَذَا الشَّعْرَ مَرَارًا وَقَضَى، فَدُفِنَا مَعًا، فَقَالَ أَشْعَبُ: هَذَا شَهِيدَا الْهَوَى انْخَرُوا

عَلَى قَبْرِهِ سَبْعِينَ نَحْرَةً كَمَا كَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرِ حَمْزَةَ سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً.

قَالَ: وَبَلَغَ أَبَا حَازِمٍ فَقَالَ: لَوْ مُحِبٌّ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَبْلُغُ فِي الْحَبِّ هَذَا الْمَبْلُغَ فَهُوَ وَلِيِّ^١.

قتيل المهجران

قال عبد الرحمن الصوفي يقول: كنت ببغداد في سوق النحاسين، فرأيت قوماً مجتمعين، فدنوت منهم، فرأيت شاباً مصروعاً مغشياً عليه، فقلت لواحد منهم: ما الذي أصابه؟ فقال: سمع آية من كتاب الله، عز وجل، فقلت: أية آية كانت؟ فقال: قوله، عز وجل: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟ قال: فلما سمع أفاق، وأنشأ يقول:

أَلَمْ يَأْنِ لِلْمُهْجَرَانِ أَنْ يَتَصَرَّمَا ... وَلِلْغُصْنِ غُصْنِ الْبَانِ، أَنْ يَتَبَسَّمَا.

^١ المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي ص ١٥٢ ط دار الكتب العلمية

وللعاشقِ الصَّبَّ الذي ذابَ وانحنى، ... أما آنَ أن يُنكي عليه وَيُرَحِّمًا.
كَتَبْتُ بِمَاءِ الشَّوْقِ، بَيْنَ جَوَانِحِي، ... كِتَابًا حَكَى نَقْشَ الوُشَاةِ مُنَمِّمًا.^١

حديث عاشقين

قال الحسن بن عليل العتري : رأيت عاشقين اجتماعا، فجعلا يتحدثان من أول الليل إلى الغداة.^٢

غريقا الهوى

قال عبد الرحمن بن إسحاق القاضي: انحدرت من سر من رأى مع محمد بن إبراهيم أخي إسحاق، ودجلة تزخر من كثرة مائها. فلما أن سرنا ساعة قال: ارفق بنا، ثم دعا بطعامه، فأكلنا، ثم قال: ما ترى في النبذ؟ قلت له: أعزك الله أيها الأمر، هذه دجلة قد جاءت بمد عظيم يرعب مثله، وبينك وبين منزلك مبيت ليلة، فول شئت آخرته. قال: لا بد لي من الشرب فضربت ستارة، واندفعت مغنية تغني، واندفعت أخرى فغنت:

يَا رَحِمًا لِلْعَاشِقِينَ ... مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ مُعِينًا.

كَمْ يُشْتَمُونَ وَيُضْرَبُونَ ... نَ وَيُهَجَرُونَ فَيَصْبِرُونَ.

^١ مصارع العشاق ١٠٩/١

^٢ مصارع العشاق ١١٢/١

فقلت لها المغنية الأولى: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا، فرفعت الستارة، وقذفت بنفسها في دجلة، وكان بين يدي محمد غلام ذكر أنه شراه بألف دينار، ويبيده مذبة، لم أر أحسن منه، فوضع المذبة، وقذف بنفسه في دجلة، وهو يقول:

أَنْتَ الَّتِي غَرَّقْتَنِي ... بَعْدَ الْقَضَا لَوْ تَعْلَمِينَ.

فأراد الملاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما، فصاح بهم محمد: دعوها يغرقا إلى لعنة الله! قال: فرأيتهما، وقد خرجا من الماء متعاقبين ثم غرقا.^١

لم يفتها جواره ميتاً

قال أبو غلاب: كان بدمار فتى من حمير، من أهل بيت شرف يقال له: زرعة بن رقيم، وكان جميلاً شاعراً لا تراه امرأة إلا صبت إليه، وكان في ظهر دمار رجل شيخ كثير المال، وكانت له بنت تسمى مفداة، بارعة الجمال، حسيصة اللب، ذات لسان مصلق، تفحم البليغ، وتخرس المنطيق، وكان زرعة يتحدث إليها في فتية من الحي، وكان ممن يتحدث إليها فتى من قومها يقال له حبي، ذو جمال وعفاف وحياء، فكانت تركز إلى حديه، وتشمئز من زرعة لرهقه، فساء ذلك زرعة وأحزنه، فاجتمعا ذات يوم عندها فرأى إعراضها عنه وإقبالها على حبي، فقال:

صُدُوْدٌ وَإِعْرَاضٌ وَإِظْهَارُ بَغْضَةٍ ... غَلَامٌ وَلَمْ يَأْبِتْ آلَ الْعُدَاةِ؟.

فقلت:

عَلَى غَيْرِ مَا شَرٌّ، وَلَكِنَّكَ أَمْرٌ ... عُرِفَتْ بِغَلِ الْمَوَسَّاتِ الْعَوَاهِرِ.

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ١٩٥/٢، مصارع العشاق ١١٤/١

فقال حيي:

جَمَالُكَ يَا زَرْعَ بَنِ ارْقَمَ إِنَّمَا ... تُنَاجِي الْقُلُوبَ بِالْعَيُونِ النَّوَظِرِ.

فقال زَرَعَةُ:

فإِنْ يَلُكُ مَا خَسَّ حَظِّي لِأَنِّي ... أَصَابَنِي فَتُصِيبُنِي عَيُونُ الْقَصَائِرِ.

وإِنِّي كَرِيمٌ لَا أَزْنَ بَرِيَّةٍ ... وَلَا يَعْتَرِي ثَوْبِي رَيْنُ الْمَعَايِرِ.

فقالت المفداة:

كَذَاكَ فَكُنْ، يَسْلَمُ لَكَ الْعِرْضُ، إِنَّهُ ... جَمَالُ امْرِئٍ أَنْ يَرْتَدِّي عِرْضَ طَاهِرِ.

فقال حيي:

حَيَاءُ كَمَا لَا نَعْصِيَاهُ، فَإِنَّمَا ... يَكُونُ الْحَيَاءُ مِنْ تَوَقِّي الْمَعَايِرِ.

فانصرفت زرعة وقد خامره من حبها ما غلب على عقله، فغير أياماً عنها، وامتنع من الطعام والشراب والقرار، وأنشأ يقول:

يَا بُغِيَّةً أَهَدْتُ إِلَى الْقَلْبِ لَوْعَةً ... لَقَدْ خُبَيْتُ لِي مِنْكَ إِحْدَى الدَّهَارِسِ.

وما كنت أدري والبلايا مُظِلَّةٌ ... بَأَنَّ حِمَامِي تَحْتَ لِحْظِ مُخَالِسِ.

جَلَسْتُ عَلَى مَكْتُوبَةِ الْقَلْبِ طَائِعاً، ... فَيَا طَوَّعَ مَحْبُوسٍ لِأَعْنَفِ حَابِسِ.

فشاع هذا الشعر في الحى وبلغ المفداة، فاحتجبت عنه، وامتنعت من محادثة الرجال، فامتنع من الحركة والطعام، فغبر على ذلك حول، ومات عظيم من عظماء القبائل فبرز مأتم النساء، فبلغ زرعة أن المفداة في المأتم، فاحتمل حتى تنأى نشراً، واجتمع إليه لذاته يفندون رأيه ويعذلونه، فأنشأ يقول:

لَمْ يُلَمَّ فِي الْوَفَاءِ مَنْ كَتَمَ الْ... حُبَّ وَأَغْضَى عَلَى فَوَادٍ لَهَيْدٍ.

صَابَنَا ذَاكَ لِاسْمٍ مِنْ جَلَبِ السَّ... مَ عَلَيْهِ وَنَفْسُهُ فِي الْوَرِيدِ.

ثم شهق، فمات، وتصايح أصحابه ونساؤهن وبلغ المفداة خبره، فقامت نحوه حتى وقفت عليه، وقد تعفر وجهه، وأهله ينضحونه بالماء، فهمت أن تلقي نفسها عليه، ثم تماسكت، وبادرت خبائها، فسقطت تائهة العقل، تكلم فلا تجيب، سحابة يومها، فلما جنَّ عليها الليل رفعت عقيرتها فقالت:

بِنَفْسِي يَا زَرْعَ بْنَ أَرْقَمَ لَوْعَةً... طَوَيْتُ عَلَيْهَا الْقَلْبَ وَالسَّرَّ كَاتِمٌ.

لَئِنْ لَمْ أُمْتُ حُزْناً عَلَيْهِ فَإِنِّي... لِأَلَامُ مَنْ نِيطَتْ عَلَيْهِ التَّمَائِمُ.

لَئِنْ فُتِنِي حَيًّا فَلَيْسَ بِفَائِي... جَوَارِكُ مَيْتًا حَيْثُ تُبْلَى الرَّمَائِمُ.

ثم تنفست نفساً نبه من حولها فإذا هي ميتة فدفنت إلى جنبه.

وقالت امرأة من حمير أشبلت على ولدها بعد زوجها:

وَفَيْتُ لَابْنَ مَالِكِ بْنِ أَرْطَاهُ... كَمَا وَفَتْ لَزَرْعَةِ الْمُفَدَّاهِ.

والله لا خِستُ بهِ أو ألقاه... حَيْثُ يُلَاقِي وَامِقٌ مِنْ يَهْوَاهِ.

من مَمْتَطٍ، نَاحِيَةٍ، شَمَرْدَاه ... وَعَاثِرٍ قَدْ خَذَلْتَهُ رِجْلَاهُ.

تريد قول الجاهلية: إن الناس يحشرون ركبناً على البلايا، ومشاةً إن لم تعقر مطاياهم على قبورهم، وهذا شيء كان من فعل الجاهلية.^١

يزيد يموت حزناً على حباية

لما مات عمر بن عبد العزيز قال يزيد: والله ما عمر بأحوج إلى الله مني.

قال: فأقام أربعين ليلةً يسير بسيرة عمر، فقالت حباية لخصي له كان صاحب أمره: ويحك قم بي حيث يسمع كلامي ولك علي عشرة آلاف درهم، فلما مر يزيد بها قالت:

بَكَيْتُ الصَّبِيَّ جَهْلًا فَمَنْ شَاءَ لَامَنِي ... وَمَنْ شَاءَ آسَى فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا.

أَلَا لَا تَلْمَهُ الْيَوْمَ أَنْ يَتَلَبَّدَا ... فَقَدْ مَنَعَ الْمَحْزُونُ أَنْ يَتَجَلَّدَا.

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِي ... وَإِنْ لَمْ فِيهِ ذُو الشَّتَانِ وَقَدْ دَا.

إِذَا كُنْتَ عَزْهَاءً عَنِ اللَّهْوِ وَالصَّبِيِّ ... فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَمَدَا.

قال أبو موسى: وهذا الشعر للأحوص، فلما سمعها قال للخصي: ويحك! قل لصاحب الشرط يصلي بالناس. وقال يوماً: والله إنني لأستحيي أن أدخلوا بها، ولا أرى أحداً غيرها، وأمر ببستان، وأمر بحاجبه أن لا يعلمه بأحد.

^١ مصارع العشاق ١١٧/١

قال: فبينما هو معها أسر الناس بها، إذ حذفها بحبة رمان، أو بعنبة، وهي تضحك، فوقع في فيها فشرقت فماتت، فأقامت عنده في البيت حتى جيفت، أو طادت تجيف، ثم خرج فدفنها، وأقام أياماً، ثم خرجن وهليه الهم بادياً، حتى وقف على قبرها فقال:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبي ... فبالئأس أسلو عنك لا بالتجلد.

وكل خليل لامتني فهو قائل ... من أجلك هذا هامة اليوم أو غد.

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه.^١

الفرزدق والبدوية الحسنة

عن الفرزدق، قال: أبق غلام لرجل من نشهل فخرجت في طلبه أريد اليمامة، وأنا على ناقّة لي عيساء، فلما صرت على ماء لبني حنيفة ارتفعت سحابة فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها، فعدلت إلى بعض ديارهم، فسألتهم القرى، فأجابوا، فأنخت ناقتي، وجلست تحت بيت لهم من جريد النخل، وفي الدار جويرية سوداء، وفتاة كأنها فلقة قمر، فسألت السوداء: لمن هذه العيساء؟ فأشارت إلي وقالت: لضيفكم هذا. فعدلت إلي فسلمت، وقالت: ممن الرجل؟ قلت: من بني تميم. قالت: من أيهم؟ قلت: من بني هثمل. قالت: فأنت الذين يقول لكم الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بني لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول.

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ٦٠/٥، مصارع العشاق ١١٩/١

يَبْتُ زَرَارَةً مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ ... وَمُجَاشِعٍ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ.

قلت: نعم. قال: فضحكت، وقالت: فإن جريراً هدم عليه بيته حيث يقول:

أَحْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعاً ... وَأَحَلَّ يَبْتُكَ بِالْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ.

قال: فأعجبني، فلما رأت ذلك في عيني قالت: أين تؤم؟ قلت: الإمامة. فتنفست الصعداء ثم قالت:

تَذَكَّرْتُ الْيَمَامَةَ، إِنَّ ذِكْرِي ... بِهَا أَهْلَ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَامَةِ.

أَلَا فَسَقَى الْمَلِيكَ أَحَشَّ جَوْنًا ... يَجُودُ بِسَحِّهِ تِلْكَ الْيَمَامَةُ.

أَحْيِي بِالسَّلَامِ أَبَا نَجِيدٍ، ... وَأَهْلُ لِلتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامَةِ.

قالت: فأنست بها، فقلت: أذات خدين أنت أم ذات بعلٍ؟ فقالت:

إِذَا رَقَدَ النَّيَامُ فَإِنَّ عَمْرًا ... هُوَ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ الْمُسْتَنِيرُ.

وما لي في التَّبَعْلِ مِنْ مِرَاحٍ ... وَلَوْ رَدَّ التَّبَعْلُ لِي أُسِيرُ.

ثم سكت كأنها تسمع كلامي فأنشأت تقول:

تَخَيَّلْ لِي، أبا كعب بن عمرو، ... بِأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ.

فإن يك هكذا، يا عمرو، إني ... مُبَكَّرَةٌ عَلَيْكَ إِلَى الْقُبُورِ.

ثم شهقت شهقةً فماتت. فقليل لي: هي عقيلة بنت النجاد بن النعمان بن المنذر، وسألت عن عمرو فقليل لي: ابن عمها، وكان مغرمًا بها، وهي كذلك، فدخلت اليمامة، فسألت عن عمرو، فإذا به قد مات في ذلك اليوم من ذلك الوقت.^١

العشق شغل قلب فارغ

عن أبي العيناء قال: حدثنا ابن عائشة قال: قلت لطبيبٍ كان موصوفًا بالحذق: ما العشق؟ قال: شغل قلب فارغ.

وأنشد لبعضهم:

وَقَاتِلَةٌ جَدَّدَ لِعَيْنَيْكَ نَظْرَةً ... تُسَكِّنُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ الْوَجْدِ.

فقلتُ لها: يَكْفِيكَ مَا بِي مِنَ الْهَوَى ... تُرِيدِينَ أَنْ أَزْدَادَ جُهْدًا عَلَى جُهْدٍ.^٢

الحب أعظم من الجنون

لما حولط قيس بن الملوح وزال عقله وامتنع من الأكل والشرب صارت أمه إلى ليلى فقالت لها: إن ابني جن من أجلك، وذهب حبك بعقله، وقد امتنع من الطعام والشراب، فإن رأيت أن تصيري معي إليه فلعله، إذا رآك، يسكن بعض ما يجده. فقالت لها: أما نهاراً فما يمكنني ذلك، وإن علم أهل الماء لم آمنهم على نفسي، ولكن سأصير إليه في الليل. فلما كان

^١ أخبار النساء ص ١٤٠ ط دار مكتبة الحياة ، الأغاني ٨: ٤٣ - ٤٥ ، التذكرة الحمدونية ٦/ ١٥٩ ط دار صادر

^٢ مصارع العشاق ١/ ١٢٤

الليل صارت إليه، وهو مطرق يهذي، فقالت له: يا قيس! إن أملك ترعم أنك جنتت على رأسي، وأصابتك ما أصابتك؟ قال: فرفع رأسه فنظر إليها وتنفس الصعداء، وأنشأ يقول:

قَالَتُ جُنُتَ عَلَى رَأْسِي، فَقُلْتُ لَهَا: ... الْحُبُّ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ.

الْحُبُّ لَيْسَ يُفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ، ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ.^١

كثير على قبر عزة

خرج كثير يريد عبد العزيز بن مروان فأكرمه، ورفع منزلته، وأحسن جائزته، وقال: سلني ما شئت من الحوائج! قال: نعم، أحب أن تنظر لي من يعرف قبر عزة، فيوقني عليه. فقال رجل من القوم: إني لعارف به. فوثب كثير فقال لعبد العزيز: هي حاجتي أصلحك الله. فانطلق به الرحيل حتى انتهى به إلى موضع قبرها فوضع يده عليه، ودمعه يجري، وهو يقول:

وَقَفْتُ عَلَى رِيعِ لِعَزَّةَ نَاقَتِي، ... وَفِي الْبُرْدِ رَشَاشٌ مِنَ الدَّمْعِ يَسْفَحُ.

فَيَا عَزَّ أَنْتِ الْبَدْرُ قَدْ حَالَ دُونَهُ ... رَجِيعُ التَّرَابِ وَالصَّفِيحُ الْمَضْرَحُ.

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي مِنْ فِرَاقِكَ حِقْبَةً ... فَأَنْتِ لَعَمْرِي الْيَوْمَ أَنْأَى وَأَنْزَحُ.

فَهَلَّا فَدَاكَ الْمَوْتُ مَنْ أَنْتِ زَيْنُهُ، ... وَمَنْ هُوَ أَسْوَأُ مِنْكَ حَالاً وَأَقْبَحُ.

أَلَا لَا أَرَى بَعْدَ ابْنَةِ النَّضْرِ لَذَّةً ... لِشَيْءٍ، وَلَا مِلْحاً لِمَنْ يَتَمَلَّحُ.

^١ مصارع العشاق ١ / ١٢٦

فلا زال وادي رمسٍ عَزَّةً سائلاً ... بِهِ نِعْمَةٌ من رَحْمَةِ الله تَسْفَحُ.
 فإنَّ التي أَحَبَّتْ قد حالَ دَوْنَهَا ... طَوَالَ اللَّيالي وَالضَّرِيحُ المَصْفَحُ.
 أربَّ بَعِينِي البُكا، كُلَّ لَيْلَةٍ، ... فَقَدْ كَادَ مَجْرَى دمع عيني يَقْرَحُ.
 إذا لم يَكُنْ ماءٌ تَحْلِبُنَا دَمًا، ... وَشُرُّ البِكا المِسْتَعَاذُ المَنْحُ.^١

مات علي قبر حبيته

عن الأصمعي عن جبر بن حبيب قال: أقبلت من مكة أريد اليمامة فترلت بحي من عامر، فأكرموا مثواي، فإذا فتى حسن الهيئة قد جاعني، فسلم علي، فقال: أين يريد الراكب؟ قلت: اليمامة. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من مكة. فجلس إلي، فحدثني أحسن الحديث ثم قال لي: أتأذن في صحبتك إلى اليمامة؟ قلت: أحب خير مصحوب، فقام، فما لبث أن جاء بناقة كأنها قلعة بيضاء، وعليها أداة حسنة، فأناحها قريباً من مبتي، وتوسد ذراعها، فلما هممت بالرحيل أيقظته فكأنه لم يكن نائماً، فقام فأصلح رحله فركب وركبت، فقصر علي يومي بصحبته، وسهلت علي وعوث سفري، فلما رأينا بياض قصور اليمامة تمثل:

وأَعْرَضَتِ اليمامةُ واشْمَخَرَتْ ... كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي مُصَلِّتِينَ.

وهو في ذلك كله لا ينشدين إلا بيتاً معجباً في الهوى، فلما قربنا من اليمامة مال عن الطريق إلى أبيات قريبة منا، فقلت له: لعلك تحاول حاجة في هذه الأبيات؟ قال: أجل! قلت:

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥ / ١٢١، مصارع العشاق ١ / ١٢٦

انطلق راشداً. فقال: هل أنت موفٍ حق الصحبة؟ قلت: أفعل. قال: مل معي! فملت معه، فلما رآه أهل الصرم ابتدروه، وإذا فتیان لهم شارةٌ، فأناخوا بنا وعقلوا ناقتینا، وأظهروا السرور، وأكثروا البر، ورأيتهم أشد شيء له تعظيماً، ثم قال: قوموا إن شئتم، فقام، وقمت لقيامه، حتى إذا صرنا إلى قبرٍ حديث التطيين ألقى نفسه عليه، وأنشأ يقول:

لئن منعوني في حياتي زيارةً ... أحامي بها نفساً تملكها الحبُّ.

فلن يمنعوني أن أجاورَ لحدها ... فيجمعَ جسمينَا التجاورُ والترُّبُ.

ثم أن أنات، فمات. فأقمت مع الفتیان حتى احتفروا له ودفناه. فسألت عنه، فقالوا: ابن سيد هذا الحي، وهذه ابنة عمه، وهي إحدى نساء قومه، وكان بها مغرمًا، فماتت منذ ثلاث، فأقبل إليها وقد رأيت ما آل إليه أمره. فركبت وكأني والله قد ثكلت حميمًا.^١

تعلل ساعة

قال سليمان بن عياش السعدي: حدثني أبي قال: سرت في بلاد بني عقيل أطلب ضالةً لي، فرأيت فتاةً تدافع في مشيتها كندافع الفرس السابق المختال. قال: فأسرعت المشي في إثرها، حتى أدركتها، وقد كادت تلج خباءها، فاستوقفتها، فوقفت، فجعلت أسألهما، وأكلمهما، والله ما يقع بصري على شيء منها إلا ألهاني عن غيره. قال: فصاحت بي عجوز: ما يوقفك على هذا الغزال النجدي، فوالله ما تنال منه طائلاً. فقالت لها الفتاة: دعيه يا أمتاه يكون كما قال ذو الرمة:

فإن لم يكنْ إلاَّ تعلُّلُ ساعةٍ ... قليلٌ فإن نافعٌ لي قليلُها.^١

^١ مصارع العشاق ١ / ١٢٩

أبو دهب والمرأة الشامية

قال إبراهيم بن أبي عبد الله: خرج أبو دهب الجمحي يريد الغزو وكان رجلاً جميلاً صالحاً، فلما كان يجيرون جاعته امرأة فأعطته كتاباً، فقالت له: اقرأ هذا! فقرأ لها، ثم ذهبت، فدخلت قصرًا، ثم خرجت إليه، فقالت له: لو بلغت معي إلى هذا القصر فقرأت الكتاب على امرأة فيه كان لك أجر، إن شاء الله. فبلغ امعها القصر، فلما دخل، إذا فيه حوار كثيرة، فأغلقن عليه باب القصر، فإذا امرأة جميلة قد أتته فدعته إلى نفسها، فأبى، فأمرت به فحبس في بيت من القصر، وأطعم وسقي قليلاً قليلاً حتى ضعف وكاد يموت، ثم دعت به إلى نفسها، فقال: أما في الحرام فلا يكون ذلك أبداً، ولكن أتزوجك. قالت: نعم! فتزوجها، وأمرت به فاحسن إليه حتى رجعت نفسه إليه، فأقام معها زماناً طويلاً لم تدعه يخرج من القصر، حتى يئس منه أهله وولده، وزوج أولاده بناته واقتسموا ميراثه.

وأقامت زوجته تبكي، ولم تقاسمهم ماله، ولا أخذت من ميراثه شيئاً، وجاءها الخطاب، فأبت وأقامت على الحزن والبكاء عليه، قال: فقال أبو دهب لامرأته يوماً: إنك قد أثمت فيّ وفي ولدي، فأذني لي أن أخرج إليهم، وأرجع إليك. فأخذت عليه أيماناً ألا يقيم إلا سنةً حتى يعود إليها، وأعطته مالاً كثيراً، فخرج من عندها بذلك المال حتى قدم على أهله، فرأى زوجته وما صارت إليه من الحزن، ونظر إلى ولده ممن اقتسم ماله، وجاؤوه فقال: ما بيّني وبينكم عمل! أنتم ورثتموني وأنا حي، فهو حظكم، والله لا يشرك زوجتي أحد في ما قدمت به. وقال لزوجته: شأنك بهذا المال فهو كله لك، ولست أجهل ما كان من وفائك، وأقام معها وقال في الشامية:

صاح! حيّ الإله حيّاً ودوداً ... عند أصل القنّة من جيرون.

فبتلك اغتربت بالشّام حتى ... ظنّ أهلي مرجّحات الظّنون.

وهي زهراء مثل لؤلؤة العوّ ... ص ميزات من لؤلؤ مكنون.

وفي هذه القصيدة يقول أبو دهب:

ثمّ فارقتها على خير ما كا ... ن قرين مقارناً لقرين.

وبكت حشية التفرّق والبي ... ن بكاء الحزين نحو الحزين.

فأسألي عن تذكري واكتبي ... جلّ أهلي إذا هم عدلوني.

قال: فلما جاء الأجل أراد الخروج إليها ففاجأه موتها، فأقام.^١

أربع نسوة وأربعة غربان

قال محمد بن عبد الله الأهوازي : أخبرني بعض أهل الأدب أن بعض البصريين أخبره قال: كنا لمة نجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً، وكنا على عدد أيام عند أحدنا، فضجرنا من المقام في المنازل، فقال بعضنا: لو عزمتم فخرجنا إلى بعض البساتين، فخرجنا إلى بستان قريب منا، فبينما نحن فيه إذ سمعنا ضجّة راعتنا، فقلت للبستاني: ما هذا؟ فقال: هؤلاء نسوة لهن قصة، فقلت له أنا دون أصحابي: وما هي؟ قال: العيان أكبر من الخبر، فقم حتى أريك

^١ مصارع العشاق ١ / ١٣٦

وحدك. فقلت لأصحابي: أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود. فنهضت وحدي، فصعدت إلى موضع أشرف عليهن، وأراهن، ولا يرينني، فرأيت نسوةً أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكلهن، ومعهن خدام لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة، فلما اطمأن بمن المجلس، جاء خادم لهن، ومعه خمسة أجزاء من القرآن، فدفع إلى كل واحدةٍ منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن، فقرأن أحسن قراءة، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدةٍ منهن ربع الجزء، ثم أخرجن صورةً معهن في ثوب ديبقي فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها، ثم أخذن في النوح، فقالت الأولى:

خَلَسَ الزَّمَانُ أَعَزَّ مُحْتَلَسٍ، ... وَيَدُ الزَّمَانِ كَثِيرَةُ الْخَلَسِ.

لِلَّهِ هَالِكَةٌ فُجِعَتْ بِهَا، ... مَا كَانَ أَبْعَدَهَا مِنَ الدَّنَسِ.

أَتَتْ الْبِشَارَةَ وَالنَّعْيُ بِهَا، ... يَا قُرْبَ مَاتِمِهَا مِنَ الْعُرْسِ.

ثم قالت الثانية:

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِأَنْسِ نَفْسِي عَنَوَةً، ... وَبَقِيَتْ فَرْدًا لَيْسَ لِي مِنْ مُؤْنِسِ.

أُودَى بِمَلِكٍ وَلَوْ تُفَادَى نَفْسُهَا، ... لَفَدَيْتُهَا مِنْ أَعَزِّ بَأْنُفْسِ.

ظَلَّتْ تُكَلِّمُنِي كَلَامًا مُطْعِمًا، ... لَمْ أَسْتَرْبِ فِيهِ بِشَيْءٍ مُؤْنِسِ.

حَتَّى إِذَا فُتِرَ اللِّسَانُ وَأَصْبَحَتْ ... لِلْمَوْتِ قَدْ ذُبُلَتْ ذُبُولَ النَّرْجِسِ.

وَتَسَهَّلَتْ مِنْهَا مَحَاسِنُ وَجْهِهَا، ... وَعَلَا الْأَيْنُ تَحْتَهُ بِتَنْفَسِ.

جَعَلَ الرَّجَاءُ مَطَامِعِي يَأْسًا كَمَا ... قَطَعَ الرَّجَاءُ صَحِيفَةَ الْمُتَلَمَّسِ.

ثم قالت الثالثة:

جَرَتْ عَلَى عَهْدِهَا اللَّيَالِي، ... وَأُحْدِثَتْ بَعْدَهَا أُمُورٌ.

فَاعْتَصَتْ بِالْيَأْسِ مِنْكَ صَبْرًا، ... فَاَعْتَدَلِ الْيَأْسُ وَالسُّرُورُ.

فَلَسْتُ أَرْجُو، وَلَسْتُ أَخْشَى ... مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ الدَّهْوَرُ.

فَلْيَبْلُغِ الدَّهْرُ فِي مَسَاتِي، ... فَمَا عَسَى جُهِدُهُ يَضِيرُ.

ثم قالت الرابعة:

عَلِقَ نَفِيسٌ مِنَ الدُّنْيَا فُجِعَتْ بِهِ، ... أَفْضَى إِلَيْهِ الرَّدَى فِي حَوْمَةِ الْقَدَرِ.

وَيَحِ الْمَنَايَا أَمَّا تَنْفَلِكْ أَسْهَمُهَا ... مَعْلَقَاتِ بَصَدْرِ الْقَوْسِ وَالْوَتْرِ.

يَبْلَى الْجَدِيدَانِ، وَالْأَيَّامُ بِالْيَةِ، ... وَالدَّهْرُ يَبْلَى، وَتَبْلَى جِدَّةُ الْحَجَرِ.

ثم قمن فقلن بصوت واحد:

كُنَّا مِنَ الْمَسَاعِدِ، ... نَحْيَا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

فَمَاتَ نَصْفُ نَفْسِي ... حِينَ تَوَى فِي الرَّمْسِ.

فَمَا بَقَائِي بَعْدَهُ ... وَشَطَرُ نَفْسِي عِنْدَهُ.

فَهَلْ سَمِعْتُمْ قَبْلِي ... فِي مَنْ مَضَى بِمِثْلِي.

عَاشَ بِنَصْفِ رُوحٍ ... فِي بَدَنِ صَحِيحٍ.

ثم تنحين وقلن لبعض الخدم: كم عندك منهن؟ قال: أربعة. قلن: ائت بهن، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفة، فوضع القفص بين أيديهن، فدعون بعيدهن، فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت:

لَعَمْرِي! لقد صاحَ الغُرابُ بَيْنَهُمْ، ... فأَوْجَعَ قلبي بالحديثِ الذي يُبدي.

فقلتُ له: أفصحتَ لا طُرْتَ بعدها، ... بِرِيشٍ، فهل للقلبِ ويحكُ من رَدٍّ!

ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدري ما هي حتى قتلنهن ثم غنت:

أشأقك، والليلُ ملقي الجِرَانِ، ... غُرَابٌ يَنُوحُ على غُصْنِ بَانٍ.

أحصُ الجَنَاحَ، شديدُ الصِّيَاحِ، ... يَكِي بِعَيْنَيْنِ ما هَمَلَانِ.

وفي نَعَبَاتِ الغُرَابِ اغْتَرَابٌ، ... وفي البانِ يَنْ بَعِيدُ التَّدَانِ.

ثم أخذن الثاني فشددن في رجله خيطين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له: أتبكي بلا دمع وتفرق بين الألاف، فمن أحق بالقتل منك؟

ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه. ثم غنت الثالثة:

ألا يا غُرَابَ البينِ لوئُلكَ شاحِبٌ، ... وأنتَ بلَوَعَاتِ الفِرَاقِ حَديرُ.

فَبَيْنَ لَنَا ما قلتَ، إذ أنتَ واقعٌ، ... وَبَيْنَ لَنَا ما قلتَ حينَ تَطِيرُ.

فإنَّ يَكُ حقاً ما تقولُ، فأصَبَحْتُ ... هُمُومُكَ شَتَّى، والجَنَاحُ كَسِيرُ.

ولا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ ... كما ليس لي من ظلمي نصيرٌ.

ثم قالت له: أما الدعوة فقد استجيت، ثم كسرت جناحيه، وأمرت ففعل به ذلك، ثم غنت الرابعة:

عشيّة ما لي حيلة غير أنني ... بلقط الحصى، والخط في الدار مولعٌ.

أخط وأمحو كل ما قد خططته ... بدمعي والغربان في الدار وقعٌ.

ثم قالت لأخواتها: أي قتلة أقتله؟ فقلن لها: علقه برجليه وشدي في رأسه شيئاً ثقيلاً حتى يموت، ففعلت به ذلك، ثم وضعن عيدانهن، ودعون بالغداء، فأكلن، ودعون بالشراب، فشربن، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله، وأخذن عيدانهن فغنن، فغنت الأولى كأنها تودع به:

أبكي فراقكم عيني فأرقها، ... إن المحب على الأحباب بكاءً.

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا، وريب الدهر عداً.

ثم غنت الثانية:

أما والذي أبكى وأضحك، والذي ... أمات وأحيا، والذي أمره الأمر.

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر.

ثم غنت الثالثة:

سأبكي على ما فات منك صبايةً ... وأنذب أيام الأمانى الذواهب.

أَحِينَ دَنَا مَنْ كُنْتُ أَرْجُو دُنُوهُ ... رَمَتْنِي عُيُونُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.
فَأَصْبَحْتُ مَرْحُومًا، وَكُنْتُ مُحَسَّدًا، ... فَصَبْرًا عَلَى مَكْرُوهِهِ مَرَّ الْعَوَاقِبِ.
ثم غنت الرابعة:

سَأُفْنِي بِكَ الْيَّامَ حَتَّى يَسْرِّي ... بِكَ الدَّهْرُ، أَوْ تَفْنِي حَيَاتِي مَعَ الدَّهْرِ.
عَزَاءً وَصَبْرًا! أَسْعِدَانِي عَلَى الْهَوَى، ... وَأَحْمَدُ مَا جَرَّبْتُ عَاقِبَةُ الصَّبْرِ.

ثم أخذت الصورة فعانقتها، وبكت، وبكين، ثم شكّون إليها جميع ما كن فيه، ثم أمرن بالصورة، فطويت، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن، فرفعت رأسي إليهن فقلت: لقد ظلمتن الغربان. فقالت: لو قضيت حق السلام، وجعلته سبباً للكلام، لأخبرناك بقصة الغربان. قال قلت: إنما أخبرتك بالحق. قلن: وما الحق في هذا، وكيف ظلمناهن؟ قلت: إن الشاعر يقول:

نَعَبَ الْغُرَابُ بِرُؤْيَا الْأَحْبَابِ، ... فَلِذَاكَ صِرْتُ أُحِبُّ كُلَّ غُرَابٍ.

قالت: صحفت وأحلت المعنى، إنما قال: بفرقة الأحباب، فلذا صرت عدو كل غراب. فقتل هن: فبالذي خصكن بهذا المجلس، وبحق صاحبة الصورة، لما خبرتني بخبركن؟ قلن: لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا حقه ما أخبرناك.

كنا صواحب مجتمعات على الألفة، لا تشرب منا واحدة البارد دون صاحبته، فاحترمت صاحبة الصورة من بيننا، فنحن نصنع في كل موضع نجتمع فيه مثل الذي رأيت، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعله كانت. قلت: وما تلك العلة؟ قلن: فرق بينها وبين أنس كان لها، ففارقت الحياة، فكانت تدمهن عندنا، وتأمّر

بقتلهن، فأقل ما لها عندنا أن تتمثل ما أمرت به، ولو كان فيك شيء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان.

ثم نهضن فمضين، ورجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت، ثم طلبتهن بعد ذلك، فما وقعت لهن على خبر، ولا رأيت لهن أثراً.^١

إياس وابنة عمه صفوة

عن الهيثم بن عدي قال : أن إياس بن مرة بن مصعب القيسي كان له أخ يقال له فهر، وكانا يتزلان الحيرة، وأن فهراً ارتحل بأهله وولده، فتزل بأرض السراة، وأقام مرة بالحيرة، وكانت عند مرة امرأة من بكر بن وائل، فلبثت معه زماناً لم يرزق منها ولداً، حتى يئس من ذلك. ثم أتى في منامه، ليلة من ذلك، فقبل له: إنك إن باشرت زوجتك من ليلتك هذه رأيت سروراً وغبطةً، فانتبه، فباشرها فحملت فلم يزل مسروراً إلى أن تمت أيامها، فولدت له غلاماً، فسماه إياساً، لانه كان آيساً منه، فنشأ الغلام منشأً حسناً.

فلما ترعرع ضمه أبوه إليه، وأشركه في أمره، وكان إذا سافر أخرجه معه لقلة صبره عنه، فقال له أبوه يوماً: يا بني، قد كبرت سني، وكنت أرجوك لمثل هذا اليوم، ولي إلى عمك حاجة، فأحب أن تشخص فيها. فقال له إياس: نعم يا أبة، ولي إلى عمك حاجة، فأحب فأنا لحاجتك. فأعلمه الحاجة، فخرج متوجهاً حتى أتى عمه، فعظم سروره به وسأله عن سبب قدومه، وما الحاجة فأخبره بها، ووعدته بقضائها، فأقام عند عمه أياماً، ينتظر فيها قضاء الحاجة.

^١ التذكرة الحمدونية ٩ / ٥٦ ، مصارع العشاق ١ / ١٤١

وكان لعمه بنت يقال لها صفوة، ذات جمال وعقل، فبينما هو ذات يوم جالس بفناء دارهم، إذ بدت له صفوة زائرة بعض أخواتها وهي تهادى بين جوار لها، فنظر إليها إياس نظرة أورثت قلبه حسرة، وظل نهاره ساهياً، وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان، ينتظر الصباح، يرجو أن يكون فيه النجاح، فلما بدا له الصبح خرج في طلبها ينتظر رجوعها، فلم يلبث أن بدت له، فلما نظرت إليه تنكرت ثم مضت فأسرعت، فمر يسعى خلفها، يأمل منها نظرة، فلم يصل إليها، وفاتته فانصرف إلى منزله، وقد تضاعف عليه الحزن واشتد الوجد، فلبث أياماً، وهو على حاله، إلى أن أعقبه ذلك مرضاً أضناه وأخل جسمه، وظل صريعاً على الفراش.

فلما طال به سقمه وتخوف على نفسه بعث إلى عمه لينظر إليه ويوصيه بما يريد، فلما رآه عمه ونظر إلى ما به سبقتة العبرة إشفافاً عليه، فقال له إياس: كف، جعلت فداك يا عم، فقأفرت قلبي. فكف عن بعض بكائه، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة. فقال له: عز، والله، علي يا ابن أخي، ولن أدع حيلة في طلب الشفاء لك. فانصرف إلى منزله، وأرسل إلى مولاة له كانت ذات عقل فأوصاها به، وبالتعاهد له، والقيام عليه.

فلما دخلت المولاة عليه فتأملت علمت أن الذي به عشق، فقعدت عند رأسه، فأجرت ذكر صفوة لتستيقن ما عنده، فلما سمع ذكرها زفر زفرة، فقالت المرأة: والله ما زفر إلا من هوى داخله ولا أظنه إلا عاشقاً. فأقبلت عليه كالمازحة له فقالت له: حتى متى تبلي جسمك، فوالله ما أظن الذي بك إلا هوى. فقال لها إياس: يا أمه، لقد ظننت بي ظن سوء، فكفي عن مزاحك. فقالت: إنك والله لن تبديه إلى أحد هو أكرم له من قلبي. فلم تزل تعطيه الموائيق وتقسم عليه إلى أن قالت له: بحق صفوة فقال لها: لقد أقسمت علي بحق عظيم لو سألتني به روحي لدفعتها إليك، ثم قال: والله يا أمه ما أعظم دائي إلا بالاسم الذي أقسمت علي بحقه، فالله الله في كتمانك وطلب وجه الحيلة فيه.

فقلت: أما إذ أطلعتني عليه، فسأبلغ فيه رضاك، إن شاء الله، فسر بذلك، وأرسل معها بالسلام إلى صفوة. فلما دخلت عليها ابتدأتها صفوة بالمسألة عن الذي بلغها من مرضه وشدة حاله، فاستبشرت المولاة بذلك، ثم قالت: يا صفوة ما حالة من يبيت الليل ساهراً محزوناً يرمى النجوم ويتمنى الموت؟ فقلت صفوة: ما أظن هذا على ما ذكرت بياق، وما أسرع منه الفراق.

ثم أقبلت على المولاة فقلت: إني أريد أن أسألك عن شيء فبحقي عليك لما أوضحته. فقلت: وحقك إن عرفته لا كتمتك منه شيئاً.

قالت: فهل أرسلك إياس إلى أحد من أهل وده في حاجة؟ فقلت المولاة: والله لأصدقنك، والله ما حل دائه وعظم بلائه إلا بك، وما أرسلني بالسلام إلا إليك، فأجيبه إن شئت، أو دعي. فقلت: لا شفاه الله، والله لولا ما أوجب من حقك لأسأت إليك، وزجرتها، فخرجت من عندها كئيبة، فأتته فأعلمته فازداد على ما كان به من مرضه، وأنشأ يقول:

كتمتُ الهوى حتى إذا شبَّ واستوتَ ... فَوَاه، أشاعَ الدَّمْعُ ما كنتُ أَكْتُمُ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّمْعَ قد أعلنَ الهوى ... خَلَعْتُ عِذارِي فيه، والخَلْعُ أَسْلَمُ.

فيا وَيْحَ نفسي كيف صَبَرِي على الهوى ... وقلبي وروحي عندَ مَنْ ليسَ يَرْحُمُ.

قال: ثم إن عمه دخل عليه ليعرف خبره، فقال له: يا عم، إلي مخبرك بشيء لم أخبرك به حتى برح الخفاء ولم أطلق له محملاً، فأخبره الخبر، فزوجه فأفاق وبرأ من علته.^١

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ٩٠، مصارع العشاق ١/ ١٥٠

المأمون والعباس بن الأحنف

قال الحسن بن محمد بن إسماعيل بن موسى: رأيت في كتاب الأخبار لأبي أن المأمون لما خرج إلى خراسان كان في بعض الليل جالساً في ليلة مقمرة إذ سمع مغنياً يغني من خيمة له:

قالوا: خراسان أقصى ما تحاوله، ... ودون ذاك، فقد جزنا خراسانا.

ما أقدر الله أن يدي بعزته ... سكان دجلة من سكان جحانا.

عيناً أظن أصابتنا، فلا نظرت، ... وعذبت بصنوف الهجر ألوانا.

متى يكون الذي أرجو وأمله، ... أما الذي كنت أخشاه فقد كانا.

فخرج المأمون من موضعه حتى وقف على الخيمة، وعلمها، فلما كان من الغد وجهه فأحضر صاحب الخيمة، وهو شاب، فسأله عن اسمه، فقال العباس بن الأحنف. قال: أنت الذي كنت تقول:

متى يكون الذي أرجو وأمله، ... أما الذي كنت أخشاه فقد كانا.

قال: نعم. قال: ما شأنك؟ قال: يا أمير المؤمنين تزوجت ابنة عم لي، فنادی مناديك يوم أسبوعي في الرحيل إلى خراسان، فخرجت، فأعطاه رزق سنة، وردّه إلى بغداد، وقال: أقم إلى أن تنفقها، فإذا نفدت رجعت.

لقاء في الجنة

قال محمد بن الحسين : علق فتى من الحي بنت عم له، فخطبها إلى أبيها، فرغب بها عنه، فبلغ ذلك الجارية، فأرسلت إليه: قد بلغني حبك إياي، وقد أحبتك لذلك لا لغيره، فغن شئت خرجت إليك بغير علم أهلي، وإن شئت سهلت لك المحي. فأرسل إليها: كل ذلك لا حاجة لي فيه، إن أخاف أن يلقيني حبك في نار لا تطفأ وعذاب لا ينقطع أبداص. فلما جاءها الرسول بكت، ثم قالت: لا أراك راهباً، والله، ما أحد أولى بهذا الأمر من أحد، إن الخلق في الوعد والوعيد مشتركون.

قال: فتدعرت الشعر وأقبلت على العبادة، فكبر ذلك على أهلها وعلى أبيها، فلم تزل تتعبد حتى ماتت. فكان الفتى يأتي قبرها كل ليلة، فيدعوها لها ويستغفر وينصرف. فأخبرنا أنه رآها في المنام فقال لها: فلانة؟ قالت: نعم، ثم قالت:

نعم المحبة، يا سؤلي، محبتكم، ... حب يجر إلى خير

إلى نعيم وعيش لا زوال له، ... في جنة الخلد خلد ليس بالفاني.

قال: فقلت لها: أيتها الحبيبة، أفتذكريني هناك؟ قال: فقالت: والله إنني لأتمنأك على مولاي ومولاك، فأعني على نفسك بطاعته، فلعله يجمع بيني وبينك في داره، ثم ولت، فقتل لها: متى أراك؟ قلت: تراني قريباً إن شاء الله. قال: فلم يلبث الفتى بعد هذه الرؤيا إلا قليلاً حتى مات فدفن إلى جانبها.^١

زليخا ويوسف

^١ مصارع العشاق ١/ ١٦٠

عن عبد الصمد بن معقل عن وهب قال:

لما حلت زليخا بيوسف، عليه السلام، ارتعد يوسف. فقالت زليخا: من أي شيء ترعد، إنما جئت بك لتأكل وتشرب وتشتم رائحتي، وأشتم رائحتك. قال: يا أمة الله، لست لي بجرمة. قالت: فمن أي شيء تفزع؟ قال: من سيدي. قالت: الساعة، إذا نزل من الركوب، وأخذت بيدي الكأس المذهب والإبريق المفضض، سقيته شربةً من السم، وألقيت لحمه عن عظمه. قال لها: لا تفعلني، فلست ممن يقتل الملوك، وإنما أخاف من إله السماء. قالت له: فعندي من الذهب والفضة والجواهر والعقيق ما أفديك منه. قال: هو لا يقبل الرشا. قالت: دع عنك هذا! قم اسق أرضي. قال: لا أزرع أرض غيري. قالت: فارفع رأسك انظر إلي! قال: أخاف العمى في آخر عمري. قالت: فمازحني ترجع إلي نفسي. قال: يا أمة الله! لست لي بجرمة فأما زحك. قالت: فلا صبر لي عن هذه الذؤابة التي بلغت إلى قدميك، ليتني وسمتها مرةً واحدةً. قال: أخشى أن تحشى من قطران جهنم، يا هذه، هوذا الشيطان يعينك على فتنتي، لا تشوهي بخلق ذي الحسن الجميل، فادعى في الخلق زائناً، وفي الوحوش خائناً، وفي السماء عبداً كفوراً.

قال وهب: ولان من يوسف، عليه السلام، مقدار جناح بعوضة، فارتفعت الشهوة إلى وجهه، وفاستنارت، وكان سرواله معقوداً تسع عشرة عقدةً، فحل أول عقدة، وإذا قائل يقول من زاوية البيت: إن الله كان عليكم رقيباً! ثم حل العقدة الثانية، فإذا قائل يقول: ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. فأوحى الله، عز وجل، إلى جبريل: الحقه، فغنه المعصوم في ديوان الأنبياء! فانفرج السقف في أقل من الملح فترل جبريل، عليه السلام، فضرب صدره ضربةً، فخرجت شهوته من أطراف أنامله فنقص منه ولد، فولد لكل رجل من أولاد يعقوب، عليه السلام، اثنا عشر ولداً، ما خلا يوسف، عليه السلام، فإنه ولد له

أحد عشر. فقال: يا رب ماذا خبري؟ لم ألحق بأخوتي في الويد، فأوحى الله، عز وجل، إليه: إن الشهوة التي خرجت من أناملك حاسبناك بها.

وبإسناده قال وهب: لما أراد الله بيوسف الخير قامت زليخا إلى طاق لها، فارخت عليه سترًا، وكان لها في الطاق صنم من خشب تعبد، فقال لها يوسف، عليه السلام: ماذا صنعت؟ قالت: استحييت من إلهي أن يراني أصنع الفاحشة. قال: فأنت تستحيين من إله من خشب لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يسمع ولا يبصر، فأنا أستحيي ممن أكرم مشواي، واحسن مأواي، واستبقا الباب. قالت زليخا: يا يوسف، بليت منك بخصلتين: ما رأيت بشراً أحسن منك، والثانية زوجي عنين. فلما تزوجها يوسف، عليه السلام، فأبصر بعينها حولاً قال: يا زليخا! أو حولاء؟ قالت له: ما علمت؟ قال: لا والله! قالت: ما استحللت أن أملاً عيني منك.

قال وهب بن منبه: وكانت زليخا ممنوعة من الشقاء، وكانت أجمل من بطشابع صاحبة داود، عليه السلام.^١

حنين المغنية الحسنة إلى بغداد

قال أبو علي بن الأشكري المضري قال: كنت من جلاس تميم بن أبي أوفى، وممن يخف عليه، فبعث بي إلى بغداد، فاتبعت له هناك جارية رائعة جداً، فلما حصلت عند أقام دعوةً لجلسائه، قال: وأنا فيهم، ثم وضعت الستارة، وأمرها بالغناء ليسمع غنائها، ويحاسن الحاضرين بها، فغنت:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تآلق موهناً لمعائه.

^١ مصارع العشاق ١/ ١٦٠

يبدو كحاشية الرداء، ودونه ... صعبُ الذرى متمنّع أركأه.

فالنارُ ما اشتملت عليه ضلوعه، ... والماء ما سمحت به أجفأه.

قال: فأحسن ما شئت، وطرب تميم وكل من حضر، ثم غنت:

سَيْسِيلِكَ عَمَّا فَاتَ دَوْلَةُ مُفْضِلٍ ... أَوَائِلُهُ مَحْمُودَةٌ وَأَوَاخِرُهُ.

ثنى الله عِطْفِيهِ وَأَلْفَ شَخْصَةٍ، ... على البرِّ، مذ شُدَّتْ عليه مَآزِرُهُ.

قال: فطرب تميم ومن حضر طرباً شديداً، ثم غنت:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا ... بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ.

قال: فاشتد طرب تميم، وأفرط جداً، ثم قال لها: تمني ما شئت، فلك متمناك. فقالت:

أَتَمْنِي عَافِيَةَ الْأَمِيرِ وَبَقَاءَهُ. فقال: والله لا بد لك أن تتمني. فقالت: على الوفاء أيها الأمير بما أتمنى؟ فقال: نعم!، فقالت له: أتمنى أن أغني بهذه النوبة ببغداد. قال: فاستنقع لون تميم، وتغير وجهه، وتكدر المجلس، وقام وقمنا كلنا.

قال ابن الأشكري: فلحقني بعض خدمه، وقال لي: ارجع فالأمير يدعوك فرجعت، فوجدته جالساً ينتظرني، فسلمت وجلست، فقال: ويحك أرايت ما امتحنا به؟ قلت: نعم أيها الأمير. فقال: لا بد من الوفاء لها، وما اتق في هذا بغيرك، فتأهب لتحملها على بغداد، فإذا غنت هناك فاصرفها. فقلت: سمعاً وطاعة. قال: ثم قمت وتأهب وأمرها بالتأهب وأصحبها جاريةً سواداً تخدمها، وأمر بناقية ومحمل، فأدخلت فيهن وجعلها معين ثم دخلنا الطريق إلى مكة مع القافلة، فقضينا حجنا، ثم دخلنا في قافلة العراق، فلما وردنا القادسية،

أتني السوداء عنها، فقالت: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت لها: نحن نزول بالقادسية.
فانصرفت إليها وأخبرتها، فلم أنشب أن سمعت صوتها قد اندفع بالغناء:

لَمَّا وَرَدْنَا الْقَادِسِيَّ ... هُتَّاءُ حَيْثُ مُجْتَمَعُ الرِّفَاقِ.

وَشَمَمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَا ... زِ نَسِيمِ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ.

أَيَقَنْتُ لِي وَلَمْ أُنْجِ ... بَّ يَجْمَعُ شَمْلٍ وَاتِّفَاقِ.

وَضَحِكْتُ مِنْ فَرَحِ اللَّقَا ... هُ كَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ.

فتصايح الناس من أقطار القافلة: أعيدي بالله! فما سمع لها كلمة. قالك ثم نزلنا بالياسرية،
وبينها وبين بغداد قريب في بساتين متصلة من الناس فيبيتون ليلتهم، ثم ييكون لدخول بغداد،
فلما كان قرب الصباح، إذا أنا بالسوداء قد أتني ملهوفة. فقلت: ما لك؟ فقالت: إن سيدتي
ليست حاضرة! فقلت: وأين هي؟ قالت: والله ما أدري. قال: فلم أحس لها أثراً، فدخلت
بغداد، وقضيت حوائجي بها، وانصرفت إلى تميم فأخبرته الخبر، فعظم ذلك عليه، ثم ما زال
بعد ذلك ذاكرةً لها واجماً عليها.^١

كمون الحب في الحشا

عن الأصمعي قال: دخلت بعض أحياء العرب فإذا يقوم شحِبٌ ألوانهم، فقلت في
نفسي: إن هؤلاء قد وقعوا على داء، فأنا أخرج من بينهم.

^١ المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٦٢ ، ط دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان ،

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٧ / ٢٦٦ ، مصارع العشاق ١ / ١٧٠

قال: فذهبت لأخرج فإذا بعضهم يقول لي: إلى أين، يا أخا العرب؟ فقلت: أطلب لدائكم دواءً. فقال: ارجع، عافاك الله، فإننا قوم ليس لدائنا دواء، نحن قوم فشيت في قلوبنا محبة الله، فتغيرت ألواننا. قال الأصمعي: فأعجبيني ما سمعت لأنني ما سمعت مثله قط. قال: فرجعت إلى الحي، ولم أزل أورا فرأيت خباء شعر منفرداً عن البيوت، فقصدته، فاطلعت فيه، فإذا أنا بفتى حسن الوجه في عنقه سلسلة مشدودة سكة في الأرض، قال: فهالني ما رأيت منه، فقلت: يا فتى ما شأنك؟ فقال: يا ابن عمي! يقولون إني مجنون! فقلت: أهو كما يقولون؟ فقال لي: لا والله ما أنا بمجنون، ولكني بحب الله مفتون.

قال: قلت فصص لي الحب! فقال: إليك عني، يا أحل العرب، جل عن أن يجد، وخفي أن يرى، كمن في الحشا كمن النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، ثم صفق وأنشأ يقول:

أأنت الذي أصفيت منك مودةً ... فلائعها في ساحة القلب تُغرسُ.

وإن كان لي من فقد قلبي موحشٌ، ... فقد ظل لي من فكرتي فيك مؤنسٌ.

أناجيك بالاضمار حتى كآتني ... أراك بعيني فكرتي، حين أجلسُ.^١

لابسة السواد

قال محمد بن سماعة القرشي: آخر من مات من العشق علي بن أديم مولى الجعفي، وكان خرازاً، مر بكتاب بالكوفة في بني عبس، فرأى جارية يقال لها منهلة، فعشقتها، وكان رآها في سواد، فقال:

^١ مصارع العشاق ١ / ١٧٥

إني لِمَا يَعتَادني ... من حَبٍّ لابسَةِ السوادِ.

في فِتْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ ... ما إن يُطَيِّقها فُؤادي.

فَبَقِيْتُ لا دُنْيَا أنا ... لُ وَفَاتني طَلَبُ المَعَادِ.

قال: وأصابه عليها شبيه الجنون، فجمع أبوه التجار، فتحمل بهم على العيسية مولاة الجارية، وأعطاهما مالاً كثيراً، فأبت، فخرج الفتى إلى أم جعفر، فكتب إليها قصةً يخبرها فيها بخبره وحاله، فأمرت أن تشتري له، فبينما هو يتنحز ذلك إذ خرجت جارية من القصر فقالت: أين هذا العاشق؟ فأوماً لها إليه، فقالت: أنت عاشق وبينك وبين من تحب الجسور والمفوز والقناطر، ولا تدري ما يكون؟ قال: صدقت، وقام من مجلسه مبادراً، فاكترى بغلاً، فمات يوم دخوله الكوفة.^١

ذو الرمة ومي

ذكر ذو الرمة في مجلس فيه عدة من الأعراب، فقال عصمة بن مالك الفزاري شيخ منهم، بلغ مائة وعشرين سنة: إياي فسلوا عنه! كان حلو العينين، حسن المضحك، براق الثنايا، خفيف العارضين، إذا نازعك الكلام لا تسأم حديثه، وإذا أنشد أبر وحسن صوته.

جمعني وإياه مربع مرة، فأتاني فقال: هيا عصمة! إن مية منقرية، ومنقر أخبث حي وأقوفه لأثر، وأثبتته في نظر، وأعلمه ببصر، وقد عرفوا آثار إبلي، فهل نرداد عليها ميا؟ قال: إي والله، الجؤذر بنت يمانية. قال: فعلينا بها! فجئت بها، فركب وردفته، ثم انطلقنا حتى نهبط على مي، وإذا الحي خلوف، فلما راتنا النسوة عرفن ذا الرمة، فتقوضن من بيوتهن حتى اجتمعن، وأنخنا

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٠٥

قريباً، وجئناهن، وجلسنا، فقالت ظريفة منهن: أنشدنا يا ذا الرمة، فقال لي: أنشدن،
فأنشدت قوله:

وَقَفْتُ عَلَى رَنْعِ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي، ... فَمَا زَالَتْ أَبْكِي عِنْدَهُ، وَأُخَاطِبُهُ.

فلما انتهيتُ إلى قوله:

نَظَرْتُ إِلَى أَطْعَانِ مَيِّ كَانَهَا ... ذُرَى النَّخْلِ، أَوْ أَثْلُ ثَمِيلٍ ذَوَائِبُهُ.

فَأَسْبَلَتِ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ كَاتِمٌ ... بِمُغْرُورِقٍ نَمَّتْ عَلَيَّ سَوَاكِبُهُ.

بَكَى وَامِقٌ، جَاءَ الْفِرَاقُ، وَلَمْ يُجَلِّ ... جَوَائِلَهَا، أَسْرَارُهُ أَوْ مَعَائِبُهُ.

قالت الظريفة: لكن اليوم فليجل، ثم مضيت. فلما انتهيت إلى قوله:

وَقَدْ حَلَفْتُ بِاللَّهِ مِئَةً مَا الَّذِي ... أَحَادُثُهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ.

إِذَنْ، فَرَمَانِي اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى، ... وَلَا زَالَ فِي أَرْضِي عَدُوٌّ أَحَارِبُهُ.

قالت مي: ويحك يا ذا الرمة خف عواقب الله، عز وجل، ثم مضيت حتى انتهيت على
قوله:

إِذَا سَرَحْتَ مِنْ حُبِّ مَيِّ سَوَارِحُ ... عَلَى الْقَلْبِ آتَتْهُ جَمِيعاً عَوَازِبُهُ.

فقالت الظريفة: قتلته قتللك الله! فقالت مية: ما أصحه وهنيئاً له.

قال: فتنفس ذو الرمة تنفساً كاد حرها يطير بلحيته، ثم مضت حتى انتهيت على قوله:

إِذَا نَارَ عَتَكَ الْقَوْلَ مِئَّةُ أَوْ بَدَا ... لَكَ الْوَجْهُ مِنْهَا أَوْ نَضَا الدَّرْعَ سَالِبُهُ.

فَيَا لَكَ مِنْ خَدِّ أَسِيلٍ وَمَنْطِقٍ ... رَحِيمٍ وَمِنْ خُلُقٍ تَعَلَّلَ جَاذِبُهُ.

فقلت الظريفة: هذا الوجه قد بدا، وهذا القول قد تنوزع، فمن لنا بأن ينضو الدرع سالبه؟ فالتفتت إليها مي فقالت: ما لك، قاتلك الله، ماذا تجنين به؟ فتضاحكت النسوة، فقالت الظريفة: إن لهذين لشأناً، فقم بنا عنهما، فقمين، وقمت فصرت إلى بيت قريب منهما أراهما، ولا أسمع كلامهما إلا الحرف بعد الحرف، فوالله ما رأيته برح مكانه، ولا تحرك. وسمعتها تقول: كذبت والله، فوالله ما أدري ما الذي كذبت فيه، فتحدثنا ساعة، ثم جاءني ومعه قويريرة فيها دهن طيب، فقال: هذه دهنة أتخفتنا بها مي، فشأنك بما. وهذه قلائد زودتنا للجؤذر، فلا واللخ لا فلدنم بعيراً أبداً. ثم عقدهن في ذؤابة سيفه.

قال: فانصرفنا، فلم نزل نختلف إليها، مربعنا، حتى انقضى. ثم جاءني يوماً فقال: يا عصمة! قد طعنت مي، فلم يبق إلا الديار، والنظر في الآثار، فأنهض بنا ننظر إلى آثارها، فخرجنا حتى وقفنا على ديارها، فجعل ينظر ثم قال:

أَلَا، فَاسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى، ... وَلَا زَالَ مِنْهَا بَجْرَ عَائِلِكَ الْقَطْرُ.

فَإِنْ لَمْ تَكُونِي غَيْرَ شَامٍ بِقَفْرَةٍ، ... يَجْرُ بِهَا الْأَذْيَالُ صَيْفِيَّةً كُدْرُ.

ثم انتضحت عيناه بعمرة، فقلت: مه! فقال: غني لجلد، وإن كان مني ما ترى، فما رأيت صباةً قط، ولا تجلداً أحسن من صبايته وتجلده يومئذ، ثم انصرفنا، فكان آخر العهد به.^١

تآلفا في الحياة وفي الممات

قال معاذ بن يحيى الصنعاني: خرجت من مكة إلى صنعاء، فلما كان بيننا وبين صنعاء خمس ساعات رأيت الناس يتزلون عن محاملهم ويركبون دوابهم، فقلت: أين تريدون؟ قالوا: نريد أن ننظر إلى قبر عفراء وعروة، فزلت عن محملي وركبت حماري، واتصلت بهم، فانتهيت إلى قبرين متلاصقين، قد خرج من كلا القبرين ساق شجرة، حتى إذا صارا على قمة التفأ، فكان الناس يقولون: تآلفا في الحياة وفي الممات.

عمر بن عون وحبيته بيا

قال أبو عبد الله محمد بن صالح: كان فتى من بني مرة يقال له عمر بن عون، وكان يحب جارية من قومه يقال لها بيا بنت الركين، فتزوجها رجل من قومه يقال له دهيم، وأبت بيا إلا حب عمر بن عون، وأبى عمر إلا حبها وقول الشعر فيها، فخرج زوجها بما هارباً منه حتى وقع باليمن في بني الحارث بن كعب، فطلبها عمرن فخفي عليه أمرها، ولم يعلم موضعها، فمكث حياً يبكي ويبكي له من عرفه، ثم خرج حاجاً على ناقه له، ومعه صحابة له، وقال: لعلني أتعلق بأستار الكعبة، أسأل الله، فعسى أن يرحمني، فردها علي، أو يذهب بقلبي عن حبها.

^١ العقد الفريد ٨ / ١٢١ ط دار الكتب العلمية - بيروت، المحاسن والأضداد ص ٢٩٢ ط دار ومكتبة الهلال،

بيروت، المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص ٢٨٠، التذكرة الحمدونية ٦ / ٢١٥، مصارع

العشاق ١ / ٢٠٩

فلما كان بمنى نظر إليه فتى من بني الحارث بن كعب، فأعجبه فجلس إليه يتحدث معه، وأنشده عمر بعض شعره في بيا، وشكا إليه بعض ما هو فيه من البلاء. فرق له، فقال الفتى، وسأله عن صفتها وصفة زوجها، فوصفها له، فقال الفتى: عندي خبر هذه المرأة، وهذا الرجل، منذ سنوات، فخر عمر لله تعالى ساجداً، ثم سأله عن حالها، فذكر أنها سالمة، وأنها باكية حزينة لا يهنؤها شيء من العيش. فقال له عمر: هل لك في صنيعة عند من يحسن الشكر؟ فقال له الفتى: أفعل ماذا؟ قال عمر: تخلف عن أصحابك، وأتخلف عن أصحابي حتى لا يكون عند أحد منا علم، ثم أمضي معك متكرراً. فقال الفتى: ذلك لك في عنقي.

فلما كان النفر تخلف كل واحد منهما عن صاحبه، وأقاما بمكة أياماً ثلاثة أو أربعة حتى ارتحل الحاج، ثم مضينا حتى وصل الفتى إلى أهله، فأدخله مع امرأته وأخته في منزلهما، ومضى إلى بيا، وأخبرها، فكانت كل تحيته كل يوم فيتحدثان ويشكوان ما كانا فيه من البلاء والوحشة.

واستراب زوجها بغشيانها ذلك البيت، ولم تكن من قبل تغشاه، ولا تقرب أهله، واستراب بطيب نفسها، وأنها ليست كما كانت، فخرج في رفقة إلى نجران على أن يغيب عشر ليال، فأقام ليلتين محتفياً في موضع، ثم أقبل راجعاً في الليلة الثالثة، وقد أمنه عمر، وظن أنه قد ذهب فأتاها، ففرشت له بساطاً قدام البيت، فتحدثا ثم غلبهما النوم، وهي مضطجعة على جانب البساط، وعمر على جانبه الآخر، فأقبل الزوج، فوجدهما على تلك الحال، فنظر في وجه عمر، فعرفه فأثبتته، وانتبه عمر، فوثب بالسيف فرعاً. فقال له الزوج: ويلك يا عمر ما ينجي منك بر ولا بحر.

فقال عمر: يا ابن عمي! ما نا على ربيّة، وما يسألني الله تعالى عن أهلك عن قبيح قط، ولكن نشأت أنا وهي فألفتها وألفتني، ونحن صبيان، فلست أعطى عنها صبراً، وما بيننا شيء أكثر من هذا الحديث الذي ترى.

قال له الزوج: أما أنا فلم أهرب إلى هذه البلاد إلا منك، فأما بعد ان صح عندي من عفتك وصدق قولك فيني لا أهرب منك أبداً.

فأقاموا سنواتٍ، وهم على تلك الحال، فمات عمر وجداً بها، فكانت تبكي عليه الدماء، فضلاً عن الدموع، ثم مات دهم بعد ذلك وعمرت هي.^١

المرقش الشاعر وأسماء

قال أبو عمرو، ووافقه المفضل الضبي: كان من خبر مرقش الأكبر أنه عشق ابنة عم له يقال لها أسماء بنت عوف بن مالك، علقها وهو غلام، فخطبها إلى أبيها، فقال له: لا أزوجه حتى تعرف بالناس، وهذا قبل أن يخرج ربيعة من أرض اليمن، فكان يعدّه فيها المواعيد، ثم انطلق مرقش إلى ملك من الملوك، وكان عنده زماناً، ومدحه، فأجازه، وأصاب عوفاً زمان شديداً، فأتاه رجل من مراد أحد بني عطيف، فأرغبه في المال، فزوجه أسماء على مائة من الإبل، ثم تنحى عن بني سعد بن مالك. ورجع مرقش، فقال أخوتها: لا تخبروه إلا أنها ماتت، فذبّحوا كبشاً، فأكلوا لحمه، ودفنوا عظامه، ولفوها في ملحفة، ودفنوها، فلما قدم مرقش عليهم أخبروه أنها ماتت، وأتوا به موضع القبر، فنظر إليه، وكان بعد ذلك يعتاده، ويذوره.

^١ مصارع العشاق ١/ ٢١٣

فبينما هو ذات يوم مضطجع، وقد تغطى بثوبه، وابنا أخيه يلعبان بكعابٍ لهما، إذ اختصما في كعب، فقال أحدهما: هذا أجدهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه، وقالوا: إذا جاء مرقش أخبرناه أنه قبر أسماء. فكشف مرقش عن رأسه، ودعا الغلام، وقد ضني ضنيَّ شديداً، فسأله عن الحديث، فأخبره به، وبتزويج المرادي أسماء، فدعا مرقش وليدةً له، ولها زوج من غفيلة كان عسيفاً لمرقش، فأمرها بأن تدعو له زوجها، فدعته، وكانت له رواحل، فأمره بإحضارها ليطلب المرادي، فأحضرها فركبها ومضى في طلبه، فمرض في الطريق حتى صار لا يحمل إلا معروضاً.

وإنهما نزلا كهفاً بأسفل نجران، وهي أرض مراد، ومع الغفلي امرأته وليدة مرقش زوج الوليدة يقول لها: اتركيه، فقد هلك سقماً، وهلكنا معه جوعاً وضراً، فجعلت الوليدة تبكي من ذلك، فقال لها زوجها: إن أطعني، وإلا فياني تاركك، وكان مرقش يكتب، وكان لأبوه دفعه وأخاه حرمة، وكانا أحب ولده إليه، إلى نصراني من أهل الحيرة، فعلمها الخط، فلما سمع مرقش قول الغفلي للوليدة كتب على مؤخر الرحل:

يَا صَاحِبِي تَلَبَّثَا لَا تَعْجَلَا! ... إِنَّ الرُّوَّاحَ رَهِينٌ أَنْ لَا تَفْعَلَا.

فَلَعَلَّ لُبُّكُمَا يُقَرِّبُ نَائِيًا، ... أَوْ يَسْبِقُ الإسْرَاعُ شَيْئًا مُقْبِلًا.

يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغَا ... أَنَسَ بْنَ سَعْدٍ إِنْ لَقِيتَ وَحَرَمَلَا.

لِلَّهِ دَرُكُمَا وَدَرُّ أَبِيكُمَا، ... إِنْ أَفَلَّتِ الْغَفْلِيُّ حَتَّى يُقْتَلَا.

مَنْ مُبْلِغُ الْأَقْوَامِ أَنَّ مَرْقَشًا ... أَضْحَى عَلَى الْأَصْحَابِ عَيْنًا مُثْقَلًا.

وَكَاثِمًا يَرُدُّ السَّبَاعُ بِشَلْوِهِ، ... إِذْ غَابَ جَمْعُ بَنِي ضُبَيْعَةَ مِنْهَا.

قال: وانطلق الغفلي وامرأته حتى رجعا إلى أهلهما، فقالا: مات المرقش، ونظر حرملة إلى الرجل، وجعل يقلبه. فقرأ الأبيات، فدعاهما وخوفهما، وأمرهما أن يصدقاها، ففعلا، فقتلهما، وقد كانا وصفا له الموضع، وامرهما في طلب المرقش حتى أتى المكان، فسأل عن خبره، فعرف أن مرقشاً كان في الكهف ولم يزل فيه حتى إذا هو بغنم تترو على الغار الذي هو فيه، وأقبل راعيها إليه، فلما بصر به قال: من أنت وما شأنك؟ فقال له مرقش: أنا رجل من مراد فمن أنت؟ قال: راعي فلان وإذا هو راعي زوج أسماء، فقال له مرقش: أتستطيع ان تكلم أسماء امرأة صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة فأحلب لها عتراً، فأتيتها بلبنها. فقال له: خذ خاتمي هذان فإذا حلبت فألقه في اللبن فإنها ستعرفه، وإنك مصيب به خيراً لم يصبه راعٍ قط غن أنت فعلت ذلك.

فأخذ الراعي الخاتم، فلما حلبت العترة طرح الخاتم في القدر، فانطلقت به الجارية، وتركته بين يديها، فلما سكنت رغوته، اخذته، فشربته، وكذلك كانت تصنع، ففرع الخاتم ثنيتهما، فأخذته، واستضاءت به بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا؟ فقالت: ما لي به علم، فأرسلتها إلى مولاها، وهو في شرب بنجران، فأقبل فرعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ فقالت: ادع عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم؟ فقال: وجدته مع رجل في كهفي جبار، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك تصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته في آخر رمق.

فقال زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: هذا خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه، فركب فرسه وحملها على فرس وسارا حتى طرقاه من ليلته، فاحتملاه فمات عند أسماء، وقال قبل أن يموت:

سَمَا نَحْوِي خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى، ... فَأَرْقَنِي، وَأَصْحَابِي هُجُودٌ.

فَبِتَّ أَدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ، ... وَأَذْكُرُ أَهْلَهَا، وَهُمْ بَعِيدُ.
 عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارٍ، ... يُشَبُّ لَهَا بِذِي الْأَرْضَى وَقُودُ.
 حَوَالِيهَا مَهَا بِيضُ التَّرَاقِي، ... وَآرَامٌ وَغَزْلَانٌ رُقُودُ.
 نَوَاعِمُ لَا تُعَالِجُ بُؤْسَ عَيْشٍ، ... أَوْ أَنْسُ لَا تَرْوَحُ، وَلَا تَرُودُ.
 يَرْحَنُ مَعَا بَطَاءَ الْمَشْيِ رُودًا، ... عَلَيْهِنَّ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ.
 سَكَنَ بَيْلَدَةٍ وَسَكَنْتُ أُخْرَى، ... فَقُطِعَتِ الْمَوَانِقُ وَالْعُهُودُ.
 فَمَا بَالِي أَيْ وَيُخَانُ عَهْدِي، ... وَمَا بَالِي أَصَادُ وَلَا أُصِيدُ.
 وَرُبَّ أَسِيلَةٍ الْخَدَّيْنِ بَكْرٍ، ... مُنْعَمَةٌ لَهَا فَرَعٌ وَجِيدُ.
 وَذُو أَشْرٍ شَتِيَّتِ النَّبْتِ عَذْبٌ ... نَقِيُّ اللَّوْنِ بَرَّاقٌ بَرُودُ.
 لَهَوْتُ بِهَا زَمَانًا فِي شَبَابِي، ... وَزَارَتْهَا التَّجَائِبُ وَالْقَصِيدُ.
 أَنْاسًا كُلَّمَا أَخْلَقْتُ وَصَلًا ... عَنَانِي مِنْهُمْ وَصَلٌ جَدِيدُ.
 فدفن في أرض مراد.^١

^١ تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ص ٤٠٠ ، ط دار المعارف ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص

٨٥/٢ ط عالم الكتب - بيروت ، مصارع العشاق ١ / ٢٢٧

الحب الجاحد

مات أبو العتاهية وعباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلي في يوم واحد، فرفع خبرهم إلى الرشيد، فأمر المأمون بحضورهم والصلاة عليهم، فوافى المأمون، وقد صفوا له في موضع الجنائز، فقال: من قدمتم؟ قالوا: إبراهيم، قال: أخروه وقدموا عباساً! قال: فلما فرغ من الصلاة اعترضه بعض الظاهرية، فقال له: أيها الأمير بم قدمت عباساً؟ قال: يا فضولي بقوله:

سَمَّاكِ لِي قَوْمٌ وَقَالُوا: إِنَّمَا ... لَهْمِي الَّتِي تَشَقَّى بِهَا وَتُكَابِدُ.

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم، ... إني ليعجبني المحب الجاحد.^١

المأمون وجارية أبيه

قال منصور البرمكي وكان أديباً: كانت لهارون الرشيد جارية غلامية، تصب على يده، وتقف على رأسه، وكان المأمون يعجب بها، وهو أمرد، فبينا هي تصب على هارون من إبريق معها، والمأمون مع هارون قد قابل بوجهه وجه الجارية، إذ أشار إليها بقبلة، فزبرته، بحاجبها وأبطأت عن الصب في مهلة ما بين ذلك، فنظر إليها هارون فقال: ما هذا؟ فتلكأت عليه، فقال: ضعي ما معك! علي كذا إن لم تخبريني لأقتلنك. فقالت: أشار إلي عبد الله بقبلة. فالتفت إليه، وإذا هو قد نزل به من الحياء والرعب ما رحمه منه، فاعتنقه، وقال: أتعجبها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: قم فادخل بها في تلك القبة، فقام فعل، فقال له هارون: قل في هذا شعراً، فأنشأ يقول:

ظَنِّي كَنَيْتُ بِطَرْفِي ... عَنِ الضَّمِيرِ إِلَيْهِ.

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٣١

قَبْلَهُ مِنْ بَعِيدٍ ... فَأَعْتَلَّ مِنْ شَفَقَتِهِ.

وَرَدَّ أَحْبَبْتَ رَدًّا ... بِالْكَسْرِ مِنْ حَاجِبِهِ.

فَمَا بَرَحْتُ مَكَانِي ... حَتَّى قَدِرْتُ عَلَيْهِ.^١

السوداء وحببها عمر

قال إبراهيم بن ميمون: حججت في أيام الرشيد، فبيما أنا بمكة أجول في سككها، إذا أنا بسوء قائمة ساهية، فأنكرت حالها، فوقفْتُ أنظر إليها، فمكثت كذلك ساعة، قم قالت:

أَعْمُرُو عَلَامَ تَجَنَّبْتَنِي؟ ... أَخَذْتُ فَوَادِي فَعَذَّبْتَنِي.

فلو كنت، يا عمرو، خبرتني ... أَخَذْتُ حِذَارِي، فَمَا نَلْتَنِي.

قال: فدنوت منها، فقلت: يا هذه! من عمرو؟ فارتاعت من قولي وقالت: زوجي. فقلت: وما شأنه؟ قالت: أخبرني أنه يهواني وما زال يدس إلي ويعلق بي في كل طريق، ويشكو شدة وجده حتى تزوجني، فلبث معي قليلاً، وكان له عندي من الحب مثل الذي كان لي عنده، ثم مضى إلى جدة، وتركني.

قلت: فصفيه لي.

فقالت: أحسن من تراه، وهو أسمى حلو ظريف.

^١ الأمازي ١ / ٢٢٥ ط دار الكتب المصرية ، نفح الطيب ١ / ٦١٨ ط دار صادر ، مصارع العشاق ١ / ٢٣٨

قال، فلت: فخبيري أتحبين أن أجمع بينكما؟ قالت: فكيف لي بذلك؟ وطنتي أهزل بها. قال: فركبت راحلتي وصرت على جدة فوقفت في المرقى أتبصر من يعمل في السفن، وأصوت: يا عمرو يا عمرو! فإذا أنا به خارج من سفينة، وعلى عنقه صن، فعرفته بالصفة، فقلت: أعمرو علام تجنبتني؟ فقال: هيه هيه، رأيته وسمعت منه؟ ثم أطرق هنيهة ثم اندفع يغنيه، فأخذته منه، وقلت له: ألا ترجع؟ فقال: بأي أنت، ومن لي بذلك؟ ذلك والله أحب الأشياء إلي ولكن منع منه طلب المعاش.

قلت: كم يكفيك كل سنة.

قال: ثلاثمائة درهم، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلت: هذه لعشر سنين، ورددته إليها، وقلت له: إذا فنيت أو قاربت الفناء قدمت علي فسررتك، وإلا وجهت إليك، وكان ذلك أحب إلي من حجي.

قال محمد بن عبد الله قال إسحاق: والناس ينسون هذا الصوت إلى إبراهيم، وكان إبراهيم، وكان إبراهيم أخذه من هذا الفتى.^١

مدرك الشيباني وعمرو النصراني

قال جعفر بن شاذان القمي أبو القاسم : أنشدني مدرك بن علي الشيباني له ببغداد في الجانب الغربي في عمرو بن يوحنا النصراني:

مِنْ عَاشِقٍ نَاءٍ هَوَاهُ دَانُ، ... نَاطِقٍ دَمَعٍ صَامِتِ اللِّسَانِ.

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢٨٤/٥، مصارع العشاق ١/ ٢٤٠

وقال أبو القاسم جعفر بن شاذان القمي: وكان عمرو بن يوحنا النصراني يسكن في دار الروم ببغداد من الجانب الشرقي، وكان من أحسن الناس صورة وأجملهم خلقاً، وكان مدرك بن علي الشيباني يهواه، وكان مدرك من أفاضل أهل الأدب والمطبوعين في الشعر، وكان له مجلس يجتمع إليه الأحداث لا غير، فإن حضره شيخ أو كهمل قال له مدرك: إنه يقبح بمثلك أن يختلط بالأحداث والصبيان، فقم في حفظ الله، فيقوم.

مَجَالِسِ الْعِلْمِ الَّتِي ... بِكَ تَمَّ جَمْعُ جُمُوعِهَا.

أَلَا رَأَيْتَ لِمَقَلَّةٍ ... غَرَقَتْ بَمَاءِ دُمُوعِهَا.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةٌ، ... وَاللَّهِ فِي تَضْيِيعِهَا.

فقرأ الأبيات، ووقف عليها من كان في المجلس وقرأوها، واستحيا عمرو من ذلك، فانقطع عن الحضور، وغلب الأمر على مدرك، فترك مجلسه ولزم دار الروم، وجعل يتبع عمراً حيث سلك، وقال فيه هذه القصيدة المزوجة العجيبة.

ولمدرك في عمرو أيضاً أشعار كثيرة، ثم خرج مدرك إلى الوسواس وسل جسمه، وذهل عقله، وانقطع عن إخوانه ولزم الفراش، فحضره جماعة، فقال لهم: ألسنت صديقكم القديم العشرة لكم، أفما فيكم أحد يسعدني بالنظر إلى وجه عمرو؟ فمضوا بأجمعهم إليه، وقالوا له: إن كان قتل هذا الفتى ديناً، فإن إحياءه لمروءة! قال: وما فعل؟ قالوا: قد صار إلى حال ما نحسبك ترضى به. فلبس ثيابه ونهض معهم، فلما دخلوا عليه سلم عليه عمرو وأخذ بيده وقال: كيف تجددك يا سيدي؟ فنظر إليه فأغمي عليه ساعة ثم أفاق وفتح عينيه، وهو يقول:

أَنَا فِي عَافِيَةٍ إ ... لَا مِنْ الشَّوْقِ إِلَيْكَ.

أَيُّهَا الْعَائِدُ مَا بِي ... مِنْكَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ.

لَا تُعْذِرْ جِسْمًا، وَعُدْ ... قَلْبًا رَهِينًا فِي يَدَيْكَ.

كَيْفَ لَا يَهْلِكُ مَرْشُ ... قُ بِسَهْمِي مُقْلَتَيْكَ.

ثم شهق شهقةً فارق فيها الدنيا، فما برحنا حتى دفنوه.^١

الحب يذهب بالحب

روى الحسين بن علي بن قدامة مولى بني أمية عن أبيه قال : خرجت إلى الشام، فلما كنت بالشرارة، ودنا الليل، إذا قصر، فهويت إليه، فإذا بين باي القصر امرأة لم أر مثلها، قط، هيئة وجمالاً، فسلمت، فردت، ثم قالت: من أنت؟ قلت: رجل من بني أمية من أهل الحجاز.

خير مبيت، فلما أصبحت أرسلت إلي تقول: كيف مبيتك؟ قلت: خير مبيت، والله ما رأيت أكرم منك ولا شرف من فعالك، قالت: فإن لي إليك حاجة، تمضي حتى تأتي ذلك الدير، دير أشارت إليه منتح، فإن فيه ابن عمي، وهو زوجي، قد غلبت عليه نصرانية في ذلك الدير، فهجري ولزمها، فتتظر إليه وتخبره عن مبيتك، وعما قلت لك، فقلت: أفعل، ونعمي عين.

فخرجت حتى انتهيت إلى الدير، وإذا أنا برجل في فئائه جالس كأجمل ما يكون من الرجال، فسلمت، فرد وسألني، فأخبرته من أنا، وأين بت، وما قالت لي المرأة. فقال:

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٤٣

صدقت! أنا رجل من قومك من آل الحارث بن الحكم، ثم صاح: يا قسط! وتلك أروى،
وأنا الذي أقول:

تَبَدَّلْتُ قِسْطًا بَعْدَ أَرْوَى وَحَبَّهَا، ... كَذَاكَ لَعَمْرِي الْحُبُّ يَذْهَبُ بِالْحُبِّ.^١

أما تمها ومات أسفاً عليها

كان العلاء بن عبد الرحمن التغلبي من أهل الأدب والظرف، فواصلته جارية من جوارى
القيان، فكان يظهر لها ما ليس في قلبه، وكانت الجارية على غاية العشق له، والميل إليه، فلم
يزال على ذلك حتى ماتت الجارية عشقاً له ووجداً به، فذكرها بعد ذلك وأسف على ما
كان كمن جفائه لها وإعراضه عنها، فرآها ليلةً في منامه، وهي تقول له:

أَتَبْكِي بَعْدَ قَتْلِكَ لِي عَلَيَّا، ... فَهَلَّا كَانَ ذَا إِذْ كُنْتُ حَيًّا.

سَكَبْتَ دُمُوعَ عَيْنِكَ فِي الْهَلَالِ، ... وَمَنْ قَبْلَ الْمَمَاتِ تُسِي إِلَيَّا.

أَقِلَّ مِنَ النَّبَاحَةِ وَالْمَرَاثِي، ... فَإِنِّي مَا أَرَاكَ صَنَعْتَ شَيْئًا.^٢

نومة عبود

^١ مصارع العشاق ٢٤٥/١

^٢ مصارع العشاق ٢٥٤/١

قال محمد أبو جمعة الوراق: أخبرت أن المهدي دخل الكوفة فقال لأبي الأحوص محمد بن حيان الكوفي: حدثنا حديثاً من طرائف الأخبار بما حضرك، قال: كان في الزمان الأول رجل يقال له عبود وكان عاشقاً لابنة عم له فحضرتها الوفاة، فأزعجه ذلك، وأقلقه، فلما توفيت صار إلى المسيح، فسأله أن يحييها قال: لن يتهيأ ذلك أو تهب لها من عمرك شيئاً. قال: قد وهبت لها نصف عمري، فصار المسيح إلى تربتها، فوقف عليها، وسأل ربه أن يحييها فأحيها، فأخذ بيدها عبود، ومضى يريد بها أله، فأدركه الفتور في بعض الطريق، فحط رحله، ووضع رأسه في حجرها، واستقل نوماً.

فاجتاز بها ملك الناحية فرأى وجهاً جميلاً وخلقاً حسناً، فعرض عليها صحبتته، فأجابته، فأمرها، فوضعت رأسه من حجرها، وحملها في قبة كانت معه، فلما انتبه عبود بقي متلداً، فبينما هو كذلك إذ تلقاه نفر يتواصفون الجارية وبراعة خلقها، فسألهم عن الخبر، فأعلموه أنهم رأوا مع الملك امرأة لحقها فجعل يذكرها العهد، وهي ساكنة، ويسألها التزوع عما هي عليه، وهي مزورة عنه، إلى أن قال: ويحك قد كنت توفيت، فصرت في جملة الموتى، فسألت المسيح، فأحياك لي على أني أعطيتك من عمري نصفه، فإن كنت لا تساعدني ولا تصيرين معي إلى أهلي وأهلك، فردي علي ما وهبت لك من عمري.

قالت: فإني قد رددته عليك، ولا حاجة لي فيه، فما أتمت هذه الكلمة حتى وقعت ميتة، وانصرف عبود إلى أهله مغتبطاً، فضربت العرب بنومة عبود مثلاً.^١

هاتف الجبل

^١ مصارع العشاق ١/ ٢٦٣

قال عثمان بن عمر التيمي: هوي فتى من بنس أسد فتاة من فخذة، وكان أيسر منها وأغنى، فكان أبوه يمنعه من أن يتزوجها، ويريد له أشرف منها وأيسر، ويعرض عليه غيرها، فيأبى إلا هي، فيمتنع أبوه من ذلك. وكان أبوها قد حبسها عليه رجاء أن يتزوجها، فلما طال على أبيها وأيس منه زوجها من غيره، فلقيها الفتى يوماً فقال لها:

لَعْمَرِي، يَا سَعْدِي، لَطَالُ تَأْيَمِي، ... وَمَعْصِيَتِي شَيْخِي فِيكَ كَلِيهِمَا.

وَتَرَكِي ذَا الْحَيِّينِ لَمْ أَبْغِ مِنْهُمَا ... سِوَاكَ، وَلَمْ يَرْبَعْ هَوَايَ عَلَيْهِمَا.

فقلت الجارية:

حَبِيبِي لَا تَعْجَلْ لَتَفْهَمَ حُجَّتِي، ... كَفَانِي مَا بِي مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ جُهِدٍ.

وَمِنْ عِبَرَاتٍ تَعْتَرِينِي وَزَفَرَةٍ ... تَكَادُ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ مِنَ الْوَجْدِ.

غُلِبْتُ عَلَى نَفْسِي جَهَارًا وَلَمْ أُطِقْ ... خِلَافًا عَلَى أَهْلِي بِهِزْلٍ وَلَا جِدِّ.

وَلَنْ يَمْنَعُونِي أَنْ أَمُوتَ بِرُغْمِهِمْ، ... غَدًا، جَوْفَ هَذَا الْغَارِ فِي جَدَثٍ وَحْدِي.

فَلَا تَنْسَ أَنْ تَأْتِيَ هُنَاكَ، فَتَلْتَمِسَ ... مَكَانِي فَتَسْلُو مَا تَحْمَلْتَ مِنْ جَهْدِي.

فلما كان في غدٍ أتاها حيث زعمت له، فوجدها ميتةً فحملها، فأدخلها شعباً ثم التزمها فمات معها، قال: فالتمسا حولاً، فلم يقدر عليهما، ولم يعلم لهما خبر، فإذا هاتف يهتف على الجبل الذي هما فيه، وكان الجبل يدعى أعرافاً:

إِنَّ الْكَرِيمَيْنِ ذَوِي التَّصَافِي ... الدَّاهِيَيْنِ بِالْوَفَاءِ الصَّافِي.

وَاللّٰهُ مَا لَاقَيْتُ فِي تَطَوّافِي ... أَبْعَدَ مِنْ غَدْرِ وَمِنْ إِخْلَافِ.
مِنْ مَيِّتَيْنِ فِي ذُرَى أَعْرَافِ.

قال: فصعد القوم الجبل، فوجدوهما ميتين فواروهما.^١

لا راحة ولا نوم

قال أبو حاتم السجستاني، حدثني شيخ ظريف حجازي: كنت بمكة، فإذا كان الليل سمعت أنينا إلى جني، فطال الليل علي، فسألت عنه فقيل لي: فتى مريض، فدخلت عليه فإذا هو من أحسن الناس وجهاً كأنه ذهب وفضة، فكلمته، فإذا هو عاشق يغلب على عقله حتى يخالط، فأصابه ذلك وأنا عنده، فجعل يقول:

مُتِّمٌ قَدْ بَرَّاهُ السَّقَمُ، ... كَأَنَّهُ نَضُو يُقَاسِي الأَلَمُ.

فما له راحة ولا نوم إلى الصباح.^٢

آه من البين

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٦٦

^٢ مصارع العشاق ١ / ٢٦٧

يقول سهلان القاضي: بينا أنا مار في طرقات جبل شوري، وقد مرت علي قافلة عظيمة، إذ بفتى شاب على طريق ذاهب العقل مدهوش عريان، وبين يديه خلقان متمزقة، فقال لي: أين رأيت القافلة؟ قلت: في موضع كذا وكذا. قال: آه من البين، آه من البين، آه من دواعي الحب! قلت: ما دهالك؟ فقال:

شَيَّعْتُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَعْلَمُوا، ... وَرُحْتُ وَالْقَلْبُ بِهِمْ مُعْرَمٌ.

سَأَلْتُهُمْ تَسْلِيمَةً مِنْهُمْ ... عَلَيَّ إِذْ بَأْنُوا فَمَا سَلَّمُوا.

سَارُوا وَلَمْ يَرْتُوا لِمُسْتَهْتَرٍ، ... وَلَمْ يُبَالُوا قَلْبَ مَنْ تَيَّمُوا.

وَاسْتَحْسَنُوا ظُلْمِي، فَمِنْ أَجْلِهِمْ ... أَحَبَّ قَلْبِي كُلَّ مَنْ يَظْلِمُ.^١

حديث الجنيد

حكى عن الجنيد أنه قال: أعرف من قتلته الحبة، ولم يعرف الحبة، ثم قال: كيف؟ فقلنا: يقول الشيخ! فقال: قتله ما خبيء فيها.^٢

أصناف الناس

^١ عقلاء المجانين ص ١٤١ ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، مصارع العشاق ٢٦٨/١

^٢ مصارع العشاق ٢٧٠ / ١

كان سهل يقول: الناس ثلاثة أصناف: صنف منهم مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على بابه ينتظر الكرامة، وصنف منهم مضروب العفو، وصنف منهم مضروب بسوط الغفلة، مقتول بسيف الشهوة، مضطجع على بابه ينتظر العقوبة.^١

ذو النون والمريض

دخل ذو النون على مريض يعود فرأى المريض يئن، فقال ذو النون: ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه، فقال المريض: لا ولا صدق في حبه من لم يتلذذ بضربه، فقال ذو النون: لا ولا صدق من رأى حبه لربه، عز وجل.^٢

نصر بن حجاج وامرأة السلمي

قال سماك بن عطية: لما قدم نصر بن حجاج البصرة نزل على مجاشع بن مسعود السلمي، فبينما هو ليلة يتحدث هو وامرأته كتب على رمل هم عليه قعود: أنا أحبك. قال: فكتبت هي: وأنا كذلك، فدعا ياجانة، ووضعها على الكتابة، فلما أصبح دعا غلامه، فقال: أي شيء هذا؟ قال: أنا أحبك، وأنا كذلك، فدعاها ودعاها، وقال لها: ضميه إلى صدرك يذهب عنكما ما أنتما فيه.^٣

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٧١

^٢ مصارع العشاق ١ / ٢٧١

^٣ مصارع العشاق ١ / ٢٧٩

ضحيتا الهوى

روي عن شبابة بن الوليد العذري أن فتىً من بني عذرة، يقال له أبو مالك بن النضر، كان عاشقاً لابنة عم له عشقاً شديداً، فلم يزل على ذلك مدة، ثم إنه فقد بضعة عشرة سنة، ولم يحس له خبر.

قال شبابة بن الوليد: فضلت إبل لي، فخرجت في طلبها، فبينما أنا سير في الرمال إذا بهاتف يهتف بصوت ضعيف، وهو يقول:

يا ابن الوليد ألا تحمون جاركُم، ... وَتَحْفَظُونَ لَهُ حَقَّ الْقَرَابَاتِ.

عهدي إذا جار قوم نابه حدث ... وَقَوَّه مِنْ كُلِّ أَضْرَارِ الْمِلَمَاتِ.

هذا أبو مالك المسمى ببلقعة، ... مَعَ الضَّبَاعِ وَآسَادِ بَغَابَاتِ.

طليح شوقٍ بنار الحب محترق ... نَعْتَادُهُ زَفَرَاتٍ إِثْرَ لَوَعَاتِ.

أما التَّهَارُ فَيُضْنِيهِ تَذَكُّرُهُ، ... وَاللَّيْلُ مَرْتَقِبٌ لِلصَّبْحِ هَلْ يَأْتِي؟

يهذي بجارية من عذرة اختلست ... فُوَادُهُ، فَهُوَ مِنْهَا فِي بَلِيَّاتِ.

فقلت: دلني عليه، رحمك الله، فقال: نعم، اقصد الصوت، فلما قصدت غير بعيد سمعت أنيناً من خباء فأصغيت إليه، فإذا قائل يقول:

يَا رَسِيسَ الْهَوَى أَذَبْتَ فُوَادِي، ... وَحَشَوْتَ الْحَشَا عَذَاباً أَلِيماً.

فدنوت منه، فقلت: أبو مالك؟ قال: نعم! قلت: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: حي سعاد ابنة أبي الهيثم العذري، فشكوت يوماً إلى ابن عم لنا من الحي ما أجد من بها، فاحتملني إلى هذا الوادي، منذ بضع عشرة سنة، ويأتيني كل يوم بخبرها، ويقوتني، حفظه الله، من عنده. فقلت له: إني أصبر إلى أهلاه، فأخبرهم بما رأيت، قال: أنت وذاك.

فانصرفت، وصرت إلى أهل الجارية، فخبرتهم بحال الفتى، وما رأيت منه، وحدثتهم حديثه، فرقوا له فزوجوه بحضرتي، ورجعت إليه عامداً لأفرج عنه لما رأيت منه، فلما أخبرته الخبر، حدد النظر إلي، ثم تأوه تأوهاً شديداً بلغ من قلبي، ثم انشأ يقول:

الآن إذ حَشَرَحْتُ نَفْسِي وَحَاصَرَهَا ... فِرَاقُ دُنْيَا، وَنَادَاها مُنَادِيهَا.

ثم زفر زفرةً، فمات، فدفتته في موضعه ثم انصرفت فأعلمتهم الخبر، فأقامت الجارية ثلاثاً لا تطعم طعاماً ثم ماتت^١.

ليلي الأخيلية والحجاج

عن مولى لعنيسة أن سعيد بن العاص قال: كنت أدخل مع عنيسة بن سعيد إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً، فدخلت إليهما، وليس عند الحجاج غير عنيسة، فقعدت فجيء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به، ثم جيء بطبق، حتى كثرت الأطباق وجعل لا يؤتون بشيء إلا جاءني منه بشيء، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم، ثم جاء حاجب فقال: امرأة بالباب، فقال له الحجاج: أدخلها! فدخلت، فلما رآها الحجاج، طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد اصاب الأرض، فجاءت حتى بين يديه، فنظرت إليها فإذا هي امرأة قد أسنت، حسنة الخلق، ومعها جارتان لها، وإذا هي ليلي الأخيلية،

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ١٨٩/٢، مصارع العشاق ١/ ٢٨٠

فسألها الحجاج عن نسبها، فانتسبت له، فقال لها: يا ليلي ما أتى بك؟ فقالت: إخالف النجوم^١، وقلة الغيوم، وقلب البرد^٢، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرfid^٣.

فقال لها: صفني لنا الفجاج^٤.

فقالت: الفجاج مغيرة، والأرض مقشعرة، والمزل معتل، وذو العيال مختل^٥، والهلك المقل^٦، والناس مستنون^٧، رحمة الله يرجون. وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة^٨ لم تدع لنا هيباً ولا ريعاً^٩، ولا عافطة ولا نافطة^{١٠}، أذهبت الأموال، وفرت الرجال، وأهلك العيال. ثم قالت: إني قد قلت في الأمير قولاً! قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أَحْجَاجُ لَا يُقَلِّلُ سِلَاحُكَ إِنَّمَا ال ... مَنَايَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا.

^١ أي أحلفت النجوم التي يكون بها المطر؛ فلم تأت بمطر.

^٢ كلب البرد: شدته، وأصل الكلب: السعار "بالضم" الذي يصيب الكلاب والذئاب.

^٣ الرfid "بالفتح": المعونة، مصدر رfده كضربه: أعانه وأعطاه، وبالكسر: العطاء والصلة.

^٤ الفجاج: بالفتح، وهو الطريق الواسع بين جبليين.

^٥ مختل: محتاج من الخلّة بالفتح وهي الحاجة.

^٦ القل: أي هالك من أجل القلة.

^٧ أي مقحطون، والسنة: القحط.

^٨ مجحفة: قاشرة، ومبلطة: ملزقة بالبلاط، والبلاط: الأرض المساء، والحجارة التي تفرش في الدار، وأبلط الرجل فهو مبلط: إذا لرق بالأرض.

^٩ الهيع: الفصل ينتج في الصيف "في آخر النتاج" والربيع: الفصل ينتج في الربيع "وهو أول النتاج".

^{١٠} العافطة: الضائنة "النعجة"، من العفط، وهو الضرب، عفطت كضرب، ضربت، فهي عافطة، والعفط أيضاً:

نثر الضأن، نثر بأنوفها كما ينثر الحمار، والنافطة العثر، من النفط، نفطت العثر كضرب نثر بأنفها، أو

عطست، فهي نافطة، أو لأنها تنفط بيولها أي تدفعه دفعاً، أو النافطة إتباع العافطة، أو العافطة الأمة الراعية،

والنافطة الشاة.

أَحْجَّاجُ لَا تُعْطِ الْعُصَاةَ مِنْهُمْ، ... وَلَا اللَّهُ يُعْطِي لِلْعُصَاةِ مِنْهَا.

إِذَا هَبَّطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً ... تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِهَا فَتَفْأَهَا.

شَفَّأَهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَآةَ سَقَّأَهَا.

سَقَّأَهَا، فَرَوَّأَهَا بِشُرْبِ سِجَالُهُ ... دِمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ قَالَ حَمَّأَهَا.

إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رِزًّا كَتِيبَةً، ... أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النَّزُولِ قِرَّأَهَا.

أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً ... بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَأَهَا.

فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعُونُ مِثْلَهُ، ... بَنَجِدُ وَلَا أَرْضٌ يَجِفُّ ثَرَاهَا.

قال: فلما قالت هذا، قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنيسة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً، ثم التفت إليها فقال: حسبك.

قالت: إني قد قلت أكثر من هذا، قال: حسبك، ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحمام، فالتفتت إليه فقالت: ثكلتك أمك! أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً، وهم بقطع لسانه وقال: ارددها، فلما دخلت عليه قالت: كاد، وأمانة الله، يقطع مقولي. ثم أنشأت تقول:

حَجَّاجُ! أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ ... إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ.

حَجَّاجُ! أَنْتَ شَهَابُ الْحَرْبِ إِذْ لَقِحت، ... وَأَنْتَ لِلنَّاسِ فِي جَنَحِ الدُّجَى تَقْدُ.

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير إلا أنا بم
 نر امرأة قط أفصح لساناً ولا أحسن محاورة ولا أملح وجهاً ولا أرحن شعراً منها. فقال:
 هذه ليلي الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها، ثم التفت إليها فقال: أنشدنا يا ليلي
 بعض ما قال فيك توبة. فقالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وَهَلْ تَبْكِينَ لَيْلَى إِذَا مَا بَكَيْتُهَا ... وَقَامَ عَلَى قَبْرِ النِّسَاءِ التَّوَائِحُ.

كَمَا لَوْ أَصَابَ الْمَوْتُ لَيْلَى بِكَيْتُهَا، ... وَجَادَ لَهَا دَمْعٌ مِنَ الْعَيْنِ سَافِحُ.

وَأُغْبِطُ مِنْ لَيْلَى لَا أَنَالُهُ، ... بَلَى! كُلُّ مَا قَرَّتْ بِهِ الْعَيْنُ صَالِحُ.

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلِمَتْ ... عَلَيَّ، وَدُونِي تُرْبَةٌ وَصَفَائِحُ.

لَسَلِمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا ... إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ.

فقال لها: زیدینا یا لیلی من شعره، فقالت: هو الذي يقول:

حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمِي، ... سَقَاكِ مِنَ الْعُرِّ الْعَوَادِي مَطِيرُهَا.

أَبِينِي لَنَا، لَا زَالَ رِيشُكَ نَاعِمًا، ... وَلَا زَلَّتْ فِي حَضْرَاءِ غَضٍّ نَضِيرُهَا.

وَأَشْرِفُ بِالْقَوَزِ الْيَفَاعِ لَعَلِّي ... أَرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بَصِيرُهَا.

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ لَيْلَى تَبْرَقَعْتُ ... فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةُ سُفُورُهَا.

يَقُولُ رِحَالٌ: لَا يَضِيرُكَ نَائِيهَا! ... بَلَى! كُلُّ مَا شَفَّ النَّفْسَ يَضِيرُهَا.

بَلَى يَضِيرُ الْعَيْنَ أَنْ تُكْثَرَ الْبُكَى، ... وَيُمنَعُ مِنْهَا نَوْمُهَا وَسُرُورُهَا.

وَقَدْ زَعَمْتُ لَيْلَى بِأَنِّي فَاحِرٌ، ... لِنَفْسِي تُقَاهَا، أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا.

فقال لها الحجاج: يا ليلى ما الذي رابه من سفورك؟ فقالت: أهما الأمير، كان يلم بي كثيراً، فأرسل إلي يوماً أني آتيك، وفطن الحي، فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت، فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع. فقال: لله درك، فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ فقالت: لا والذي أسأله أن يصلحك غير أنه قال لي مرةً قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فقتل له:

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ: لَا تَبْحَ بِهَا ... فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ.

لَنَا صَاحِبٌ لَا يَتَّبِعِي أَنْ نَخُونَهُ، ... وَأَنْتَ لِأُخْرَى فَارِغٌ وَحَلِيلُ.

فلا والذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً. حتى فرق الموت بيني وبينه. قال: ثم ماذا؟ قالت: لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عمه: إذا أتيت الحاضرة من بني عبادة، فناد بأعلى صوتك:

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا! هَلْ أَيْبَنَ لَيْلَةً ... مِنَ الدَّهْرِ لَا يَسْرِي إِلَيَّ خَيَالُهَا.

فخرجت وأنا أقول:

وَعَنْهُ عَفَا رَبِّي، وَأَحْسَنَ حَالَهُ، ... فَعَزَّ عَلَيْنَا حَاجَةً لَا يَنَالُهَا.

قال: ثم ماذا؟ قالت: لم يلبث أن مات، فأتاني نعيه. قال: فأنشدنا بعض مرثييك، فأنشدت:

لَتَبْكُ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةِ نُسُوءٍ، ... بِمَاءِ شُؤْنِ الْعَبْرَةِ الْمُتَحَدِّرِ.

قال: فأنشدنينا:

كَأَنَّ فِتَى الْفَتَيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُنْخَ ... فَلَاتُصَّ يَفْحَصَنَّ الْحَصَا بِالْكَرَاكِ.

فلما فرغت من القصيدة قال محسن الفقعسي، وكان من جلساء الحجا: من هذا الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة. فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير! إن هذا القائل لو رأى توبة لسره أن لا يكون في داره عذراء إلا وهي حامل منه. فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنياً.

ثم قال لها: سلي ليلي تعطي. قالت: أعط فمثلك أعطى فأجزل.

قال: لك عشرون. قالت: زد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زد فمثلك زاد فأفضل. قال: لك ستون. قالت: زد فمثلك زاد فأكمل. قال: لك ثمانون. قالت: زد فمثلك زاد فأتم. قال: لك مائة، واعلمي يا ليلي أنها غنم، قال: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جواداً وأجهد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً. قال: فما هي ويحك يا ليلي؟ قالت: مائة ناقة يدعى بها. فأمر بها ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إلي النابغة الجعدي في قرن. قال: قد فعلت.

وقد كانت تمجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك، فخرج هارباً عائداً بعبد الملك، فاتبعه إلى الشام، فهرب إلى قتيبة، فمات بقومس، ويقال بجلوان.^١

علي بن صالح والقينة

^١ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ٢/ ٤٠٧ ط المكتبة العلمية بيروت-لبنان، جواهر الأدب في

أدبيات وإنشاء لغة العرب ١/ ٤٠٢ ط مؤسسة المعارف، بيروت، مصارع العشاق ١/ ٢٨٣

قال سليمان بن علي الهاشمي أن علي بن صالح بن داود ذكر عن جارية من القيان أنها تميل إليه محبةً وكلفاً، وكانت موصوفةً بالأدب شاعرةً، فكره مراسلتها، فحضر يوماً عند بعض أهل البصرة، وكانت عنده، فلما رأت علي بن صالح قالت: طاب عيشنا في يومنا هذا، فلم يلتفت إليها وأطرق هي أيضاً فلم تنظر إليه، ثم دعت بداوة فكتبت على منديل، كان معها، ثم غافلت أهل المجلس، فألقت إليه المنديل، فأخذه فإذا فيه:

لَعَلَّ الذي يَلُؤُّ بِحُبِّكَ يَا فَتَى، ... يَرُدُّكَ لِي يَوْمًا إِلَى أَحْسَنِ الْعَهْدِ.

قال: فما هو إلا أن قرأت الشعر حتى وجدت في قلبي من أمرها مثل النار، وقمت فانصرفت خوفاً من الفضيحة، ثم لم أزل أعمل الحيلة في ابتياعها من حيث لا تعلم، فعسر ذلك علي، فعرفت بها الخبر، وما عزمت عليه من ابتياعها، فأعانتني على ذلك حتى ملكتها، فلم أؤثر عليها أحداً من حرمي، ولا أهلي، ولا كان عندي شيء يعدلها، فتوفيت، فأنا لا عيش لي بعدها، ولا سرور. فوالله ما لبث بعد هذا الكلام إلا أياماً يسيرة حتى مات أسفاً وكمداً، فدفن إلى جنبها.^١

عشق ليس فيه فحش

كان عند خالد بن عبد الله فقهاء من أهل الكوفة، فيهم أبو حمزة الثمالي، فقال خالد: حدثونا بمحدث عشق ليس فيه فحش! فقال أبو حمزة الثمالي: أصلح الله الأمير! زعموا أنه ذكر عند هشام بن عبد الله غدر النساء وسرعة تزويجهن. فقال هشام: إنه ليبلغني من ذلك العجب.

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٨٨

فقال بعض جلسائه: أنا أحدثك عما بلغني من ذلك.

بلغني ان رجلاً من بني يشكر يقال له غسان بن مهضم من العذافر، كانت تحتها ابنة عم له يقال لها أم عقبة بنت عمرو بن الأجير، وكان لها محباً، وكانت هي له كذلك، فلما حضره الموت، وظن أنه مفارق الدنيا، قال ثلاثة أبيات. ثم قال لها: يا أم عقبة! اسمعي ما أقول، وأجيبيني بحق، قال ثلاثة أبيات. ثم قال لها: يا أم عقبة! اسمعي ما أقول، وأجيبيني بحق، فقد تاقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك، بعدما يواريني التراب.

فقلت: قل، فوالله لا أجيبك بكذبٍ ولأجعلنه آخر خطاب مني.

فقال، وهو يبكي بكاءً منعه الكلام:

أحبريني بما تُريدينَ بعدي، ... والذي تُضمِّرينَ يا أمَّ عُقْبَةَ.
تَحْفَظِينِي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي لِمَا قَدْ ... كان مني من حسنِ خُلُقٍ وَصُحْبَةٍ.
أَمْ تُرِيدِينَ ذَا جَمَالٍ وَمَالٍ، ... وأنا في الترابِ في سُحْقٍ غُرْبَةٍ.
فأجابته ببكاءٍ وانتحاب:

قَدْ سَمِعْنَا الَّذِي تَقُولُ وَمَا قَدْ ... خِفَّتُهُ يَا خَلِيلُ مِنْ أُمِّ عُقْبَةَ.
أَنَا مِنْ أَحْفَظِ الْأَنَامِ وَأَرْعَا ... هم لِمَا قَدْ أُولِيتُ مِنْ حُسْنِ صُحْبَةٍ.
سَوْفَ أَبْكِيكَ مَا حَيِّتُ بِشَجْوٍ ... وَمَرَاتٍ أَقُولُهَا وَبَنَدَبَةٍ.
قال: فلما قالت ذلك طابت نفسه، وفي النفس ما فيها، فقال:

أَنَا وَاللَّهِ وَاثِقٌ مِنْكَ لَكِنْ ... رَبِّمَا خِفْتُ مِنْكَ غَدْرَ النَّسَاءِ.

بَعْدَ مَوْتِ الْأَزْوَاجِ يَا خَيْرَ مَنْ عُو ... شِرَّ فَارْعِي حَقِّي بِحُسْنِ الْوَفَاءِ.

إِنِّي قَدْ رَجَوْتُ أَنْ تَحْفَظِي الْعَهْ ... دَ، فَكُونِي إِنْ مِتُّ عِنْدَ الرَّجَاءِ.

قال: ثم اعتقل لسانه، فلم ينطق حتى مات. فلم تلبث بعده حتى خطيت من كل جانب، ورغبت فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها من العقل والجمال والعفاف، فقالت بحبيبة لهم:

سَأَحْفَظُ غَسَّانًا عَلَى بُعْدِ دَارِهِ ... وَأُرْعَاهُ حَتَّى نَلْتَقِيَ يَوْمَ نُحْشَرُ.

وَإِنِّي لَفِي شُغْلٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... فَكَفُّوا! فَمَا مِثْلِي بِمَنْ مَاتَ يَغْدُرُ.

سَأُبْكِي عَلَيْهِ مَا حَيَّيْتُ بِعَبْرَةٍ ... تَجُولُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِنِّي وَتَحْدُرُ.

فأيس الناس منها حيناً، فلما مرت بها لأيام نسيت عهده وقال: من مات فقد فات، فأجابت بعض خطابها، فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها جاءها غسانان في النوم، وقد أغفت، فقال:

غَدَرْتُ، وَلَمْ تَرْعِي لِبَعْلِكَ حُرْمَةً، ... وَلَمْ تَعْرِفِي حَقًّا، وَلَمْ تَحْفَظِي عَهْدًا.

وَلَمْ تَصْبِرِي حَوْلًا حِفَاطًا لِمُصَاحِبٍ، ... حَلَفْتُ لَهُ يَوْمًا وَلَمْ تُنْجِزِي وَعْدًا.

غَدَرْتُ بِهِ لَمَّا تَوَى فِي ضَرْيَمِهِ، ... كَذَلِكَ يُنْسَى كُلُّ مَنْ سَكَنَ اللَّحْدَا.

قال: فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة مستحيةً منه كأنه بات معها في جانب البيت، وأنكر ذلك منها من حضرها من نساءها، فقلن: ما لك، وما حالك، وما دهاك؟ فقالت: ما ترك غسان لي في الحياة أرباً، ولا بعده في سرور رغبة. أتاني في منامي الساعة، فأنشدني هذه الأبيات، ثم أنشدتها وهي تبكي بدمع غزير وانتحاب شديد، فلما سمعت ذلك منها أخذن بها في حديث آخر لتنسى ما هي فيه، فغافلتهم وقامت، فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها حياءً مما كادت أن تركب بعده من الغدر به والنسيان لعهدده. فقالت امرأة منهن: قد بلغنا أن امرأة أتاها زوجها في المنام فلامها في مثل هذا، فقتلت نفسها. فما سمعنا به.

قال: وكانت المرأة القائلة هذا الكلام صاحبة شعر ورجز فقالت:

مَاذَا صَنَعْتَ وَمَاذَا ... لَقِيتَ مِنْ غَسَّانِ.

قَتَلْتَ نَفْسَكَ حُزْناً ... يَا خَيْرَةَ النَّسْوَانِ.

وَقَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ ... هَمَمْتَ بِالْعَصِيَّانِ.

إِنَّ الْوَفَاءَ مِنَ اللَّ ... لَمْ يَزَلْ بِمَكَانِ.

قال: فلما بلغ زوجها، وكان يقال له المقدام بن حبيش، وكان قد أعجب بها، أها قالت: ما كان لي مستمتع بعد غسان، قال: هكذا فلتكن النساء في الوفاء، وقل من تحفظ ميتاً، إنما هي أيام قلائل حتى ينسى وعنه يسلى.

فقال هشام: صدق وبر، لجاد ما أدركه عقله وحسن عزائه حين فاتته طلبته. أحسنت المرأة ووقفت، وأحسن الرجل فصبر.^١

قميص الكتمان

كان عويمر العقيلي مشغولاً بابنة عم له، وكان يقال لها ريا، فزوجت برجلٍ، فحملها إلى بلاده، فاشتد وجهه، واعتل علة أخذته الهلاس بها، فدعوا له طبيباً لينظر إليه، فقال له: أخبرني بالذي تجد، فرفع عقيرته فقال:

كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي ... سَلَوْتُ لَكِيْمًا يَنْظُرُوا حِينَ أَصْدُقُ.

وَمَا عَنِ قَلِيٍّ مِنِّي وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، ... وَلَكِنِّي أَبْقَى عَلَيْكَ وَأُشْفِقُ.

وَمَا الْمَجْرُ إِلَّا جَنَّةٌ لِي لِبَسْتِهَا، ... لَتُدْفَعَ عَنِّي مَا يُخَافُ وَيُفَرِّقُ.

عُطِفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ، فَكَسَوْتُهَا ... قَمِيصًا مِنَ الْكِتْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ.

وَلِي عَبْرَتَانِ مَا تُفِيْقَانِ: عَبْرَةٌ ... تَفِيْضُ، وَأُخْرَى لِلصَّبَابَةِ تَخْنُقُ.

وَيَوْمَانِ: يَوْمٌ فِيهِ جِسْمٌ مُعَذَّبٌ ... عَلِيلٌ، وَيَوْمٌ لِلتَّفَرِّقِ مُطْرَقٌ.

وَأَكْثَرُ حَظِّي مِنْكَ أَيْ إِذَا سَرَتْ ... لِي الرِّيحُ مِنْ تَلْقَائِكُمْ أَتَشَقُّ.

^١ مصارع العشاق ١ / ٢٨٩

ثم ذهب عقله، فقال المتطبيب لأهله ومن حضره: ارفقوا به، ثم انصرف. فما مكث إلا ليالي يسيرةً حتى قضى.^١

ابن أبي عتيق ونصيب وسعدى

أراد ابن أبي عتيق الحج، فلقي نصيباً، فقال: هل توصي إلى سعدى بشيء؟ قال: نعم بييتين. قال: ما هما؟ قال:

أَتَصْبِرُ عَنْ سَعْدَى، وَأَنْتَ صَبُورٌ، ... وَأَنْتَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنْكَ جَدِيرٌ.

وَكِدْتُ وَلَمْ أَحْلِقْ مِنَ الطَّيْرِ إِنْ بَدَأَ ... سَنَّا بَارِقٍ نَحْوَ الْحِجَازِ أَطِيرُ.

قال: فخرج ابن أبي عتيق، فوجد سعدى في مجلس لها، فقال لها:

يا سعدى! معي إليك رسالة. قالت: وما هي؟ هاها يا ابن الصديق، فأنشدتها البيتين، فتنفست تنفساً شديداً، فقال ابن أبي عتيق: أوه أجبتك، والله، بأحسن من بيتيه، وعنتك ما ملك أن لو سمعها لنعتق وطار.^٢

عاشق يقتله الصد

^١ مصارع العشاق ١/ ٢٩٢

^٢ مصارع العشاق ١/ ٢٩٦

قال أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجي الطيب الأديب: كنت أختلف في النحو إلى محمد بن خطاب النحوي في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد ابن قاضي قضاة الأندلس أسلم ابن عبد العزيز صاحب المزي والربيع، قال محمد بن الحسن: وكان أجمل من رآته العيون، وكان معنا عند محمد بن خطاب أحمد بن كليب، وكان من أهل الأدب والشعر، فاشتد كلفه بأسلم، وفارق صبره وصرف فيه القول متستراً بذلك، إلى أن فشت أشعاره فيه، وجرت على الألسنة وتنوشدت في المحافل.

فلعهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، والكوري الزامر قاعد في وسط المحفل، وفي رأسه قلنسوة وشر، وعليه ثوب خز عبيدي، وفرسه بالخلية المحلاة بمسكه غلامه، وكان يزمر لأمر المؤمنين الناصر، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كليب في أسلم، وهو:

أَسْلَمَنِي فِي الْهَوَى ... أَسْلَمُ هَذَا الرَّشَا.

غَزَالَ لَهُ مُقْلَةٌ ... يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَا.

وَشَى يَبِينَا حَاسِدٌ ... سَيُسْأَلُ عَمَّا وَشَى.

وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَرْتَشَى ... عَلَى الْوَصْلِ رُوحِي ارْتَشَى.

ومغن محسن يسايره فيها، فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب، ولزم بيته، والجلوس على بابه.

وكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلاً نهاره كله، فامتنع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً، فإذا صلى المغرب، واختلط الظلام خرج مستروحاً، وجلس على باب داره، فعيل صبر أحمد بن كليب فتحيل في بعض الليالي ولبس

جبة صوف من جباب أهل البادية، واعتم بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجاً، وبالأخرى قفصاً فيه بيض، وتحين جلوس أسلم عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدم إليه، وقبل يديه وقال: يا مولاً! تأمر من يقبض هذا؟ فقال له أسلم: ومن أمن؟ فقال: أجيرك في الضيعة الفلانية، وقد كان يعرف أسماء ضياعه والعاملين فيها، فأمر أسلك غلماناً ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في الضياع عند ورودهم ثم جعل يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام، فتأمله فعرفه، فقال له: يا أخي! وإلى هنا بلغت بنفسك، وإلى هنا تنبعني؟ أما كفك انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جملةً وعن القعود على بابي نهاراً، حتى قطعت عني جميع ما لي فيه راحة، فقد صرت من سجنك في حيرة، والله، لا فارقته هذه الليلة قعر متزلي، ولا جلست بعدها على بابي لا ليلاً ولا نهاراً. ثم قال، فانصرف أحمد بن كليب حزناً كثيراً.

قال محمد بن الحسن: واتصل ذلك بنان فقلنا لأحمد بن كليب: قد خسرت دجاجك وبيضك، فقال: هات كل ليلة قبلة يده، وأخسر أضعاف ذلك.

قال: فلما يئس من رؤيته البتة فهكته العلة، وأضحجه المرض.

قال محمد بن الحسن: فأخبرني شيخنا أبو عبد الله محمد بن خطاب قال: فعدته فوجدته بأسوأ حال، فقلت له: ولم لا تتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم في البتة. فقلت له: وما دواؤك؟ قال نظرة من أسلم، ولو سعت في أن يزورني لأعظم الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضاً يؤجر.

قال: فرحمته وتقطعت نفسي له، فنهضت إلى أسلم، فاستأذنت عليه، فأذن لي وتلقاني بما أحب، فقلت له: لي حاجة. قال: وما هلي؟ قلت: قد علمت ما جمعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي، فقال: نعم! ولكن تعلم أنه برح بي وشهر اسمي وأذاني. فقلت: كل

ذلك يغتفر في مثل الحال التي هو فيها، فتفضل بعيادته. فقال لي: والله ما أقدر على ذلك فلا تكلفني هذا. فقلت له: لا بد، فليس عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادة مريض.

قال: ولم أزل به حتى أجاب، فقلت: فقم الآن! فقال لي: لست والله أفعل، ولكن غداً، فقلت له: ولا خلف؟ قال: نعم.

قال: فانصرف إلى أحمد بن كليب وأخبرته بوعده بعد تأييه، بذلك وارتاحت نفسه.

قال: فلما كان من الغد بكرت إلى أسلم وقلت له: الوعد. فوجم، وقال: والله لقد تحمليني على خطة صعبة علي، وما أدري كيف أطيق ذلك. قال: فقلت له: لا بد أن تفني بوعدك لي.

قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلاً، فلما أتينا منزل أحمد بن كليب، وكان يسكن في آخر درب طويل، وتوسط الزقاق وقف واحمر وخجل، وقال لي: يا سيدي، الساعة والله أموت وما أقدر أن أنقل قدمي، ولا أستطيع أن أعرض هذا على نفسي. فقلت له: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل وتنصرف؟ فقال: لا سبيل، والله، إلى ذلك البتة.

ورجع هارباً، فاتبعه فأخذت بردائه، فتمادى وخرق الرداء، وبقيت قطعة منه في يدي لشدة إمساكي له، ومضى ولم أدركه، فرجعت ودخلت على أحمد بن كليب.

وقد كان غلامه دخل عليه، إذ رأنا من أول الزقاق، مبشراً، فلما رأني دونه تغير وجهه وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة، فاستحال من وقته، واختلط، وجعل يقول ويتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من الترجع، فاستبشعت الحال، وجعلت أترجع وقمت، فتاب إليه وجهه، وقال: أبا عبد الله! قلت: نعم! قال: اسمع مني، واحفظ عني. ثم أنشأ يقول:

أَسْلَمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ، ... رَفَقاً عَلَى الْهَائِمِ النَّحِيلِ.

قال: فقلت: اتق الله، ما هذه الكبيرة؟ فقال لي: قد كان. فخرجت عنه، فوالله ما توسطت الزقاق حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا.

قال لنا أبو محمد علي بن أحمد: وهذه قصة مشهورة عندنا. ومحمد بن الحسن ثقة، ومحمد بن خطاب ثقة، وأسلم هذا من بني خلف وكانت فيهم وزارة وحجابة، وهو حاجب الديوان المشهور في غناء زرياب، وكان شاعراً، وابنه الآن في الحياة يكنى أبا الجعد.

قال أبو محمد: ولقد ذكرت هذه الحكاية لأبي عبد الله محمد بن سعيد الخولاني الكاتب، فعرفها، وقال: لقد أخبرني الثقة أنه رأى أسلم هذا في يوم شديد القطر لا يكاد أحد يمشي في طريق، وهو قاعد على قبر أحمد بن كليب المذكور زائراً له قد تحين غفلة الناس في مثل ذلك النهار.

هنيء قد أقبل إليها كأنه بكرة دمامة وضؤولة شخص، وذد كان في حجرها ابن لها كأطيب الولدان وأحسنهم، فلما رأى ذلك الإنسان مقبلاً هش إليه، وعدا في لقائه، فأخذ الصبي، فاحتمله ثم أقبل به يلثم فاه مرةً وعينه أخرى، ويفديه. فقلت في نفسي: أظنه عبداً لهم، حتى جاء فجلس إلى جانبها، وقال: من ضيفكم هذا؟ فأخبرته، فعرفت أنه زوجها وأن الصبي ولده منها، فطفقت أنظر إليه تارةً وإليها أخرى وأتعجب لاختلافهما، كأنها الشمس حسناً، وكأنه قرد قبحاً، ففطن لنظري إليها وإليه، فقال: يا أخا بين أسد! ترى عجبا؟ قلت: أجل، وأبيك، إني لأرى عجباً معجباً.

قال: صدقت! تقول: أحسن الناس وآدم الناس. قلت: نعم، فليت شعري كيف أودم بينكما! قال: أخبرك كيف كان ذلك.

كنت سابع سبعة بينكما! قال: أخبرك كيف كان ذلك.

كنت سابع سبعة أخوة كلهم لو رأيته معهم ظننتني عبداً لهم، وكان أبي وأخوتي يطرحونني، وكنت لكل عمل دنيء: للرواية مرة، ولرعاية الغنم أخرى، وكانت أخوتي هم أصحاب الإبل والخيل. فبينما أنا أرمي الإبل في عام جذب أشهب إذ ضل بعير منها، فقالوا لأبي: ابعث فلاناً يغيه! فدعاني فقال: اذهب فاطلب هذا البعير! فقلت: ما تنصفي أنت ولا بنوك. أما إذا الإبل درت ألبانها وطاب ركوبها، فهم أصحابها، وأما إذا ندت ضلالها، فأنا باغيها. فقال: يا لكع اذهب! أما والله إني لأظنه آخر أيامك من ضرب وجيع.

قال: وظننت أني مضروب، فعدت مضطهداً محقوراً خلق الثياب جائعاً مقروراً، فطفت ليلة في بسابس ليس بها غريب، فبت، ثم أصبحت فغدوت حافياً، حتى دفعت مساء الليلة إلى مظلة، فإذا عجوز وسيمة خليقة للخير والسودد، في عشية بادرة ذات صر، ومعها هذه عدسة نفسها، وهي ابنتها، فأدخلتني العجوز، وأتتني بتمر وعلقتني هذه سحرياً، وهزؤوا بي، وقالت: ما رأينا كالعشية قد فتى أجمل منك، ولا أجكم خلقاً. فقلت: يا هذه جنبيني نفسك، فإني عن الباطل وأهله في شغل.

قالت: ويحك! هل لك أن تدخل هذا الستر علي، إذا نام الحبي، فتحدث وتثلثنا من أمائلك هذه؟ فإننا نراها ملاحاً. فغرني إبليس، لما شبت من القرى، ودفعت من الصلى، وجاء أبوها وأخوتها مثل السباع، واضطجعوا أمام الخيمة، وأنا فيها، فلم يزل بي القدر المحتوم حتى نهضت لألج عليها الستر، فإذا هي نائمة، فهمزتها برجلي، فانتبهت وقالت: من هذا؟ قلت: الضيف. قالت: إياك، فلا حيام الله.

قال الأسد: وهي والله تصدف حياءً من حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت صلاصل لجامها. ثم قالت: لا حسن خبرك، اخرج لعنك الله!.

قال: فسقط في يدي، وعرفت أني لست في شيء، فخرجت لأهرب فرعاً مذعوراً
فهاجني كليب لهم، مثل الفارس لا يطاق مرتبضه، وأراد أكلني، فأرهبته عني، ثم قالت: اذهب
لا صحبتك الله. فلما رجعت عاد الكلب إلي فرهقني، فجعلت أمشي القهقري، وأرهبه لعصية
معي، وهو يركبني بأجرامه، حتى شد علي شدة، فتعلقت أظفاره وأنيابه في مقدم مدرعة
صوف علي، وأهويت من قبل عقي في بئر، وهوى معي، فإذا وهو في قرارها، وقد الله تعالى،
وقدر الله تعالى أنه لم يكن فيها ماء، فسمعت المرأة الوجبة، فأقبلت ومعها حبل حتى أشرفت
علي، ثم أدلت الحبل فقالت: ارتق، لعنك الله! فلولاً أن يقص أثري معك، غدوةً، لوددت أنهما
قبرك.

قال: فتعلقت بالحبل وارتقيت حتى إذا كدت أن أتناول يدها تهور بها ما تحت قدميها من
البئر، وبئر، إنما هي بئر حفر لا طي لها، فإذا أنا وهي والكلب في قرارها، ينبح في ناحية، وهي
تبكي في ناحية، وتدعو بالبشور والفضيحة، وأنا منقبض في ناحية فقر برد جلدي على القتل،
حتى إذا أصبحت أمها تفقدتها عند الصلاة فأتت أباه، فقالت: أتعلم أن ابنتك ليست ههنا؟
فقام، وكان قائفاً عالماً بالآثار، فتحدى أثري وأثرها، حتى تطلع في البئر، فإذا نحن فيها، فرجع
سريعاً، فقال لبنيه: أحتكم وكلبكم وضيغكم في البئر.

قال: فتواثبوا فمن أخذ حجراً، ومن أخذ سيفاً، ومن أخذ عصاً، وهم يريدون أن يجعلوا
البئر قبري وقبرها. فقال أبوها: مه! فإن ابنتي ليست بحيث تظنون. قال: فترل أحدهم،
فأخرجها وأخرج الكلب ثم أخرجوني، فقال أبوهم: إنكم إن قتلتم هذا الرجل طلبتم، وإن
خليتموه افتضحتم، وقد رأيت أن أزوجه إياها، فلعمري! إنه ما يطعن في نسبه، وإنه لكفو، ثم
علي، فقال: هل فيك خير؟ فلما وجدت ريح الحياة، كأنما كان على قلبي غطاء فانكشف،
قلت:

وأين الخير إلا عندي؟ حكمك! قال: خمسين بكرةً وعبدًا وأمةً قلت: لك ما سألت، وإن شئت فازدد. قال: قد ملكتها، فانصرفت حتى أتى أبي، فلما رأي قال: لا مرحباً، ولا أهلاً، فأين البعير؟ قلت: أربع عليك أيها الرجل تسمع الخير، فإنما أنت محدث: كان من الأمر كيت وكيت، قال: ورويت بك زناد أبيك، إذا والله لا تسلم ولا تأخذ، علي بالإبل.

فلما جاءت قال: اعتد حاجتك، فاعتددت منهن خمسين بكرةً كأئمن العذارى، ودفع إلي عبدًا وأمةً مولدين، ثم ساق معي الإبل حتى أتيناها، فدفعنا إليهم حقهم، واحتملنا صاحبتنا، وها هي هذه، جهدها أن تقول كذبت، فاعجب لذلك فعل زهر، أي أكثر العجب.^١

موت جميل بثينة

عن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ لقيني رجل من أصحابي فقال: هل لك في جميل تعود، فإنه ثقيل بالمرض؟ قلت: نعم! فدخلنا عليه، وهو يجود بنفسه، وما يخيل إلي أن الموت علق به، فنظر إلي وقال: يا ابن سعد! ما تقول في رجل لم يزن قط، ولم يشرب خمرًا قط، ولم يسفك دمًا حرامًا قط، يشهد أن لا إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، منذ خمسين سنة.

قال: قلت: من هذا الرجل؟ فأني أضنه، والله، قد نجا، لن الله تعالى يقول: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلًا كريمًا.

قال: أنا. قال: فقلت: والله ما رأيت كالיום أعجب من هذا، وأنت تشب ببيثينة منذ عشرين سنة.

^١ مصارع العشاق ٣٠٢/١

قال: أنا في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة، فلا نالني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريية قط، وإن كان أكثر ما كان مني إليها أني كنت آخذ يدها أضعها على قلبي، فأستريح إليها.

قال: ثم أغمي عليه، ثم أفاق، فقال:

صَدَعَ النَعْيُ وَمَا كُنَى بِجَمِيلٍ، ... وَتَوَى بِمِصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُولٍ.
وَلَقَدْ أَجْرُ الذَّيْلِ فِي وَادِي الْقُرَى، ... نَشْوَانَ بَيْنَ مَزَارِعٍ وَنَخِيلٍ.
قُومِي بُثْنَةً، فَانْدُبِي بَعْوِيلَ، ... وَابْكِي خَلِيلَكَ دُونَ كُلِّ خَلِيلٍ.
ثم أغمي عليه فمات.^١

غشية تجيء وأخرى تذهب

قال أبو المصعب المديني: دخلت على الربيع بن عبيد، وكان قد أخذته زمعة الحب، وتيم عقله، فكان يصيبه كالغفلة حتى يذهب عقله، فسمعتة وهو يخاطب نفسه، ويقول:

الْحُبُّ لَوْ قَطَّعَنِي ... مَا قُلْتُ لِلْحُبِّ ظَلَمٌ.
قَدْ كُنْتُ خَلَوًّا، زَمَنًا، ... فَالْيَوْمَ يَبْدُو مَا كُنْتُ.

قال: قلت كيف أنت برحمك الله؟ فقال: من أنت؟ فقلت: أنا أخوك أبو المصعب. قال: غشية تجيء، وأخرى تذهب، وأنا أتوقع الموت ما بين ذلك. قلت: الله بينك وبين من

^١ مصارع العشاق ٣١١/١

ظلمك. قال: مه، والله ما أحب أن يناله مكروه في الدنيا ولا في الآخرة! ثم تنفس حتى رحمته، وهمت دموعه، وذهب عقله، فقمت عنه.^١

حكاية سلم حبش على بعد العيش

عن أبي مسعود الأسلمي عن أبيه قال: نشأ فينا غلام يقال له عبد الله بن علقمة، وكان جميلاً، فهو جارياً من غير فخذ، يقال لها حبشة، فكان يأتيها، ويتحدث إليها. قال: فخرج ذات يوم من عندها، ومعه أمه، فرأى في طريقه ظبيةً على رابية، فأنشأ يقول:

يا أُمَّنا حَبْرَنا، غَيْرَ كاذِبَةٍ، ... وَلَا تَشْوِي سؤُولَ الْخَيْرِ بِالْكَذِبِ.

حُبَيْشُ أَحْسَنُ أُمِّ ظِيٍّ بَرائِيَةٍ، ... لَا بَلْ حُبَيْشَةٌ مِنْ دُرٍّ وَمِنْ ذَهَبِ.

انصرف من عندها مرةً أخرى، فأصابته السماء، فأنشأ يقول:

وَمَا أَدْرِي، إِذَا أَبْصَرْتُ يَوْمًا، ... أَصَوَّبُ الْقَطَرِ أَحْسَنُ أُمِّ حُبَيْشُ.

حُبَيْشُ، وَالَّذِي خَلَقَ الْبَرَايَا ... عَلَى أَنْ لَيْسَ عِنْدَ حُبَيْشَ عَيْشُ.

فلما كثر ذلك منه وشهر بها، قال قومه لأمه: إن هذا الغلام يتيم، وإن أهل هذه المرأة يرغبون بأنفسهم عنكم، فانظري جاريةً ن قومك ممن لا تمتنع عليك، فزنيها واعرضيها عليه لعله يتعلقها ويسلى، ففعلت، وحضرها نساؤها، فجعلوا يعرفون عليه نساء الحي، ثم يقولون له: يا عبد الله! كيف ترى؟ فيقول: إياها، والله حسناء، إلى ان قال قائل: أهى أحسن أم حبشة؟ فقال: مرعى ولا كالسعدان.

^١ مصارع العشاق ٣١٢/١

فلما يئسوا من أن ينصرف عنها، قال بعضهم لبعض: عليكم بحبيشة، وطمعوا أن ياتوا الأمر من قبلها، فقالوا: والله لئن أتاك، لا تررين به، وتتجهمينه، وتقولين له: أنت أبغض الناس إلي، فلا تقربني، ونحن نمرأى منك ومسمع، ليفعلن بك ما يسوءك، فأتاها، فلم تكلمه بشيء مما قالوا، ولم ترد على أن نظرت إليه، ونظر إليها، ثم أرسلت عينيها بالبكى، فانصرف عنها، وهو يقول:

وَمَا كَانَ حُبِّي عَنْ نَوَالٍ بِذَلَّتِهِ ... وَلَيْسَ مُسْلِيَّ التَّجَهَّمِ وَالْمَجْرُ.

سَيَوَى أَنْ دَائِي مِنْكَ دَاءُ مَوَدَّةٍ ... قَلِيمًا، وَلَمْ يُمَزَجْ كَمَا تُمَزَجُ الْخُمُرُ.

وَمَا أَنْسَ مِلْ أَشْيَاءَ لَا أَنْسَ دَمْعَهَا ... وَنَظَرَتْهَا حَتَّى يُعَيِّنِي الْقَبْرُ.

فبينما هما على أشد ما كانا عليه من الهوى والصبوة، إذ هجم عليهم جيش خالد بن الوليد يوم الغميصاء، فأخذ الغلام رجل من أصحاب خالد، فأراد قتله، فقال له: ألم بي أهل تلك البيوت أقضي إليهن حاجة، افعل ما بدا لك.

قال: فأقبلت به حتى انتهى إلى خيمة منها، فقال: إسلم حبيش بعد انقطاع العيش، فأجابته فقالت: سلمت وحياك الله عشراً، وتسعاً وتراً، وثلاثاً تترى، فلم أر مثلك يقتل صبراً. وخرجت تشتد، وعليها خمار أسود، وقد لاثته على رأسها، وكان وجهها مثل القمر ليلة البدر، فقال حين نظر إليها:

أَرَيْتُكَ إِنْ طَالَبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ ... بَيْرَزَةً، أَوْ إِنْ لَمْ تَقْنِي الْحَرَانِقُ.

أَمَّا كَانَ حَقًّا أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ ... تَكْلَفَ إِدْلَاجَ السُّرَى وَهُوَ رَاهِقٌ.

فَإِنِّي لَا سِرًّا لَدَيَّ أَضَعُّهُ، ... وَلَا رَاقَ عَيْنِي بَعْدَ وَجْهِكَ رَاقِقٌ.

على أن ما بات العشية شاغل، ... فلا ذكر إلا أن تكون توامق.

فها أنا ماسور لديك مكبلن ... وما أنا بعد اليوم بالعتب ناطق.

فأجابته:

أرى لك أسباباً أظنك مُخرجاً ... بها النفس من جنبي والروح زاهق.

فأجابها فقال:

فإن يقتلونني، يا حبيش، فلم يدع ... هواءك لهم مني سيوى غلة الصدر.

وأنت التي قفلت جلدي على دمي ... وعظمي وأسبلت الدموع على النهار.

فأجابته فقالت:

ونحن بكينا من فراقك مرة، ... وأخرى، وقايسنا لك العسر باليسر.

فأنت فلا تبعد، فنعم أخو الندى، ... جميل المحيا في المروعة والبشر.

قال الذي أخبر به: فلم سمعت ذلك منهما أدركتني الغيرة، فضربته ضربة، فقطعت منها

يده وعنقه، فلما رآته قد سقط قالت لي: ائذن لي أن أجمع بعضه إلى بعض، فأذنت لها،

فجمعته وجعلت تمسح التراب عن وجهه بخمارها وتبكي، ثم شهقت شهقة خرجت منها

نفسها.^١

^١ مصارع العشاق ٣١٤/١

موت عروة بن حزام

قال أبو بكر بن المرزبان وأخبرنا أحمد بن زهير، أخبرنا الزبير بن بكار، أخبرنا أبي قال: قال عروة بن الزبير: مررت بوادي القرى فقبل لي: هل لك في عروة بن حزام؟ فقلت: الذي يلقي من الحب ما يلقي؟ قالوا: نعم! فخرجت حتى جئته، فإذا هو في بيت منفرد عن البيوت، وإذا، والله، حوله أخوات له أمثال التماثيل، وأمه وخالته. قال: فقلت له: أنت عروة؟ قال: نعم! قلت: صاحب عفراء؟ قال: صاحب عفراء، ثم استوى قاعداً فقال: وأنا الذي أقول:

وعينان ما أوفيت نشراً فتظنرا ... بما فيهما إلا هما تكفان.

ألا فاحملاني، بارك الله فيكما، ... إلى حاضر البلقاء ثم ذراني.

ثم التفت إلى أخواته فقال:

مَنْ كَانَ مِنْ أُمَّهَاتِي بَاكِياً أَبَدًا، ... فَالْيَوْمَ إِنِّي أُرَاكَ الْيَوْمَ مَقْبُوضًا.

مَنْ كَانَ يَلْحُو فِإِنِّي غَيْرُ سَامِعِهِ، ... إِذَا عَلَوْتُ رِقَابَ الْقَوْمِ مَعْرُوضًا.

قال عروة بن الزبير: فلما سمعت قوله برزن والله يضربن حر الوجوه، ويشقنن جيوبهن.

قال عروة: فقممت، فما وصلت إلى منزلي حتى لحقني رجل فقال: قد مات.^١

^١ مصارع العشاق ٣١٦/١

قصة عروة وعفراء

قال ابن حيويه: إن عروة بن حزام وعفراء ابنة مالك العذريين، وهما بطن من عذرة، يقال لهم بنو هند بن حزام بن ضبة بن عبد بكير بن عذرة، نشأ جميعاً فعلقها علاقة الصبي، وكان عروة يتيماً في حجر عمه، حتى بلغ، فكان يسأل عمه أن يزوجه عفراء فيسوفه، إلى أن خرجت غير لأهله إلى الشام وخرج عروة إليها، ووفد على عمه ابن عم له من البلقاء يريد الحج، فخطبها، فزوجها إياه.

وأقبل عروة في غيره حتى إذا كان بتبوك نظر إلى رفقة مقبلة من نحو المدينة فيها امرأة على جمل أحمر، فقال لأصحابه: والله، إنها شمائل عفراء، فقالوا: ويحك! ما تترك ذكر عفراء لشيء؟ قال: وجاء القوم، فلما دنوا منه وتبين الأمر ييس وبقي قائماً لا يتحرك، ولا يحير كلاماً، ولا يرجع جواباً، حتى بعد القوم، فذلك حيث يقول:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرِكَ رَعْدَةً... لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبٌ.

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً... فَأُبْهَتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ.

فَقُلْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ: دَاوِي، ... فَإِنَّكَ إِنْ أَبْرَأْتَنِي لَطِيبٌ.

فَمَا بِيَ مِنْ حَمِيٍّ وَلَا مَسِّ جَنَّةٍ... وَلَكِنْ عَمِي الْحَمِيرِيُّ كَذُوبٌ.

ثم إن عروة انصرف إلى أهله واخذه البكاء والهلاس حتى نحل، فلم يبق منه شيء، فقال بعض الناس: هو مسحور، وقال قوم: بل به جنة! وقال آخرون: بل هو موسوس، وإن بالحاضر من اليمامة لطيباً يداوي من الجن، وهو أطب الناس، فلو أتيتموه، فلعل الله يشفيه،

فساروا إليه من أرض بني عذرة حتى داواه، فجعل يسقيه السلوان، وهو يزداد سقماً، فقال له عروة: يا هناه! هل عندك للحب دواء أو رقية؟ فقال:

لا والله. فانصرفوا حتى مروا بطبيب بحجر، فعالجه وصنع به مثل ذلك، فقال له عروة: والله ما دائي ودوائي إلا شخص بالبقاء مقيم، فهو دائي، وعنده دوائي.

وفي غير هذه الرواية: شخص بالبقاء مقيم هو ورائي، أي أمرضني وهزلني، والورى داء يكون في الجوف مثل القرحة والسل.

قال سحيم عبد بني الحسحاس:

وَرَاهُنَّ رَبِّي مِثْلَ مَا قَدَّ وَرَيْنِي، ... وَأَحْمَى عَلَى أَكْبَادِهِنَّ الْمَكَوِيَا.

رجع الحديث قال: فانصرفوا به، فأنشأ يقول عند انصرافهم به:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافِ حِجْرِ إِنْ هُمَا شَقِيَانِي.

فقالا: نعم! نشفي من الداء كله، ... وَقَامَا مَعَ الْعَوَادِ يَتَدَرَّانِ.

فَمَا تَرَكَا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانِهَا، ... وَلَا سَلْوَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي.

فقالا: شَفَاكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا لَنَا ... بِمَا ضَمِنْتَ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ.

قال: فلما قدم على أهله، وكان له أخوات أربع ووالدة وخالة، فمرض دهرًا، فقال لهن يوماً، اعلمن أني لو نظرت إلى عفراء نظرة ذهب وجعي، فذهبن به حتى نزلوا البلقاء مستخفين، فكان لا يزال يلهم بعفراء، وينظر إليها، وكانت عند رجل كريم سيد كثير المال والغاشية.

فبينما عروة يوماً بسوق البلقاء، إذ لقيه رجل من بني عذرة فسأله عن حاله ومقدمه، فأخبره. قال: والله لقد سمعت أنك مريض، وأراك قد صححت. فلما أمسى الرجل دخل على زوج عفراء فقال: متى قدم عليكم هذا الكلب الذي قد فضحكم؟ فقال زوج عفراء: أي كلب هو؟ قال: عروة! قال: أوقد قدم؟ قال: نعم! قال: أنت والله أولى بها منه أن تكون كلباً، ما علمت بقدمه، ولو علمت لضممته إلي.

فلما أصبح غدا يستدل عليه حتى جاءه، فقال: قدمت هذا البلد، ولم تنزل بنا، ولم تر أن تعلمنا بمكانك فيكون منزلكم عندنا وعلي، إن كان لكم منزل إلا عندي. قال: نعم! نتحول إليك الليلة، أو في غد. فلما ولى قال عروة لأهله: قد كان ما ترون، وإن أنتم لم تخرجوا معي لأركبن رأسي ولألحقن بقومكم، فليس علي بأس. فارتحلوا وركبوا طريقهم، ونكس عروة ولم يزل مدنفاً، حتى نزل وادي القرى.

وروى العمري عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين أن عفراء لما بلغها وفاة عروة قالت لزوجها: يا هناء! قد كان من أمر هذا الرجل ما بلغك، والله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل، وإنه قد بلغني أنه مات في أرض غريبة، فغن رأيت أن تأذن لي فأخرج في نسوة من قومي فينصبه ويبكين عليه. فقال: إذا شئت، فأذن لها، فخرجت، وقالت ترثيه:

أَلَا أَيُّهَا الرِّكْبُ الْمُخَيَّبُونَ وَيَحْكُمُ! ... بِحَقِّ نَعَيْتُمْ عُرْوَةَ بْنَ حِزَامٍ.

فَلَا هَنَى الْفَتَيَانِ بَعْدَكَ غَارَةً، ... وَلَا رَجْعُوا مِنْ غِيَبَةٍ بِسَلَامٍ.

فَقُلْ لِلْحَبَالَى لَا تُرَجِّينَ غَائِباً، ... وَلَا فَرَحَاتٍ بَعْدَهُ بِغُلَامٍ.

قال: ولم تنزل تردد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فبلغ الخبر معاوية، فقال: لو علمت بهذين الشريفين لجمعت بينهما.

وقد روي مثل هذا الكلام عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن زكريا، حدثنا العيشي عن أبيه قال: لما زُوجت عفراء جعل عروة يضع صدره في أعطان إبلها، وحيث كانت تجلس، فقليل له: اتق الله، فإن هذا غير نافعك، فأنشأ يقول:

بِيَ الْيَأْسِ، أَوْ دَاءِ الْهُيَامِ سُقَيْتُهُ، ... فَإِيَّاكَ عَنِي لَا يَكُنْ بَكَ مَا بَيَا.^١

شهقة الموت

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان بالمدينة رجل من ولد عبد الرحمن بن عوف، وكان شاعراً، وكانت عنده ابنة عم له، وكان لها عاشقاً، وبها مستهتراً، فضاقت ضيقة شديدة، وأراد المسير إلى هشام إلى الرصافة، فمنعه من ذلك ما كان يجد بها وكره فراقها، فقالت له يوماً، وقد بلغ منها الضيق: يا ابن عمي! ألا تأتي الخليفة لعل الله تعالى أن يقسم لك منه رزقاً، فنكشف به بعض ما نحن فيه. فلما سمع ذلك منها نشط للخروج، فتجهز، ومضى، حتى إذا كان من الرصافة على أميال خطر ذكرها بقلبه، وتمثلت له، فلبث ساعة شبيهاً بالمغمى عليه، ثم أفاق، فقال للجمال: احبس، فحبس إبله، فأنشأ يقول:

بَيْنَمَا نَحْنُ فِي بِلَاكْتَ فَالْقَا ... عِ سَرَاعاً، وَالْعَيْسُ تَهْوِي هُوِيَا.

خَطَرَتْ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ ... رَاكَ، وَهَنًا، فَمَا أَطَقْتُ مُضِيَا.

قُلْتُ: لَبَّيْكَ، إِذْ دَعَانِي لَكَ الشَّوْ ... قُ، وَلِلْحَادِيَيْنِ رُدًّا الْمَطِيَا.

فَكَرَّرْنَا صُدُورَ عَيْسٍ عِتَاقٍ، ... مُضْمَرَاتٍ، طُوِينَ بِالسَّيْرِ طِيَا.

^١ مصارع العشاق ١/ ٣١٧

ذَاكَ مِمَّا لَقِينَ مِنْ دَلَجِ السَّيِّ ... رِ، وَقَوْلِ الْحُدَاةِ، بِاللَّيْلِ، هَيَّا.

ثم قال للجمال: ارجع بنا! فقال له: سبحان الله، قد بلغت طيتك! هذه أبيات الرصافة.
فقال: والله لا تخطو غلا راجعة، فرجع، حتى إذا كان من المدينة على قدر ميل لقيه بعض بني
عمه، فأخبره أن امرأته قد توفيت، فشبهق شهقةً، وسقط عن ظهر البعير ميتاً.^١

جنون وعشق

قال إسحاق بن إبراهيم الأبلبي: رأيت غورك يوماً خارجاً من الحمام، والصبيان يؤذونه،
فقلت: ما خبرك أبا محمد؟ قال: قد آذاني هؤلاء الصبيان، أما يكفيني ما أنا فيه من العشق
والجنون؟ قلت: ما أظنك مجنوناً. قال: بلى، والله، وبي عشق شديد. قلت: هل قلت في
عشقك وجنونك شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

جُنُونٌ وَعِشْقٌ ذَا يَرُوحُ وَذَا يَغْدُو، ... فَهَذَا لَهُ حَدٌّ، وَهَذَا لَهُ حَدٌّ.

هُمَا اسْتَوَطَنَا جَسْمِي وَقَلْبِي كِلَاهُمَا، ... فَلَمْ يَبْقَ لِي قَلْبٌ صَحِيحٌ وَلَا جِلْدٌ.

وَقَدْ سَكَنَّا تَحْتَ الْحَشَا، وَتَحَالَفَا ... عَلَى مُهَجِّي الْأُفَّارِقَهَا الْجَهْدُ.

فَأَيُّ طَبِيبٍ يَسْتَطِيعُ بِحِيلَةٍ، ... يُعَالِجُ مِنْ دَاعَيْنِ مَا مِنْهُمَا بُدٌّ.^٢

^١ مصارع العشاق ١ / ٣٢٣

^٢ عقلاء المجانين ص ١١٠ ، ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص

الفاضحة ص ١٦٩ ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، مصارع العشاق ١ / ٣٢٤

الفتى والشيخ العاشق

قال أبو عبد الله الروذباري: دخلت درب الزعفراني، فرأيت فتىً قد صرع شيخاً، وهو يكلمه ويعض حلقه، فقلت له: يا فتى أتفعل هذا بأبيك؟ أباه، فقال: دعني حتى أفرغ منه ثم أحدثك بقصتي، فلما فرغ قلت: يا فتى ما ذنبه؟ قال: إن هذا يزعم أنه يهواني، وله ثلاث ما رأي.

وَكَتَبْتُ فِي فَصِّي أَنَا قِضْهُمَا: ... لَا كَانَ مَنْ يَهُوَى إِذَا رَقَدَا

قَالَتْ: يُنَاقِضُنِي بِخَاتَمِهِ، ... وَاللَّهِ، لَا كَلَمْتُهُ أَبَدًا^١

سلبت عظامي لحمها

قال الخريمي: دخلت حماماً في درب الثلج، فإذا بسوار بن عبد الله القاضي في الحمام، في البيت الداخل، مستلقياً، وعليه المئزر، فجلست بقربه، فسكت ساعة ثم قال لي: قد أحشمتني يا رجل! إما أن تخرج أو أخرج. فقلت: جئت أسألك عن مسألة. فقال: ليس هذا موضع المسائل. قلت: إنما من مسائل الحمام، فضحك وقال: هاكها، فقلت: من الذي يقول:

سَلَبْتُ عِظَامِي لِحْمِهَا، فَتَرَكْتُهَا ... عَوَارِي مِمَّا نَالَهَا تَتَكَسَّرُ

وَأَخْلَيْتُهَا مِنْ مُخِّهَا، فَتَرَكْتُهَا ... أَنَايِبَ فِي أَجْوِفِهَا الرِّيحُ تَصْفِرُ

^١ مصارع العشاق ١ / ٣٢٤

إذا سمعتَ ذِكرَ الفراقِ ترعدتَ ... مفاصلُها خوفاً لِمَا تَنظُرُ

خذي بيدي ثم ارفعي الثوبَ تنظري ... بلى جسدي، لكنني أنستُرُ

فقال سوار: أنا والله قلتها. قلت: فإنه يغني بها، ويجود. فقال: لو شهد عندي الذي يغني بها لأجزت شهادته.^١

قيس ولبنى

خرج قيس بن ذريح إلى المدينة يبيع ناقة له، فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه، فقال له: انطلق معي أعطك الثمن، فمضى معه. فلما فتح الباب، فإذا لبنى، وقد استقبلت قيساً، فلما رآها ولى هارباً، وخرج الرجل في أثره بالثمن ليدفعه إليه، فقال له قيس: لا تركب لي والله مطيتين أبداً. قال: أنت قيس بن ذريح؟ قال: نعم! قال: هذه لبنى قد رأيتها فقف حتى أخيرها، فإن اختارتك طلقتها، وظن القرشي أن له في قلبها موضعاً، وأنها لا تفعل. قال له قيس: افعل. فدخل القرشي عليها، فخيرها، فاختارت قيساً. فطلقها، وأقام قيس ينتظر انقضاء عدتها ليتزوجها، فماتت في العدة.^٢

بهرام جور وابنه الحامل

قال اليمان بن عمرو مولى ذي الرئاستين: كان ذو الرئاستين يبعث أحياناً من أحداث أهله إلى شيخ بخراسان، له أدب وحسن معرفة بالأمور، ويقول لنا: تعلموا منه

^١ المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي ص ٦٤ ، مصارع العشاق ٢ / ٦

^٢ مصارع العشاق ٢ / ٢١

الحكمة، فإنه حكيم، فكنا نأتيه، فإذا انصرفنا من عنده، سألنا ذو الرئاستين واعترض ما حفظناه، فنخبره به. فقصدنا ذات يوم إلى الشيخ فقال: أنتم أدباء، وقد سمعتم ولكم جدات، ونعم، فهل فيكم عاشق؟ فقلنا: لا! فقال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان العبي ويفتح حيلة البليد والمخيل، ويبعث على التنظف وتحسن اللباس، وتطيب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشرف المهمة، وإياكم والحرام! فانصرفنا من عنده إلى ذي الرئاستين، فسألنا عما أخذنا في يومنا ذلك، فهبنا أن نخبره، فعزم علينا، فقلنا: إنه أمرنا بكذا وكذا. قال: صدق والله، تعلمون من أين أخذ هذا؟ قلنا: لا! قال: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص المهمة ساقط المروءة حامل النفس، سيء الأدب، فغمه ذلك، ووكل به المؤدبين والمنجمين والحكماء ومن يلازمه ويعلمه، وكان يسألهم عنه، فيحكمون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه، فحدث من أمره ما صيرنا إلى اليأس من فلاحه. قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقه حتى غلبت عليه، فهو لا يهذي إلا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها. فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه.

ثم دعا بأبي الجارية. فقال له: إني مسر إليك سرّاً، فلا يعدونك، فضمن له ستره، وأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها، تجنت عليه وهجرته، فإن استعبتها أعلمته أنها لا تصلح إلا للملك ومن همته همة ملك، وأنها تمنع من مواصلتها من لا يصلح للملك. ثم ليعلمه خبرها وخبره. ولا يطلعها على ما أسر إليه، فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب الموكل بولده: شجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة ما أمرها به أبوها.

فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته له أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصوالة، حتى مهر في ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء إلى فوق ما تقدم له، فسر الملك بذلك، وأمر له به. ثم دعا مؤدبه فقال: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من حيث هذه المرأة لا يزري به، فتقدم إليه أن يرفع إلي أمرها ويسألني أن أزوجه إياها. ففعل، فرفع الفتى ذلك إلى أبيه، فدعا بأبيها فزوجها إياه، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعوا فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك.

فلما اجتمعوا صار إليه فقال: يا بني لا يضعن منها عندك مراسلتها إياك وليست في حبالك، فإني أنا أمرتها بذلك. وهي أعظم الناس منةً عليك، بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي. وزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك.

ففعل الفتى ذلك وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع مرتبته وشرفه بصيانتته سره وطاعته. وأحسن جائزة المؤدب بامتثاله ما أمره وعقد لابنه على الملك بعده.

قال اليماني مولى ذي الرئاستين، ثم قال لنا ذو الرئاستين: سلوا الشيخ الآن لم حملكم على العشق؟ فسألناه، فحدثنا بحديث بهرام جور وابنه.^١

ماتا معتنقين

^١ زهر الآداب وثمر الألباب ١٠٢٤/٤ ط دار الجليل، بيروت، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٤/ ٢٨٢، نهاية

الأرب في فنون الأدب ٢/ ١٣٩، مصارع العشاق ٢/ ٢١

قال الأصمعي: رأيت بالبادية رجلاً قد دق عظمه، وضؤل جسمه، ورق جلده، فتعجبت فدنوت منه أسأله عن حاله، فلم يرد جواباً، فسألت جماعةً حوله عن حاله، فقالوا: اذكر له شيئاً من الشعر يكلمك، فقلت:

سَبَقَ الْقَضَاءُ بَأَنِّي لَكَ عَاشِقٌ، ... حَتَّى الْمَمَاتِ، فَأَيْنَ مِنْكَ مَذَاهِبِي؟

فشهق شهقة ظننت أن روحه قد فارقت، ثم أنشأ يقول:

أَحْلُو بِذِكْرِكَ لَا أُرِيدُ مُحَدَّثًا، ... وَكَفَى بِذَلِكَ نِعْمَةً وَسُرُورًا

أَبْكِي فَيُطْرِئُنِي الْبُكَاءُ، وَتَارَةً ... يَا بِي، فَيَأْتِي مَنْ أُحِبُّ أُسِيرًا

فَإِذَا أَنَا سَمَحْتُ بِفُرْقَةٍ بَيْنَنَا، ... أُعْقِبْتُ مِنْهُ حَسْرَةً وَزَفِيرًا

قال، فقلت: أخبرني عن حالك؟ قال: إن كنت تريد علم ذلك، فاحملني وألقني على باب تلك الخيمة! ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه جهده:

أَلَا مَا لِلْمَلِيحَةِ لَا تَعُودُ، ... أَبْخُلُ ذَاكَ مِنْهَا أَمْ صُدُودُ؟

فَلَوْ كُنْتُ الْمَرِيضَةَ جِئْتُ أَسْعَى ... إِلَيْكَ، وَلَمْ يُنْهِنِي الْوَعِيدُ

فإذا جارية مثل القمر قد خرجت، فألقت نفسها عليه، فاعتنقا، وطال ذلك فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناس. فلما خفت عليهما الفضيحة. فرقت بينهما، فإذا هما ميتان، فما برحت حتى صليت عليهما، ودفنا، فسألت عنهما فقيل لي: عامر بن غالب وجميلة بنت أميل المزنيان، فانصرفت.

عبد الله بن عجلان صاحب هند

قال ابن سيرين: عبد الله بن عجلان هو صاحب هند بنت كعب بن عمرو، وإنه عشقها، فمرض مرضاً شديداً، حتى ضني، فلم يدر أهله ما به، فدخلت عليه عجوز، فقالت: إن صاحبكم عاشق، فاذبحوا له شاة، وأتوه بكبدها، وغيبوا فؤادها.

قال: ففعلوا وأتوه بها، فجعل يرفع بضعةً ويضع أخرى ثم قال: أما لشاتكم قلب؟ فقال أخوه: ألا أراك عاشقاً ولم تجربنا. فبلغني أنه قال لهم بعد ذلك: آه! ومات.^١

عاشق جارية أخته

قال علي بن ابن دأب: عشق جارية لأخته، وكان سبب عشقه إياها أنه رآها في منامه فأصبح مستطاراً عقله ساهياً قلبه، فلم يزل كذلك حيناً لا يزداد إلا حباً ووجداً، حتى أنكر ذلك أهله وأعلموا عمه عما كان له، فسأله عن حاله، فلم يقر له بشيء، وقال: علة أجدها في جسمي، فدعا له أطباء الروم، فعالجوه بضروب من العلاج، فلم يزدده علاجهم له إلا شراً، وامتنع من الطعام والكلام، فلما رأوا ذلك منه اجتمعوا على أن يوكلوا به امرأة، فتسقيه الخمر حتى يبلغ منه دون السكر، فإن ذلك يدعوه إلى الكلام والبوح بما في نفسه، فعزم رأيهم على ذلك وأعلموا عمه ما اتفقوا عليه، فبعث إليه بقينة يقال لها حمامة، ووكل به حاضنة كانت له، فلما أن شرب الفتى غنت الجارية قدامه، فأنشأ يقول:

دَعُونِي لِمَا بِي وَاتَّخِضُوا فِي كَلَاءَةٍ ... مِنَ اللَّهِ، قَدْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَسْتُ بِأَقِيَا

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ١٥٨، مصارع العشاق ٢/ ٢٧

وَأَنْ قَدْ دَنَا مَوْتِي وَحَانَتْ مَنِيِّ، ... وَقَدْ جَلَبْتُ عَيْنِي عَلَى الدَوَاهِيَا

أُمُوتُ بِشَوْقٍ فِي فُؤَادِي مُبْرِحٍ ... فَيَا وَيْحَ نَفْسِي مَنْ بِهِ مِثْلُ مَا بِيَا

قال: فصارت الحاضنة والقينة إلى عمه، فأخبرته الخبر، فاشتدت له رحمته، فتلطف في دس جارية من حواريه إليه، وكانت ذات أدب وعقل، فلم تزل تستخرج ما في قلبه حتى باح لها بالذي في نفسه، فصارت السفيرة فيما بينه وبين الجارية، وكثرت بينهما الكتب، وعلمت أخته بذلك فانتشر الخبر، فوهبتها له فبراً من علته، وأقام على أحسن حال.^١

الأصمعي يصف العشق

قال الرشيد: يا أصمعي! ما العشق الذي على حقيقته؟ قال: قلت أن يكون ريح البصل منها أطيّب عنده من ريح المسك والعنبر.^٢

ذكر ليلي يعيد عقله

قال أبو عبيدة: وكان المجنون يجلس في نادي قومه، وهم يتحدثون، فيقبل عليه بعض القوم، فيحدثه وهو باهت ينظر إليه ولا يفهم ما يحدثه، ثم يثوب عقله، فيسأل عن الحديث، فلا يعرفه، فحدثه مرةً بعض أهله بحديث، ثم سأله عنه في غد، فلم يعرفه، فقال: إنك لمجنون! فقال:

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢٥٠/٦، مصارع العشاق ٢٧/٢

^٢ مصارع العشاق ٣١ / ٢

إني لأجلسُ في النَّادي أُحدِّثُهُمْ، ... فأستفيقُ، وَقَدْ غَالَتِ الْعُولُ

يَهْوِي بِقَلْبِي حَدِيثُ النَّفْسِ نَحْوَكُمْ ... حَتَّى يَقُولَ جَلِيسِي: أَنْتَ مُحْبُولُ

قال أبو عبيدة: فتزايد الأمر به حتى فقد عقله، وكان لا يقر في موضع ولا يأنس برجل، ولا يعلوه ثوب إلا مزقه، وصار لا يفهم شيئاً مما يكلم به إلا أن تذكر له ليلي، فإذا ذكرت أتى بالبداية ورجع عقله.^١

صوت بأربعة آلاف دينار

عن أبي محمد العامري قال: قال إسماعيل بن جامع: كان أبي يعظني في الغناء، ويضيق، فهربت منه إلى أحوالي باليمن، فأنزلي خالي غرفة له مشرفة على نهر في بستان، فإني لمشرف منها، إذ طلعت سوداء معها قرية، فترلت إلى المشرفة، فجلست فوضعت قربتها وغنت:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بُخْلَهَا وَسَمَاحَتِي، ... لَهَا عَسَلٌ مِنِّي، وَتَبَذَلُ عَلَقَمًا

فُرْدِي مُصَابَ الْقَلْبِ أَنْتِ قَتَلْتِهِ، ... وَلَا تَتْرُكِيهِ هَائِمَ الْقَلْبِ مُغْرَمًا

وذرفت عيناها، فاستغزني ما لا قوام لي به، ورجوت أن ترده، فلم تفعل، وملأت القربة، ونهضت، فترلت أعدو وراءها، وقلت: يا جارية! بأبي أنت وأمي ردي الصوت! قالت: ما اشغلني عنك! قلت: بماذا؟ قالت: علي خراج كل يوم درهمان. فأعطيتها درهمن، فتغنيت وجلست حتى أخذته، وانصرفت، ولهوت يومي ذلك وكرهت أن أتغن الصوت، فأصبحت وما أذكر منه حرفاً واحداً، وإذا أنا بالسوداء قد طلعت، ففعلت كفعلها الأول، إلا أنها غنت غير ذلك الصوت، فنهضت وعدوت في إثرها. فقلت: الصوت قد ذهب علي منه نغمة،

^١ مصارع العشاق ٢ / ٣١

قالت: مثلك لا يذهب عليه نغمة، فتبين بعضه ببعض، وأبت أن تعيده إلا بدرهمين، فأعطيتها ذلك، فأعادته فتذكرته، فقلت: حسبك! قالت: كأنك تكاثر فيه بأربعة دراهم، كأني والله بك، وقد أصبت به أربعة آلاف دينار.

قال ابن جامع: فيينا أنا أغني الرشيد يوماً، وبين يديه أكياس في كل كيس ألف دينار، إذ قال: من أطربني، فله كيس، فغن لي الصوت، فغنيت، فرمى لي بكيس، ثم قال: أعد! فأعدت، فرمى لي بكيس، وقال: أعد، فأعدت، فرمى لي بكيس، فتبسمت، فقال: ما يضحكك؟ قلت: يا أمير المؤمنين، لهذا الصوت حديث أعجب منه، فحدثته الحديث فضحك، ورمى إلي الكيس الرابع، وقال: لا تكذب قول السوداء، فرجعت بأربعة آلاف دينار.^١

يعتل لرؤيتها

كان زياد بن مخراق يجلس إلى إياس بن معاوية. قال: ففقدته يومين أو ثلاثة، فأرسل إليه، فوجده عليلاً. قال: فأتاه، فقال: ما بك؟ فقال له زياد: علة أجدها. قال له إياس: والله ما بك حمي، وما بك علة أعرفها، فأخبرني ما الذي تجد؟ فقال: يا أبا وائلة تقدمت إليك امرأة، فنظرت إليها في نقابها حين قامت من عندك، ف وقعت في قلبي فهذه العلة منها.^٢

وسواس خالد الكاتب

قال أبو الفرج الأصبهاني: كان خالد الكاتب، وهو خالد بن يزيد، ويكنى أبا القاسم، من أهل بغداد، وأصله من خراسان، وكان أحد كتاب الجيش، فوسوس في آخر عمره، وقيل: إن السوداء غلبت عليه، وقال قوم: بل كان يهوى جارية لبعض الملوك ببغداد، فلم

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢٤٨/٦، مصارع العشاق ٣٨/٢

^٢ مصارع العشاق ٣٩/٢

يقدر عليها، وولاه محمد بن عبد الملك العطاء بالثغور، فخرج، فسمع في طريقه منشداً ينشد،
ومغنية تغني:

مَنْ كَانَ ذَا شَجَنِ بِالشَّامِ يَطْلُبُهُ، ... فَفِي حِمَى الشَّامِ لِي أَهْلٌ وَلِي شَجْنُ
فبَكَى حَتَّى سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ مُخْتَلِطًا، وَاتَّصَلَ ذَلِكَ حَتَّى وَسَّوَسَ
وَبَطَلَ.

قال ولخالد مما غني به:

يَا تَارِكَ الْجِسْمِ بِلَا قَلْبٍ؛ ... إِنْ كُنْتُ أَهْوَاكَ فَمَا ذَنْبِي؟
يَا مُفْرَدًا بِالْحُسْنِ أَفْرَدْتَنِي ... مِنْكَ بِطُولِ الْمَجَرِّ وَالْحَبِّ
إِنْ تَكُ عَيْنِي أَبْصَرْتَ فِتْنَةً، ... فَهَلْ عَلَى قَلْبِي مِنْ عَتَبٍ
حَسْبُكَ اللَّهُ لِمَا بِي كَمَا ... أَتُكُّ فِي فِعْلِكَ بِي حَسْبِي^١

أبو ربحانة والجارية السوداء

قال الأصمعي: مررت بالبصرة بدار الزبير بن العوام، فإذا أنا بشيخ أبو ولد الزبير، يكنى
أبا ربحانة، على باب الزبير، ما عليه إلا شملة تستره، فسلمت عليه، وجلست إليه أحدثه، فبينما
أنا كذلك إذ طلعت علينا جارية سوداء تحمل قربة، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها ثم

^١ مصارع العشاق ٢ / ٤٢

قال: يا سَيِّ جَمْعَة، غَنِي لِي صَوْتًا! فَقَالَتْ: إِنَّ مَوَالِيَّ أَعْجَلُونِي. قَالَ: لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ. قَالَتْ: أَمَّا وَالْقَرْبَة عَلَى كَتْفِي فَلَا. قَالَ: فَأَنَا أَحْمِلُهَا. فَأَخَذَ الْقَرْبَة فَحَمَلَهَا عَلَى عُنُقِهِ وَانْدَفَعَتْ، فَغَنَتْ:

فُوَادِي أَسِيرُ لَا يُفَكُّ، وَمُهَجِّي ... تَقْضِي، وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَطُولُ
وَلِي مَهْجَةٌ قَرَحِي لَطُولِ اشْتِيَاقِهَا ... إِلَيْكَ، وَأَجْفَانِي عَلَيْكَ هُمُولُ
كَفَى حَزَنًا أَنِي أُمُوتُ صَبَابَةً، ... بِدَائِي، وَانْصَارِي عَلَيْكَ قَلِيلُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ بِعِلَّةٍ، ... فَأَفْنَيْتُ عِلَاتِي، فَكَيْفَ أَقُولُ؟

قال: فطرب الشيخ، وصرخ صرخة، وضرب بالقربة الأرض فشققها، فقامت الجارية تبكي وقالت: ما هذا جزائي منك يا أبا ریحانة، أسعفتك بحاجتك وعرضتني لما أكره من موالي؟ قال: لا تغتمني، فإن المصيبة علي دخلت دونك.

وأخذ بيدها واتبعته إلى السوق، فترع الشملة، ووضع يداً من قدام ويداً من خلف، وباع الشملة، وابتاع بثمانها قربةً، وقعد على تلك الحال. ورجعت، فجلست عنده، فاجتاز به رجل من الطالبيية، فلما نظر إليه وإلى حالته عرف قصته، فقال: يا أبا ریحانة! أحسبك من الذين قال الله عز وجل: "فما ربحتم تجارتهم وما كانوا مهتدين". فقال: لا يا ابن رسول الله، ولكني من الذين قال الله تعالى فيهم: "فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" فضحك منه العلوي، وأمر له بألف درهم وخلعة.^١

^١ مصارع العشاق ٢ / ٤٣

ليلي ومجنونها

كان في بني عامر من بني الحريش جارية من أجمل النساء، وأحسنهن، لها عقل وأدب، يقال لها ليلي ابنة مهدي بن ربيعة بن الحريش، فبلغ المجنون خبرها، وما هي عليه من الجمال والعقل، وكان صباً بمحادثة النساء، فعمد إلى أحسن ثيابه، فلبسها وتهيأ بأحسن هيئة، وركب ناقةً له كريمة، وأتاها، فلما جلس إليها وتحدث بين يديها، أعجبته، ووقعت بقلبه. فظل يومه يحدثها وتحدثه حتى أمسى، فانصرف، فبات بأطول ليلة من الليلة الأولى، وجهد أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا بَدَأَ ... لِي اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ

أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ، وَبِالْمُنَى ... وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ، بِاللَّيْلِ، جَامِعُ

وأدام زيارتها، وترك إتيان كل من كان يأتيه، فيتحدث إليه غيرها، وكان يأتيها كل يوم فلا يزال عندها نهاره أجمع، حتى إذا أمسى انصرف.

وإنه خرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية عسراء، فتطير من لقاءها فأنشأ يقول:

وَكَيْفَ تَرَجَّيَ وَصَلَ لَيْلِي، وَقَدْ جَرَى ... يَجِدُ الْقَوَى مِنْ لَيْلٍ أَعْسَرُ حَاسِرُ

صَدِيعُ الْعَصَا جَدِبُ الزَّمَانِ إِذَا انْتَحَى ... لَوْصَلَ امْرِئٌ لَمْ يُقْضَ مِنْهُ الْأَوَاطِرُ

ثم صار إليها من غد، فلم يزل عندها. فلما رأت ليلي ذلك منه وقع في قلبها مثل الذي وقع لها في قلبه، فجاء يوماً كما كان يجيء، فأقبل يحدثها، وجعلت هي تعرض عنه بوجهها

وتقبل على غيره، كل ذلك تريد أن تمتحنه، وتعلم ما لها في قلبه، فلما رأى ذلك منها اشتد عليه، وجزع حتى عرف ذلك فيه، فلما خافت عليه، أقبلت كالمشييرة إليه، فقالت:

كِلاْنَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضًا... وَكُلُّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ

فسري عنه، وعلم ما في قلبها، وقالت له: إنما أردت أن أمتحنك، والذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك، وأنا معطية الله عهداً إن أنا جالست بعد هذا يومي رجلاً سواك حتى أذوق الموت، إلا أن أكره على ذاك. قال: فانصرف في عشيتة، وهو أسر الناس بما سمع منها، فأنشأ يقول:

أُظُنُّ هَوَاهَا تَارِكِي بِمَضَلَّةٍ... مِنَ الْأَرْضِ، لَا مَالٌ لَدَيَّ، وَلَا أَهْلُ

وَلَا أَحَدٌ أَفْضَى إِلَيْهِ وَصِيَّتِي،... وَلَا وَارِثٌ إِلَّا الْمَطِيَّةُ وَالرَّحْلُ

مَحَا حُبَّهَا حُبَّ الْأُلَى كُنَّ قَبْلَهَا... وَحَلَّتْ مَكَانًا لَمْ يَكُنْ حُلٌّ مِنْ قَبْلُ^١

صفراء السوداء

كان أبو عبد الله الحبشاني يعشق صفراء العلاقمية، وكانت سوداء، فاشتكى من حبها، وضي حتى صار إلى حد الموت، فقال بعض أهله لمولاهما: لو وجهت صفراء إلى أبي عبد الله الحبشاني، فلعله يعقل إذا رآها؟ ففعل، فلما دخلت عليه صفراء قالت: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: بخير ما لم تبرحي. قالت: ما تشتهي؟ قال: قربك. قالت: فما تشتهي؟ قال:

^١ مصارع العشاق ٢ / ٤٦

حبك. قالت: أفتوصي بشيء؟ قال: نعم! أوصي بك إن قبلوا مني. فقالت: إني أريد الانصراف. قال: فتعجلي ثواب الصلاة علي. فقامت فانصرفت، فلما رآها مولى تنفس الصعداء ومات من ساعته.^١

دعا باسم ليلي

قال عياض بن أحمد السلمي: كنت أجلس إلى الأصمعي فما سمعته سئل فقال حتى أنظر، أو ما أعرفه. قال: وسمعته يقول: كنت مع جعفر بن يحيى في زورق فسمع هاتفاً يهتف باسم جارية، فقال: إن هذا الهاتف يهتف باسم جارية قلبي، فأنشدني في ذا شيئاً، فأنشدته:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من مئى، ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلي غيرها، فكأتما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

فأعطاني عشرة آلاف درهم.

المجنون في مكة

قال أبو عمرو الشيباني: لما ظهر من المجنون ما ظهر ورأى قومه ما ابتلي به، اجتمعوا إلى أبيه وقالوا: يا هذا! قد ترى ما ابتلي به ابنك، فلو خرجت به إلى مكة فعاذ ببيت الله الحرام، وزار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعا الله تعالى، رجونا أن يرجع عقله، ويعافيه الله، فخرج أبوه حتى أتى به مكة، فجعل يطوف به ويدعو الله، عز وجل، له بالعافية. وهو يقول:

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٦/ ٢٤٦، نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/ ١٨٧، مصارع العشاق ٢/ ٤٩

دَعَا الْمُحْرَمُونَ اللَّهَ يَسْتَغْفِرُونَهُ، ... بِمَكَّةَ، وَهَنَاءُ، أَنْ تُمَحِّيَ ذُنُوبَهَا
وَنَادَيْتُ أَنْ يَا رَبِّ أَوَّلُ سُؤْلِي ... لِنَفْسِي لَيْلَى ثُمَّ أَنْتَ حَسِيْبُهَا
فَإِنْ أُعْطِيَ لَيْلَى فِي حَيَاتِي لَا يُتْب ... إِلَى اللَّهِ خَلْقُ تَوْبَةٍ لَا أَتُوبُهَا

حتى إذا كان بمنى نادى مناد من بعض تلك الخيام: يا ليلى، فخر قيس مغشياً عليه،
واجتمع الناس حوله، ونضحوا على وجهه الماء، وأبوه يكي عند رأسه، ثم أفاق وهو يقول:

وَدَاعِ دَعَا، إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى، ... فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْفُؤَادِ وَلَمْ يَدْرِ
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا، فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بَلِيلَى طَائِراً كَانَ فِي صَدْرِي^١

قتلته بالسحر

قال إسحق بن منصور: حدثني جابر بن نوح قال: كنت بمدينة الرسول صلى الله عليه
وسلم، جالساً عند بعض أهل السوق، فمر بي شيخ حسن الوجه حسن الثياب، فقام إليه
البائع فسلم عليه، وقال له: يا محمد! أسأل الله أن يعظم أجرك وأن يربط على قلبك بالصبر.
فقال الشيخ مجيباً له:

وَكَانَ يَمِينِي فِي الْوَعَى وَمُسَاعِدِي، ... فَأَصْبَحْتُ قَدْ خَانَتْ يَمِينِي ذِرَاعُهَا
وَأَصْبَحْتُ حَرَّاناً مِنَ الثُّكُلِ حَائِراً، ... أَخَا كَلْفٍ ضَاقَتْ عَلَيَّ رِبَاعُهَا

^١ مصارع العشاق ٢ / ٥٢

فقال البائع: أبشر يا أبا محمد، فإن الصبر معول المؤمن، وإني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك.

فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجل منا من الأنصار من الخزرج، فقلت: وما قصته؟ قال: أصيب بابنه، وكان به باراً قد كفاه جميع ما يعنيه، وقام به، وميته أعجب ميتة. قلت: وما كان سبب ميته، وما كان خبره؟ قال: أحبته امرأة من الأنصار، فأرسلت إليه تشكو حبها وتسأله الزيارة، وتدعوه إلى الفاحشة. قال: وكانت ذات بعل، فأرسل إليها:

إِنَّ الْحَرَامَ سَبِيلٌ لَسْتُ أَسْلُكُهُ، ... وَلَا أَمُرُّ بِهِ مَا عَشْتُ فِي النَّاسِ

أَلْغِي الْعِتَابَ، فَإِنِّي غَيْرُ مُتَّبِعٍ ... مَا تَشْتَهِيْنَ، فَكُونِي مِنْهُ فِي يَاسٍ

فلما قرأت الأبيات كتبت إليه:

دَعْ عَنْكَ هَذَا الَّذِي أَصْبَحْتَ تَذْكُرُهُ، ... وَصِرْ إِلَى حَاجَتِي يَا أَيُّهَا الْقَاسِي

دَعِ التَّنَسُّكَ إِنِّي غَيْرُ نَاسِكَةٍ، ... وَلَيْسَ يَدْخُلُ مَا أَبْدَيْتَ فِي رَاسِي

قال: فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلِكَ فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك. فقال: والله لا فعلت ولا صرت في الدنيا حديثاً، وللعار في الدنيا خير من النار في الآخرة، وقال:

الْعَارُ فِي مَدَّةِ الدُّنْيَا وَقَلَّتْهَا، ... يَفْنَى وَيَقَى الَّذِي بِالنَّارِ يُؤْذِنِي

وَالنَّارُ لَا تَنْقُضِي مَا دَامَ بِي رَمَقٌ، ... وَلَسْتُ ذَا مِيتَةٍ فِيهَا، فَتُفْنِنِي

لَكِنْ سَأَصْبِرُ صَبْرَ الْحُرِّ مُحْتَسِباً، ... لَعَلَّ رَبِّي مِنَ الْفِرْدَوْسِ يُدْنِيَنِي

قال: وأمسك عنها، فأرسلت إليه: إما أن تزورني، وإما أن أزورك، فأرسل إليها: اربعي أيتها المرأة على نفسك، ودعي عنك التسرع إلى هذا الأمر. قال: فلما أيسست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر، فجعلت لها الرغائب لتهيجه. قال: فعملت لها فيه.

قال: فبينما هو ذات ليلة جالس مع أبيه، إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج به أمر لم يكن يعرفه، واحتلظ، فقام من بين يدي أبيه مسرعاً فصلى واستعاذ وجعل ييكي والأمر يتزايد، فقال له أبوه: يا بني ما قصتك؟ فقال: يا أبت! أدركني بقيد فما أرى إلا وقد غلب علي. قال: فجعل أبوه ييكي ويقول: يا بني حدثني بالقصة، فحدثه بقصته، فقام إليه فقيده وأدخله بيتاً، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ ساعة عند الباب، فإذا هو ميت، وإذا الدم يسيل من منخره.^١

أعشق من كثير عزة

عن المفضل بن الحسن المخزومي قال: دخل كثير عزة على عبد الملك بن مروان، فجعل ينشده شعره في عزة، وعيناه تذرفان، فقال له عبد الملك: قاتلك الله يا كثير! هل رأيت أحداً أعشق منك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت مرة أسير في البادية على بعير لي، فبينما أنا أسير إذ رفع إلي شخص، فأتمته، فإذا رجل قد نصب شركاً للظباء، وقعد بعيداً منه، فسلمت عليه، فرد السلام، فقلت: ما أجلسك ها هنا؟ قال: نصبت شركاً للظباء، فأنا أرصدها. قلت: إن قمت له لديك فصدت أتعمني؟ قال: إي والله.

^١ مصارع العشاق ٢ / ٥٤

قال: فترلت فعقلت ناقتي، وجلست أحدثه فإذا هو أحسن خلق الله حديثاً، وأرقه وأغزله. قال: فما لبثنا أن وقعت ظبية في الشرك، فوثب ووثبت معه فخلصها من الحبال، ثم نظر في وجهها ملياً، ثم أطلقها، وأنشأ يقول:

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَنْ تُرَاعِي، فَإِنِّي ... لَكَ الْيَوْمَ مِنْ بَيْنِ الْوُحُوشِ صَدِيقُ

وَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَنْ تَزَالِي بِرَوْضَةٍ ... عَلَيْكَ سَحَابٌ دَائِمٌ وَبُرُوقُ

فَمَا أَنَا إِذْ شَبَّهْتُهَا ثُمَّ لَمْ تَوْبُ ... سَلِيمًا عَلَيْهَا، فِي الْحَيَاةِ، شَفِيقُ

فَدَيْتُكَ مِنْ أَسْرِ دَهَاكِ لِحُبِّهَا، ... فَأَنْتِ لَلَيْلَى مَا حَيَّتِ طَلِيقُ

ثم أصلح شركه، وعدونا إلى موضعنا، فقلت: والله لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فأقمنا باقي يومنا فلم يقع شيء، فلما أمسينا قام إلى غار قريب من الموضع الذي كنا فيه وقمت معه فبتنا به، فلما أصبح غدا فنصب شركه، فلم يلبث أن وقعت ظبية شبيهة بأختها بالأمس، فوثب إليها ووثبت معه، فاستخرجها من الشرك ونظر في وجهها ملياً ثم أطلقها، فمرت، وأنشأ يقول:

اذْهَبِي فِي كَلَاءَةِ الرَّحْمَنِ، ... أَنْتِ مِنِّي فِي ذِمَّةٍ وَأَمَانِ

تُرْهِيبِي؟ وَالْجَيْدُ مِنْكَ كَلِيلِي، ... وَالْحَشَا وَالْبُعَاثُ وَالْعَيْنَانِ

لَا تَخَافِي بَأْنَ تُفَاجِي بِسُوءٍ ... مَا نَعْنَى الْحَمَامُ فِي الْأَغْصَانِ

ثم عدنا إلى موضعنا فلم يقع يومنا ذلك شيء، فلما أمسينا صرنا إلى الغار، فبتنا فيه، فلما أصبحنا عدل إلى شركه، وغدوت معه، فنصبه، وقعدنا نتحدث وقد شغلني، يا أمير المؤمنين،

حسن حديثه عما أنا فيه من الجوع، فبتنا نتحدث إذ وقعت في الشرك طيبة، فوثب إليها ووثبت معه، فاستخرجها من الشرك، ثم نظر في وجهها وأراد أن يطلقها فقبضت على يده وقلت: ماذا تريد أن تعمل؟ أقمت ثلاثاً كلما صدت شيئاً أطلقته. قال: فنظر في وجهي وعيناه تذرغان وأنشأ يقول:

أَتَلَحَّى مَحِيًّا هَائِمُ الْقَلْبِ أَنْ رَأَى ... شَبِيهَا لَمَنْ يَهُوَاهُ فِي الْحَبْلِ مُوْتَقَا

فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ تَذَكَّرَ شَجْوَهُ، ... وَذَكَرَهُ مَنْ قَدْ نَأَى فَتَشَوَّقَا

قال أبو بكر: وبیت آخر ذهب علي، فرحمته والله، يا أمير المؤمنين، فبكيت لبكائه ونسبته، فإذا هو قيس بن معاذ المجنون، فذاك والله أعشق مني يا أمير المؤمنين.^١

إبراهيم بن المهدي وجارية عمته

اختفى إبراهيم بن المهدي زمن المأمون عند بنت عصمة بنت أبي جعفر عند هربه من المأمون لشدة طلبه له، وكانت تكرمه غاية الكرامة، وتلطفه بالطرائف، وتتفقده في أوقاته، ووكلت به جارية يقال لها ملك، وكانت قد أدبتها، وأنفقت عليها الأموال، وكانت مغنية حاذقة، راوية للأشعار، بارعة الجمال، حسنة القد، عاقلة؛ وقد كانت طلبت منها بخمسين ومائة ألف درهم؛ فكانت تلي خدمة إبراهيم، وتقوم على رأسه، وتتفقده أموره، فهويها، وكره أن يطلبها من عمته، وأن يفجعها بها، وتذمم من ذلك، فلما اشتد وجده بها، وغلب

^١ مصارع العشاق ٢ / ٦٢

حبها عليه، وسكر فهيجه السكر أيضاً، أخذ عوداً وغنى بشعر له فيها، وهي واقفة على رأسه والغناء له:

يا غَزَالاً لي إِلَيْهِ ... شَافِعٌ مِنْ مُقَلَّتِيهِ

وَالَّذِي أَجَلَلْتُ خَدِّي ... وَ، فَقَبِلْتُ يَدِيهِ

بَأبي وَجْهَكَ مَا أَكْ ... ثَرَّ حُسَادِي عَلَيْهِ

أَنَا ضَيْفٌ، وَجَزَاءُ الضُّ ... يَفِي إِحْسَانٌ إِلَيْهِ

فسمعت الجارية الشعر، وفطنت لمعناه لرقتها وظرفها، وكانت مولاتها تسألها عن حالها وحاله في كل يوم، فأخبرتها في ذلك اليوم بما في قلبه منها، وبما سمعت منه من الشعر والغناء، فقالت لها مولاتها: اذهبي فقد وهبتك له! فعادت إليه، فلما رآها أعاد الصوت، فأكبت عليه الجارية فقبلت رأسه، فقال لها: كفى! فقالت: قد وهبني مولاتي لك، وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم.^١

موت المجنون في الوادي

عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي أن رجلاً من أهل الشام كان له أدب، وأنه ذكر له المجنون، وأخبر بخبره، فأحب أن يراه، وأن يسمع من شعره، فخرج يريده، حتى إذا صار

^١ التذكرة الحمدونية ٨ / ٣١١ ، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٤١٩/٣ ط مؤسسة الأعلمي، بيروت ، مصارع

إلى حية سأل عنه، فأخبر أنه لا يأوي إلى مكان، وأنه يكون مع الوحش، قال: فكيف لي بالنظر إليه؟ قيل: إنه لا يقف لأحد حتى يكلمه إلا لدابة له هي التي كانت ربه، فكلّم دابته وسألها، فخرجت معه تطلبه في مظانه التي كان يكون فيها في البرية، فطلبوه يومه ذلك، فلم يقدروا عليه، ثم غدوا في اليوم الثاني يطلبونه، فبينما هم كذلك إذ أشرفوا على واد كثير الحجارة، وإذا به في ذلك الوادي ميت، فاحتمله الرجل ودابته حتى أتيا به الحي، فغسلوه وكفنوه ودفنوه، فقال الرجل: قد كنت أقدر أن أسمع منه شيئاً من شعره ففاتني ذلك فأنشدوني من شعره شيئاً أنصرف به، فأنشدوه أشياء كتبها، وانصرف.^١

امراة على قبر ولدها

قال أبو عبد الله العدوي، حدثني الحسين، سمعت أبي يقول: سمعت مصعباً يقول: قرأت على لوحيْن على قبرين:

أَمْعَطِيْ مَنِيْ عَلَى بَصْرِيْ فِي الْحُبِّ ... بِ أُمِّ أَنْتَ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَ

وَحَدِيثُ أَلَدُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنْعَتُ النَّاعَتُونَ يُوزَنُ وَزَنًا

ورأيت امرأة عند القبرين، وهي تقول: بأبي لم تمتعك الدنيا من لذتها، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى، فأوقرتني كمداً، فصرت مطيةً للأحزان، فليت شعري كيف وجدت مقيلك، وماذا قلت وقيل لك؟ ثم قالت: استودعتك من وهبك لي، ثم سلبني أسر ما كنت بك.

^١ مصارع العشاق ٢ / ٦٦

فقلت لها: يا أمه! ارضي بقضاء الله، عز وجل، وسلمي لأمره! فقالت: هاه نعم! فجزاك الله خيراً، لا حرمني الله أحرك، ولا فتني بفراقك. فقلت لها: من هذا؟ فقالت: ابني، وهذه ابنة عمه، كان مسمى بها وهي صغيرة، فليلة زفت إليه أخذها وجع أتى على نفسها فقضت فانصدع قلب ابني فلحقت روحه روحها فدفنتهما في ساعة واحدة. فقلت: فمن كتب هذا على القبرين؟

قالت: أنا. قلت: وكيف؟ قالت: كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين فحفظتهما لكثرة تلاوته لهما، فقلت: ممن أنت؟ فقالت: فزارية. قلت: ومن قائلهما؟ قالت: كريم ابن كريم، سخي ابن سخي، شجاع ابن بطل، صاحب رئاسة. قلت: من؟ قالت: مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن يقولهما في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الأنصاري. ثم قالت: وهو الذي يقول:

يَا مُتَرَلَّ الْعَيْثَ بَعْدَمَا قَنَطُوا ... وَيَا وَلِيَّ التَّعْمَاءِ وَالْمِنَنِ

يَكُونُ مَا شِئْتَ أَنْ يَكُونَ وَمَا ... قَدَّرْتَ أَنْ لَا يَكُونَ لَمْ يَكُنْ

لَوْ شِئْتَ إِذْ كَانَ حُبُّهَا غَرَضًا، ... لَمْ تُرِنِي وَجْهَهَا، وَلَمْ تُرِنِي

يَا جَارَةَ الْحَيِّ كُنْتَ لِي سَكَنًا، ... إِذْ لَيْسَ بَعْضُ الْجِرَانِ بِالسَّكَنِ

أَذْكَرُ مِنْ جَارَتِي وَمَجْلِسُهَا ... طَرَائِفُ مِنْ حَدِيثِهَا الْحَسَنِ

وَمَنْ حَدِيثِ يَزِيدُنِي مِقَّةً، ... مَا لِحَدِيثِ الْمُؤْمُوقِ مِنْ ثَمَنِ

قال: فكتبته، ثم قامت مولية، فقالت: شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين ما بي من
الأحزان.^١

المطبوع على الكرم

عن أبي عبيدة النحوي قال: كنا نأتي رؤية بن العجاج، فرمنا أعوزنا مطلبه فنطلبه في
مظانه، وكان للحارث بن سليم الهجيمي، وهو أبو خالد بن الحارث، مجلس يؤلف، وكان
رؤية ربما أتاه، فطلبته يوماً، فأتيت مجلس الحارث، فتحدث القوم، وتحدث الحارث قال:
شهدت مجلس أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، فأتى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان،
فقال يا أمير المؤمنين! أتيتك مستعدياً. فقال: على من؟ قال: موسى شهوات. قال: وما له؟
قال: سمع بي، واستطال في عرضي، قال: يا غلام! علي بموسى! فأتي به، فقال أمير المؤمنين:
سمعت به واستطالت في عرضه. قال: ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين، ولكني مدحت ابن عمه،
فغضب هو. قال: وما ذاك؟ قال: يا أمير المؤمنين علقته جارية لم تبلغ ثمنها جدي، فأتيته،
وهو صديقي، فشكوت ذلك إليه، فلم أصب عنده في ذلك شيئاً، فأتيت ابن عمه سعيد بن
خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فشكوت إليه ما شكوت إلى ذلك. قال: تعود إلي،
فتركنه ثلاثاً ثم أتيته، فسهل من أمري، فما استقر المجلس حتى قال: يا غلام! قل لقيمي
وديعي! ففتح باباً بين بايين، فإذا أنا بجارية، فقال لي: هذه بغيتك؟ قلت: نعم! فداؤك أبي
وأمي! قال: اجلس! يا غلام قل لقيمي ظبية نفقي. فأتي بظبية فنثرت بين يديه، فإذا فيها مائة
دينار، وليس فيها غيرها، فردت في الظبية ثم قال: عتيدي التي فيها طيب! فأتي بها، فقال:
ملحفة فراشي! فأتي بها، فصبر ما في الظبية وما في العتيدة في حواشي الملحفة، وقال لي:
شأنك بهواك، واستعن بهذا عليه.

^١ مصارع العشاق ٢ / ٦٨

قال فقال أمير المؤمنين: فذاك حين تقول ماذا؟ فقال:

أيا خالداً! أعني سعيد بن خالدٍ ... أخوا العُرفِ لا أعني ابنَ بنتِ سعيدٍ

ولكنني أعني ابنَ عائشةَ الذي ... أبو أبويهِ خالدُ بنُ أسيدٍ

عقيدُ الندى ما عاشَ يرُضَى به الندى ... فإن ماتَ لم يرَضَ الندى بعقيدٍ

دَعُوهُ دَعُوهُ إنكم قد رَقَدْتُمْ، ... وما هوَ عن أحسابكم برُقودٍ

قال: فقال: يا غلام علي بسعيد بن خالد! فأُتي به، فقال: يا سعيد! أحق ما وصفك به موسى؟ قال: وما هو، يا أمير المؤمنين؟ فأعاد عليه، فقال: قد كان ذلك، يا أمير المؤمنين. قال: فما طوقك ذاك؟ قال: الكلف. قال: فما حملتك الكلف؟ قال: دين، والله يا أمير المؤمنين، ثلاثين ألف دينار، قال: قد أمرت لك بها ومثلها ومثلها، وثلاث مثلها.

فلقيت سعيد بن خالد، بعد حين، فأخذت بعنان دابته، فقلت: بأبي وأمي! ما فعل المال الذي أمر لك بن سليمان أمير المؤمنين. قال: ما علمك به؟ قال: كنت حاضر المجلس يومئذ. قال: والله ما استطعت أن أملك منه ديناراً ولا درهماً، قال: فما اغتاله؟ قال: خلة من صديق أو فاقّة من ذي رحم.^١

أعرابي حذاء الكعبة

^١ التذكرة الحمدونية ٢ / ٢٩٤ ، مصارع العشاق ٢ / ٧٠

قال الحسن بن جعفر بن سليمان الضبعي: كنت لا أكاد أمر في طريق ولا في حاجة إلا ومعني ألواح، فحججت فرأيت أعرابياً تقدم حتى قام حذاء الكعبة ثم قال: تفهموا عني، واحفظوا مقالتي، ثم رفع صوته فقال:

أَلَا يَا مَنْ لَعِينٍ قَدْ عَصْتَنِي، ... وَقَلْبٍ قَدْ أَبَى إِلَّا الْحَيْنَا
وَنَفْسٍ لَا تَزَالُ الدَّهْرَ تَهْفُو ... كَأَنَّهَا لَمَّا تَهْفُو جُنُونًا
أُحِبُّ الْغَانِيَاتِ، وَلَيْسَ قَلْبِي ... بِسَالٍ مَا بَقِيَتْ وَمَا بَقِينَا
وَجُمْلٌ، مَا عَلِمْتُ، غَرِيمٌ سَوْءٌ، ... تُمَنِّينَا وَتَمْطُلُنَا الدُّيُونَا

فرايتي وأنا أكتب ما ينشد، ثم قلت له: ويحك! هذا هو الخسران المبين؛ أتفعل هذا في مثل هذا الموضع؟ قال: بل الخسران المبين ما أنت فيه؛ أنا معذور مسلوب العقل، جئت مستجيراً بربي لما أجد من قلبي، وأنت تكتب بلأيا العاشقين مؤثراً لها في هذا الموضع، تنح عني لا قدس الله روحك!¹

يموت بكل يوم

قال أبو معاذ النميري: لقي مجنون بني عامر الأحوص بن محمد الأنصاري، فقال له: حدثني حديث عروة بن حزام! قال: فجعل الأحوص يحدثه وهو يسمع، حتى فرغ من حديثه، فأنشأ المجنون يقول:

¹ مصارع العشاق ٢ / ٧٥

عَجِبْتُ لِعُرْوَةِ الْعُدْرِيِّ أَمْسَى ... أَحَادِيثًا لِقَوْمٍ بَعْدَ قَوْمٍ
وَعُرْوَةٌ مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرْحِجًا، ... وَهَذَا أَنَا ذَا أُمُوتُ بِكُلِّ يَوْمٍ^١

لا مات ولا عوفي

قال عركن بن الجميح الأسدي: كان لي صديق من الحي، وكان شاباً جميلاً، يعشق ابنة عم له، وكانت له محبة، وكانت هيبة عمه تمنعه أن يخطبها إليه، فحجبت عنه، فكان يأتيني، فيشكو شوقه إليها، فما لبث أن مرض عمه مرضاً أشفى منه، فكان الفتى يدخل إليه، وابنته عند رأسه تمرضه، فيستشفى بالنظر إليها، ثم يخرج إلي مسروراً جذلاً، إلى أن برأ عمه فأنشأ يقول:

أَبْكِي مِنَ الْخَوْفِ أَنْ يَبْرَأَ فَيَحْجُبَهَا ... وَلَكَسْتُ أَبْكِي عَلَى عَمِّي مِنَ الْجَزَعِ
لَا مَاتَ عَمِّي وَلَا عُوفِي مِنَ الْوَجَعِ ... وَعَاشَ مَا عَاشَ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالطَّمَعِ

فخطبت الجارية، فزوجها أبوها غيره، فجاءني الفتى، فقال: ودعني وداعاً لا نتلاقى بعده! فناشدته، فإذا الجزع قد حال دون فهمه، فقلت: فأين تذهب؟ فقال: اذهب ما وجدت أرضاً ونهض، فكان آخر العهد به، وقد التمسه عمه في آفاق البلاد، فما قدر عليه ولم يطل عمر الجارية بعده.^٢

^١ مصارع العشاق ٢ / ٧٥

^٢ مصارع العشاق ٢ / ٧٦

الموت في الحب جميل

قال عبد الوهاب بن أبي حية: نقشت كلثم على فص خاتمها: لا غفر من هجر.
ونقشت خليدة الحيرية: الموت في الحب جميل.^١

حبذا نجد

عن ابن دأب عن رياح، حدثني بعض المشايخ قال: خرجت حاجاً حتى إذا كنت بمعى إذا جماعة على جبل من تلك الجبال، فصعدت إليهم، فإذا معهم فتى أبيض حسن الوجه، وقد علاه اصفرار، وبدنه ناحل، وهم يمسكونه. قال: فسألتهم عنه، فقالوا: هذا قيس الذي يقال له المجنون، خرج به أبوه لما بلى به، يستجير له بيت الله الحرام، وقبر محمد، عليه الصلاة والسلام، ففعل الله يعافيه. قلت لهم: فما بالكم تمسكونه؟ قالوا: نخاف أن يجني على نفسه جناية تتلفه، قال: وهو يقول: دعوني أتسم صبا نجد. فقال لي بعضهم: ليس يعرفك، فلو شئت دنوت منه، فأخبرته أنك قدمت من نجد وأخبرته عنها، قلت: نعم، أفعل، فدنوت منه. فقالوا له: يا قيس، هذا رجل قدم من نجد. قال: فتنفس حتى ظننت أن كبده قد تصدعت، ثم جعل يسألني عن موضع فموضع وواد فواد، وأنا أخبره وهو يبكي، ثم أنشأ يقول:

أَلَا حَبْدًا نَجْدٌ وَطَيْبٌ تُرَابِهِ ... وَأَرْوَاحِهِ إِنْ كَانَ نَجْدٌ عَلَى الْعَهْدِ

^١ مصارع العشاق ٢ / ٧٧

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي! هَلْ عَوَّارَصَتِي قَنَا ... بِطُولِ اللَّيَالِي قَدْ تَغَيَّرَتَا بَعْدِي
وَعَنْ جَارَتَيْنَا بِالنَّثِيلِ إِلَى الْحِمَى، ... عَلَى عَهْدِنَا أَمْ لَمْ تَدُومَا عَلَى الْعَهْدِ
وَعَنْ عَلَوِيَّاتِ الرِّيَّاحِ إِذَا حَرَتْ ... بِرِيحِ الْخُزَامَى هَلْ تَهْبُّ عَلَى بُحْدِ
وَعَنْ أَقْحُوَانِ الرَّمْلِ مَا هُوَ صَانِعٌ ... إِذَا هُوَ أَثَرَى لَيْلَةً بَشَرَى جَعْدًا^١

ظبية بشاة

عن أبي بكر الوالي قال: ذكروا أن المجنون برجلين قد صادتا عتراً من الظباء فلما نظر إليها
دمعت عيناه وقال: يا هذان! خلياها، فأبيا عليه. فقال: لكما مكانها شاة من غنمي. فقبلا
ذلك منه، ودفعاهما إليه، فأطلقهما، ودفع إليهما الشاة، وأنشأ يقول:

شَرَيْتُ بِكَشٍ شِبْهَ لَيْلَى، فَلَوْ أَبِي ... لِأَعْطَيْتُ مَا لِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ
فَيَا بَائِعِي شِبْهَ لَيْلَى هُبْلُتُمَا، ... وَجُنُبْتُمَا مَا نَالَهُ كُلُّ عَائِدِ
فَلَوْ كُنْتُمَا حُرَيْنِ مَا بَعْتُمَا فَتَى ... شَبِيهَاً لِلَّيْلِ بَيْعَةَ الْمُتَرَايِدِ
وَأَعْتَقْتُمَاهَا رَغْبَةً فِي تَوَابِهَا، ... وَلَمْ تَرْغَبَا فِي نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ^٢

^١ مصارع العشاق ٢ / ٧٧

^٢ مصارع العشاق ٢ / ٧٨

سكينة تنقد الشعراء

عن لبطة بن الفرزدق بن غالب قال:

اجتمع أبي وجميل بن معمر العذري وجرير بن الخطفي ونصيب مولى عمر وكثير في موسم من المواسم، فقال بعضهم لبعض: والله لقد اجتمعنا في هذا الموسم لأمر خير أو شر، وما ينبغي لنا أن نتفرق إلا وقد تتابع لنا في الناس شيء نذكر به، فقال جرير: هل لكم في سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، نقصدها، فنسلم عليها، فلعل ذلك يكون سبباً لبعض ما نريد؟ فقالوا: امضوا بنا، فمضينا إلى منزلها، ففرعنا الباب فخرجت إلينا جارية لها بريعة ظريفة، فأقرأها كل رجل منهم السلام باسمه ونسبه، فدخلت الجارية، وعادت فبلغتهم سلامها، ثم قالت أيكم الذي يقول:

سَرَتِ الْهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَامٍ ... وَأَخُو الْهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ

عَفَّتْ مَعَالِمُهَا الرُّوَاسِمُ بَعْدَنَا ... وَسَجَالُ كُلِّ مُجَلِّجٍ سَجَامٍ

دَرَسَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَتَرَلَةِ اللَّوَى ... وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْآيَامِ

طَرَفَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا ... حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

تُجْرِي السَّوَاكُ عَلَى أَغْرِ كَأَنَّهُ ... بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونِ غَمَامٍ

لَوْ كُنْتَ صَادِقَةً بَمَا حَدَّثْتِنَا ... لَوَصَلْتَ ذَاكَ وَكَانَ غَيْرَ تَمَامٍ

قال جرير: أنا قلته. قالت: فما أحسنت ولا أجملت، ولا صنعت صنيع الحر الكريم، لا ستر الله عليك كما هتكت سترك وسترها، ما أنت بكلف ولا شريف حين رددتها بعد هدوء العين، وقد تحشمت إليك هول الليل. هلا قلت:

طَرَفْتُكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ فَمَرْحَباً ... نَفْسِي فِدَاؤُكَ فَادْخُلِي بِسَلَامٍ

خذ هذه الخمسمائة درهم، فاستعن بها في سفرك.

ثم انصرفت إلى مولاتها وقد أفحمتنا، وكل واحد من الباقيين يتوقع ما ينجله، ثم خرجت فقالت: أيكم الذي يقول:

أَلَا حَبْدَا الْبَيْتِ الَّذِي أَنَا هَاجِرُهُ ... فَلَا أَنَا نَاسِيهِ، وَلَا أَنَا ذَاكِرُهُ

فَبُورِكَ مِنْ بَيْتٍ وَطَالَ نَعِيمُهُ ... وَلَا زَالَ مَغْشِيًّا وَخُلِدَ عَامِرُهُ

هُوَ الْبَيْتُ بَيْتُ الطُّوْلِ وَالْفَضْلِ دَائِماً ... وَأَسْعَدَ رَبِّي جَدَّ مَنْ هُوَ زَائِرُهُ

بِهِ كُلُّ مَوْشِيٍّ الذَّرَاعَيْنِ يَرْتَعِي ... أُصُولَ الْخُرَامِيِّ مَا تَيَقَّنَ طَائِرُهُ

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً ... كَمَا انْقَضَ بَازٍ أَقْتَمَ الرِّيشِ كَاسِرُهُ

فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا: ... أَحْيِ نُرْجِي أَم قَتِيلٌ نُحَازِرُهُ

فَأَصْبَحْتُ فِي أَهْلِ وَأَصْبَحَ قَصْرُهَا ... مُعَلَّقَةً أَبْوَابُهُ وَدَسَاكِرُهُ

فقال أبي، يعني الفرزدق: أنا قلته. قالت: ما وفقت ولا أصبت، أما أيسر بتعريضك من عودة عندك محمود؟ خذ هذه الستمائة، فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها، ثم عادت فقالت: أيكم الذي يقول:

فَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصِيبُ ... لَقُلْتُ بِنَفْسِي النَّشْءُ الصَّغَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَشَاهَا، ... إِذَا ظَلِمَتْ فَلَيْسَ وَلَهَا انتِصَارُ

فقال نصيب: أنا قلته. فقالت: أغزلت وأحسنيت وكرمت، إلا أنك صبوت إلى الصغار، وتركت الناهضات بأحمالها. خذ هذه السبعمائة درهم، فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها، ثم عادت فقالت: أيكم الذي يقول:

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزَّ مِنْكَ خَلَاتِقُ ... كِرَامٌ إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعُ
دُئُوكَ حَتَّى يَذْكَرَ الْجَاهِلُ الصَّبِي ... وَمَذْكَرُ أَسْبَابِ الْهَوَى حِينَ يَطْمَعُ
وَأَنْتَ لَا يَدْرِي غَرِيمٌ مَطْلَتِهِ، ... أَيْشْتَدُّ إِنْ لَأَقَاكَ أَمْ يَتَضَرَّعُ
وَأَنْتَ إِنْ وَاصَلْتَ أَعْلَمْتَ بِالَّذِي ... لَدَيْكَ فَلَمْ يَوْجَدْ لَكَ الدَّهْرَ مَطْمَعُ

قال كثير: أنا قلته. قالت: أغزلت وأحسنيت. خذ هذه الثمانمائة درهم، فاستعن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها، وخرجت فقالت: أيكم يقول:

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ، ... وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَعْزَوَةَ، ... وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ

وَأَفْضَلُ أَيَّامِي وَأَفْضَلُ مَشْهَدِي، ... إِذْ هِجَ بِي يَوْمًا وَهَنَ قُعودُ

فقال جميل: أنا قلته. قالت: أغزلت وكرمت وعففت، ادخل. قال: فلما دخلت سلمت، فقالت لي سكينه: أنت الذي جعلت قتيلا شهيدا. وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تنوب فيه عنا، وتدافع، ولم تتعد ذلك إلى قبيح خذ هذه الألف درهم وابسط لنا العذر، أنت أشعرهم.^١

سكينه والفرزدق

قال جهضم بن سالم: بلغني أن الفرزدق بن غالب خرج حاجاً، فمر بالمدينة ودخل على سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب مسلماً عليها، فقالت: يا فرزدق، من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: ليس كما قلت، أشعر منك الذي يقول:

بِنَفْسِي مَنْ تَحْتَبِيهِ عَزِيزٌ ... عَلَيَّ، وَمَنْ زِيَارَتُهُ لَمَامٌ

وَمَنْ أَمْسِي وَأَصْبَحُ لَا أَرَاهُ ... وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

فقال: والله لئن آذنتني لأسمعنك من شعري ما هو أحسن من هذا. فقالت: أقيموه، فخرج. فلما كان من الغد، عاد إليها، فقالت: يا فرزدق! من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: ليس كما قلت؛ أشعر منك الذي يقول:

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنِي اسْتِعْبَارُ، ... وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

^١ مصارع العشاق ٢ / ٧٩

كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الضَّجِيعُ فَرَّاشَهَا ... خُزِنَ الْحَدِيثُ وَعَفَّتِ الْأَسْرَارُ

لَا يُلَبِّثُ الْقُرْنَاءَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ

قال: والله لئن أذنت لي لأسمعنك من شعري ما هو أحسن من هذا، فأمرت به، فأخرج. فلما كان الغد غدا عليها، وحوّلها جوار مولدات، عن يمينها وعن شمالها، كأنهن التماثيل، فنظر الفرزدق واحدة منهن، كأنها ظبية أدماء، فمات عشقاً لها، وجنوناً بها، فقالت: يا فرزدق! من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: ليس كذلك؛ أشعر منك الذي يقول:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ ... قَتَلْنَاهَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَ قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ ... وَهِنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

فقال: يا ابنة رسول الله! إن لي عليك حقاً عظيماً لمواليك ولآبائك، وإني سرت إليك من مكة قاصداً لك إرادة التسليم عليك، فلقيت في مدخلي إليك من التكذيب لي والتعنيف، ومنعك إياي أن أسمعك من شعري ما قطع ظهري وعيل صبري به، والمنايا تغدو وتروح، ولا أدري لعلّي لا أفارق المدينة حتى أموت، فإذا مت فمري من يدفني في درع هذه الجارية، وأوماً إلى الجارية التي كلف بها، فضحكت سكينه حتى كادت تخرج من بردها، ثم أمرت له بألف درهم وكسى وطيب وبالجارية بجميع آلتها، وقالت: يا أبا فراس! إنما أنت واحد منا أهل البيت، لا يسؤك ما جرى. خذ ما أمرنا لك به، بارك الله لك فيه، وأحسن إلى الجارية، وأكرم صحبتها؛ وأمرت الجواري، فدفعن في ظهورهما، فقال الفرزدق، فلم أزل والله أرى البركة بدعائها في نفسي وأهلي ومالي.^١

^١ مصارع العشاق ٢ / ٨٢

سكينة وقبله عزة

دخلت عزة على سكينة بنت الحسين بن علي، ذات يوم، فقالت: يا عزة، أرايتك إن سألتك عن شيء هل تصدقينني؟ قالت: نعم! قالت: ما عني كثير بقوله:

قَضَى كُلُّ دَيْنٍ فَوْفَى غَرِيمِهِ ... وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مَعْنَى غَرِيمِهَا

فتحابت، وقالت: فداؤك أي! إن رأيت أن تعفيني. فقالت: لا أعفيك بل أعزم عليك. قالت: كنت وعدته بقبة، قالت: أنجزها له وعلي إثمها.^١

ليلي المريضة

قال رباح بن حبيب: حدثني بعض بني عامر أن رجلاً أتى يوماً بعد تزويج ليلي وذهاب عقل قيس، فسأل عن المجنون، ف قيل له: ما تريد منه؟ فقال: أريد أن أنظر إليه وأخبره بخبر، ف قيل له: أخبرنا نحن بما عندك، فإنه لا يفهم منك ما تقول، قال: دلوني عليه، على كل حال.

قال: فبعثوا معه برجل، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فقال له الرجل: أتحب ليلي؟ قال: نعم! قال: فما يغني حبك عنها، وهي مريضة لا تأتيها، ولا تسأل عنها؟ قال: فشهو شهوة ظننت أن روحه قد فارقت بدنه، ثم رفع رأسه، وهو يقول:

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالصَّفَاحِ مَرِيضَةٌ ... فَمَاذَا إِذَا تُغْنِي وَأَنْتَ صَدِيقُ

^١ أخبار النساء ص ٢٤٥، مصارع العشاق ٢/ ٨٤

شَفَى اللهُ مَرَضِيَّ بِالصَّفَاحِ فَإِنِّي ... عَلَى كُلِّ شَاكٍ بِالصَّفَاحِ شَفِيقٌ
وَعَذَّبْتُ قَلْبِي بِالتَّجَلُّدِ صَابِيًا ... إِلَيْكَ، وَإِنْ لَمْ يَصْنَفْ عِنْدَكَ مَنَهَلِي
وَلَمَّا نَقَلْتُ الدَّمَاعَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ ... إِلَى سَاحَةِ مَنْ خَدَّ حَرَّانٍ مُعْوِلٍ
وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِرَحْبِهَا، ... وَقَلَقَنِي الْمِجْرَانُ كُلَّ مُقْلَقِلٍ
عَتَبْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَقْلَعْتُ تَائِبًا، ... إِلَيْكَ، خَشَوْعَ الْمَذْنِبِ الْمُتَنَصِّلِ
فَمَا زَادَنِي إِلَّا صُدُودًا وَهَجْرَةً ... وَقَدْ كُنْتُ عَنْ دَارِ الْهُوَانِ بِمَعزَلٍ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي، فَأَشْكُرُ عَامِدًا ... لِآخِرٍ، مَا أَوْلَيْتَنِي أَوْ لِأَوَّلِ

فدنوت منه، ورفقت به، وسألته أن يخبرني بقصته، فأبى، وقال: إليك عني، اشتغل
بنفسيك، فإن لك فيها شغلاً، ولم يعلم أحداً حاله حتى قضى.^١

عبرى مولهة

قال الأصمعي: مررت أنا وصاحب لي بجارية عند قبر، لم أر أحسن ولا أجمل منها،
وعليها ثياب نظيفة وحلي كثير، وهي تبكي على القبر، فلم نزل نتعجب من جمالها وزينتها
وحزنها، فقلت: يا هذه! علام هذا الحزن الشديد؟ فبكت، ثم أنشأت تقول:

فَلَا تَسْأَلَانِي فِيمَ حُزْنِي، فَإِنِّي ... رَهِينَةُ هَذَا الْقَبْرِ يَا فَتَيَانِ

^١ مصارع العشاق ٢ / ٨٦

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِيهِ وَالثَّرْبُ بَيْنَنَا، ... كما كنتُ أَسْتَحْيِيهِ حِينَ يَرَانِي

فعجبنا منها ومن ظرفها وجمالها، واستحيينا منها، فتقدمنا قليلاً، ثم جلسنا نسمع ما تقول، ولا ترانا، ولا تعلم بنا، فسمعناها تقول:

يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ يَا مَنْ كَانَ يُؤْنِسُنِي ... وَكَانَ يُكْثِرُ فِي الدُّنْيَا مُؤَاتَاتِي

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ فِي حُلِيِّ وَفِي حُلِّي ... كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْمُصِيبَاتِ

لَزِمْتُ مَا كُنْتَ تَهْوَى أَنْ تَرَاهُ وَمَا ... قَدْ كُنْتَ تَأْلُفُهُ مِنْ كُلِّ هَيْئَاتِي

فَمَنْ رَأَى رَأَى عَبْرَى مُوَلَّهَةً، ... مَشْهُورَةَ الرَّيِّ تَبْكِي بَيْنَ أَمْوَاتِ

فلم نزل قعوداً حتى انصرفت واتبعناها، حتى عرفنا موضعها، ومن هي، فلما خرجت إلى هارون الرشيد قال لي: يا أصمعي! ما أعجب ما رأيت بالبصرة؟ فأخبرته خبرها، فكتب إلى صاحب البصرة أن يمهرها عشرة آلاف وتجهز وتحمل إليه، فحملت إلى هارون، وقد سقمت حزناً على الميت، فلما وصلت إلى المداين ماتت، فقلما ذكرها هارون إلا دمعت عيناه.^١

حزن شديد

روى هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال: استعمل مروان بن الحكم رجلاً من قریش يقال له: محمد بن عبد الرحمن، على صدقات كعب بن ربيعة بن عامر بن

^١ مصارع العشاق ٢ / ٨٨

صعصعة، فسمع بخبر المجنون، فأمر أن يؤتى به، فسأله عن حاله، فأخبره، وأنشده شعره، فأعجب به، وقال له: الزمني، ووعدته أن يعمل له في أمر ليلي، فكان يأتيه في بعض الأوقات، فيتحدث عنده.

وكان لبني عامر مجتمع يجتمعون إليه في كل سنة مرة، فيأكلون ويشربون يومهم؛ وكان الوالي يخرج إليهم، فيكون معهم في ذلك المجتمع لئلا يكون بينهم شر أو قتل، فحضر ذلك اليوم، فقال المجنون للوالي: أتأذن لي في الخروج معك إلى هذا المجتمع؟ فقال له: نعم. فقبل له: إنما سألك أن يخرج معك ليرى ليلي، وقد استعدى أهلها عليه، فأهدر السلطان دمع إن أتاهم، فلما سمع ذلك منعه من الخروج معه، وأمر له بقلاتص من قلاتص الصدقة فأبى أن يقبلها وقال:

رَدَدْتُ قَلَاتِصَ الْقُرَشِيِّ لَمَّا ... أَتَانِي النَّقْصُ مِنْهُ الْعُهُودُ

وَرَاخُوا مُقْصِرِينَ وَخَلَفُونِي ... إِلَى حُزْنٍ، أَعَالَجُهُ، شَدِيدًا^١

أنتم شغلي، وعندكم عقلي

روى ابن عائشة عن أبيه قال: ولي نوفل بن مساحق صدقات كعب بن ربيعة، فترل بمجمع من تلك الجامع، فرأى قيس بن معاذ المجنون، وهو يلعب بالتراب، فدنا منه، فكلمه وجعل يجيبه بخلاف ما يسأله عنه، فقال له رجل من أهله: إن أردت أن يكلمك كلاماً صحيحاً، فاذكر له ليلي، فقال له نوفل: أتحب ليلي؟ قال: نعم! قال: فحدثني حديثك معها! قال: فجعل ينشده شعره فيها، ويقول:

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ١١٠، الأغاني ١٧/٢ ط دار الفكر - بيروت، مصارع العشاق ٢/ ٨٩

وَشَغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى ... مَا كَانَ فِيكَ، وَأَنْتُمْ شُغْلِي
وَأَدِيمُ نَحْوَ مُحَدَّثِي لِيَرَى ... أَنْ قَدْ فَهَمْتُ، وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي
وَأُنْشِدُ أَيْضاً:

سَرَتْ فِي سَوَادِ الْقَلْبِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى ... بِهَا السَّيْرُ وَارْتَادَتْ حِمَى الْقَلْبِ حَلَّتْ
فَلِلْعَيْنِ تَهْمَالٌ إِذَا الْقَلْبُ مَلَّهَا، ... وَلِلْقَلْبِ وَسْوَاسٌ إِذَا الْعَيْنُ مَلَّتْ
وَوَاللَّهِ مَا فِي الْقَلْبِ شَيْءٌ مِنَ الْهَوَى ... لِأُخْرَى سِوَاهَا أَكْثَرَتْ أَمْ أَقَلَّتْ
وَأُنْشِدُ أَيْضاً:

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدَفَيْنِ لَيْلَى، ... وَكُلَّ الدَّهْرِ ذَكَرَاهَا جَدِيدُ
عَلَيَّ أَلِيَّةٌ إِنْ كُنْتُ أَدْرِي ... أَيْنَقْصُ حُبُّ لَيْلَى أَمْ يَزِيدُ

فلما رأى نوفل ذلك منه أدخله بيتاً، وقيده، وقال: أعالجه، فأكل لحم ذراعيه وكفيه،
فحلّه، وأخرجه، فكان يأوي مع الوحوش، وكانت له داية ربهته صغيراً فكان لا يألف غيرها،
ولا يقرب منه أحد سواها، فكانت تخرج في طلبه في البادية وتحمل له الخبز والماء، فرمى أكل
بعضه، وربما لم يأكل، فلم يزل على ذلك حتى مات.^١

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ١١٢، مصارع العشاق ٢/ ٩٠

قاتل أبيه

قال أبو عبد الله محمد بن إدريس: أن أبا عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، وهو المعروف بالمطلق من بني أمية، كان يعشق جارية كان أبوه قد ربها معه، وذكرها له، ثم بدا له، فاستأثر بها، وخلا معها، فيقال: إنه اشتدت غيرته لذلك وانتضى سيفاً وتغفل أباه في بعض خلواته ليلاً، فقتله، وعثر على ذلك، فحبسه المنصور محمد بن أبي عامر سنين، وقال في السجن أشعاراً رائقة، ثم أطلق فلقب بالمطلق، ويقال: إنه من ذلك اعتراه الجنون، وكان يصرع.^١

عبد الملك والغلام العاشق

عن أبي ریحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال: كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً، فبينما هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصة غير مترجمة، فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغني ثلثة أصوات ثم ينفذ في ما شاء من حكمه. فاستشاط من ذلك غضباً، وقال: يا رباح علي بصاحب هذه القصة. فخرج الناس جميعاً، وأدخل عليه غلام من أجمل الفتيان وأحسنهم، فقال له عبد الملك: يا غلام! أهذه قصتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: ومائتين الذي غرك مني؟ والله لأمثلن بك، ولأردعن بك نظراءك من أهل الخسارة. علي بالجارية! فجيء بها

^١ مصارع العشاق ٢ / ٩٤

كأنها فلقة قمر، وييدها عود، فطرح لها الكرسي، فجلست، فقال عبد الملك: مرها يا غلام!
فقال لها: غنيني يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام ودُّنا، ... وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ غُرُورٍ
وَكُنَّا جَمِيعًا قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الْهَوَى ... بِأَنِّمْ حَالِي غِبْطَةً وَسُرُورٍ
فَمَا بَرَحَ الْوَاشُونَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا ... بَطُونُ الْهَوَى مَقْلُوبَةً لِظُهُورِ

فغنت، فخرج الغلام بجميع ما كان عليه من الثياب تخريقاً، ثم قال له عبد الملك: مرها
تغنك الصوت الثاني! فقال: غنيني بشعر جميل:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادِي الْقُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُثَيْنَةَ قَاتِلِي ... مِنَ الْحُبِّ قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشَ بِهِ ... مَعَ النَّاسِ قَالَتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ مِمَّا جِئْتُ طَالِبًا، ... وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْهَوَى مَنِي إِذَا مَا لَقِيْتُهَا، ... وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا، فَيَعُودُ

قال: فغنته الجارية، فسقط الغلام مغشياً عليه ساعة، ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مرها
فلتغنك الصوت الثالث! فقال: يا جارية غنيني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفِي الْجَبْرِ الْغَادِينَ مِنْ بَطْنٍ وَحَرَّةٍ ... غَزَالَ غَضِيضُ الْمُقْلَتَيْنِ رَيْبُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْعَرِيبَ الَّذِي نَأَى ... وَلَكِنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبُ

فغنته الجارية، فطرح الغلام نفسه من المستشرف فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع، فقال عبد الملك: ويحه لقد عجل على نفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل، وأمر، فأخرجت الجارية من قصره، ثم سأل عن الغلام، فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه:

غداً يكثرُ الباكونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ، ... وَتَزْدَادُ دَارِي مِنْ دِيَارِكُمْ بُعْداً^١

جناية السبع على عاشقين

روى أحمد بن عمر الزهري قال، حدثني عمي عن أبيه قال: خرجت في نشدان صالة لي، فأواني المبيت إلى خيمة أعرابي، فقلت: هل من قرى؟ فقال لي: انزل! فتزلت، فثنى لي وسادة، وأقبل علي يحدثني، ثم أتاني بقرى، فأكلت.

فبينما أنا بين النائم واليقظان، إذا بفتاة قد أقبلت لم أر مثلها جمالاً وحسناً، فجلست، وجعلت تحدث الأعرابي ويحدثها، ليس غير ذلك، حتى طلع الفجر، ثم انصرفت، فقلت: والله لا أبرح موضعي هذا، حتى أعرف خبر الجارية والأعرابي.

قال: فمضيت في طلب ضالتي يوماً، ثم أتيت عند الليل، فأتي بقرى، فبينما أنا بين النائم واليقظان، وقد أبطأت الجارية عن وقتها، قلق الأعرابي، فكان يذهب ويجيء وهو يقول:

ما بال مَيَّةَ لَا تَأْتِي لِعَادَتِهَا، ... أعاجها طَرَبٌ أَمْ صَدَّهَا شُغْلُ

^١ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢ / ١٦٠، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥ / ٩٨، مصارع العشاق ٢ / ١٠١

لَكِنَّ قَلْبِي عَنْكُمْ لَيْسَ يَشْغَلُهُ ... حَتَّى الْمَمَاتِ، وَمَا لِي غَيْرُكُمْ أَمَلُ
 لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ ... لَمَا اعْتَذَرْتُ وَلَا طَابَتْ لَكَ الْعِلَلُ
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ قَدْ أَحْلَلْتِ بِي سَقَمًا ... تَكَادُ مِنْ حَرِّهِ الْأَعْضَاءُ تَنْفَصِلُ
 لَوْ أَنَّ غَادِيَةً مِنْهُ عَلَى جَبَلٍ، ... لَمَادَ وَاهَدًا مِنْ أَرْكَانِهِ الْجَبَلُ

ثم أتاني فأنبهني، ثم قال لي: إن خلتي التي رأيت بالأمس، قد أبطأت علي، وبينى وبينها
 غيضة، ولست آمن السبع عليها، فانظر ما ههنا حتى أعلم علمها، ثم مضى فأبطأ قليلاً، ثم
 جاء بها يحملها، السبع قد أصابها، فوضعها بين يدي، ثم أخذ سيفه، ومضى فلم أشعر إلا وقد
 جاء بالأسد يجره مقتولاً، ثم أنشأ يقول:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ الْمُضِرُّ بِنَفْسِهِ، ... هُبْلَتْ لَقَدْ حَرَّتْ يَدَاكَ لَكَ الشَّرَّاءُ
 أَخْلَفْتَنِي فَرْدًا وَحِيدًا مُدَلِّهَاً، ... وَصَيَّرْتَ آفَاقَ الْبِلَادِ بِهَا قَبْرًا
 أَأَصْحَبُ دَهْرًا خَائِنِي بِفِرَاقِهَا؟ ... مَعَاذَ إِلَهِي أَنْ أَكُونَ بِهَا بَرًّا

ثم أقبل علي فقال: هذه ابنة عمي كانت من أحب الناس إلي، فمنعني أبوها أن أتزوجها،
 فزوجها رجلاً من أهل هذه الأبيات، فخرجت من مالي كله ورضيت بالمقام ههنا على ما
 ترى، فكانت إذا وجدت خلوة أو غفلة من زوجها أتتني، فحدثتني وحدثتها، كما رأيت
 ليس شيء غيره، وقد آليت على نفسي أن لا أعيش بعدها، فأسألك بالحرمة التي جرت بيني
 وبينك، إذا أنا مت فلففني وإياها في هذا الثوب، وادفنا في مكاننا هذا، وأكتب على قبرنا هذا
 الشعر:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا وَالْدَّهْرُ فِي مَهَلٍ، ... وَالْعَيْشُ يَجْمَعُنَا وَالْدَّارُ وَالْوَطَنُ

فَفَرَّقَ الدَّهْرُ بِالتَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا، ... فَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ

ثم اتكأ على سيفه، فخرج من ظهره فسقط ميتاً، فلففتهم في الثوب وحفرت لهما،
فدفنتهما في قبر واحد وكتبت عليه كما أمرني.^١

مات على الجبل

ذكر أبو الحسن المدايني عن محمد بن صالح الثقفي: أن بعض الأعراب عشق جارية من
حيه، فكان يتحدث إليها، فلما علم أهلها بمكانه ومجلسه منها، تحملوا بها، فتبعهم ينظر إليهم،
ففطن به، فلما علم أنه قد فطن به انصرف، وهو يقول:

بَانَ الْخَلِيطُ فَأَوْجَعُوا قَلْبِي، ... حَسْبِي بِمَا قَدْ أَوْرَثُوا حَسْبِي

إِنْ تَكْتُبُوا نَكْتُبْ، وَإِنْ لَا يَكُنْ ... يَأْتِيكُمْ بِمَكَانِكُمْ كُتُبِي

جَدَّ الرَّحِيلُ، فَبَانَ مَا بَيْنَنَا، ... لَا شَأْنٌ أُنِي مُنْقَضٍ نَجِي

قال: ثم وقف على جبل ينظر إليهم ماضين، فلما غابوا عن عينه خر ميتاً.^٢

^١ أخبار النساء ص ٦٥، مصارع العشاق ٢ / ١٠٤

^٢ مصارع العشاق ٢ / ١٠٦

ليلي الغريبة

قال عبد الله بن أبي عبد الله القرشي: وجدت في كتاب بعض أهل العلم أن الهيثم بن عدي حدثهم عن رجل من بني نهد قال: كان رجل منا يقال له: مرة تزوج ابنة عم له جميلة يقال لها: ليلي، وكان مستهماً بها، فضرب عليه البعث إلى خراسان فكره فراقها، واشتد عليه، ولم يجد من ذلك بداً، فقال لها: أكره أن أخلفك، وقلبي متعب بك. قالت: اصنع ما شئت، فمر براذان، وبها رجل من قومه، له شرف وسؤدد، فذكر حاله، وأمر امرأته، وقال: اخلفها عند عيالك وأهلك حتى أقدم، قال: نعم! فأحلوا لها منزلاً، فقرأ، ثم تعجل، فلما صار براذان، جلس قريباً من القصر الذي كانت فيه امرأته، حتى يمسي، وكره أن يدخل نهاراً. فخرجت جارية من القصر، فقال لها: ما فعلت المرأة التي خلفتها عندكم؟ قالت: أما ترى ذلك القبر الجديد؟ قال: بلى! قالت: فإن ذلك قبرها، فلم يصدق حتى خرجت أخرى، فسألها، فقالت له مثل ذلك، فأتى القبر، فجعل يكي ويتمرغ عليه، ويرثيها، فقال:

أَيَا قَبْرِ لَيْلَى! لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعَوَّكَتِ ... عَلَيْهَا نِسَاءٌ مِنْ فَصِيحٍ وَمِنْ عَجَمٍ

وَيَا قَبْرِ لَيْلَى! مَا تَضَمَّنَتْ مِثْلَهَا ... شَبِيهَاً لِلَّيْلِ فِي عَفَافٍ وَفِي كَرَمٍ

وَيَا قَبْرِ لَيْلَى! أَكْرَمَنَّ مَحَلَّهَا، ... تَكُنْ لَكَ مَا عَشِنَا عَلَيْنَا بِهَا نَعَمَ

وَيَا قَبْرِ لَيْلَى، إِنَّ لَيْلَى غَرِيبَةٌ، ... بَرَاذَانُ لَمْ يَشْهَدَكَ خَالٌ وَلَا ابْنُ عَمٍّ^١

يسألني عن عليّ وهو عليّ

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٠٧

قال سعيد بن عبد الله بن راشد قال: علقت فتاةً من العرب فتى من قومها، وكان الفتى عاقلاً فاضلاً، فجعلت تكثر التردد إليه، تسأله عن أمور النساء، وما في قلبها إلا النظر إليه واستماع كلامه، فلما طال ذلك عليها، مرضت وتغيرت، واحتالت في أن خلا لها وجهه وقتاً، فتعرضت له ببعض الأمر، فصرفها، ودفعها عنه، فتزايد بها المرض، حتى سقطت على الفراش، فقالت له أمه: إن فلانة قد مرضت، ولها علينا حق. قال: فعوديتها، وقولي لها: يقول لك ما خبرك؟ فصارت إليها أمه، فقالت لها: ما بك؟ قالت: وجع في فؤادي هو أصل علي، قالت: فإن ابني يقول لك ما علتك؟ فتنفست الصعداء، وقالت:

يُسَائِلُنِي عَنْ عَلِّي وَهُوَ عَلِّي، ... عَجِيبٌ مِنَ الْأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ

فانصرفت أمه إليه، فأخبرته، وقالت له: قد كنت أحب أن نسألها المصير إلينا لنقضي حقها ونلي خدمتها، قال: فسليها ذلك. قالت: قد أردت أن أفعله ولكن أحببت أن يكون عن رأيك. فمضت إليها، فذكرت لها ذلك عنه، فبكت وقبلت، ثم أنشأت تقول:

يُبَاعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ، ... فَلَمَّا أَذَابَ الْجِسْمَ مِنِّي تَعَطَّفَا

فَلَسْتُ بِأَتِ مَوْضِعاً فِيهِ قَاتِلِي، ... كَفَانِي سَقَاماً أَنْ أَمُوتَ كَذَا كَفَى

فألحت عليها؛ فأبت. وترامت العلة بها، وتزايد المرض حتى ماتت.^١

على قبر ابن سريج

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٠٨

حدّث إسحق بن يعقوب مولى آل عثمان عن أبيه قال: إنا لبغناء دار عمرو بن عثمان بالأبطح صبح خامسة من التهاني إذ دريت برجل على راحلة؛ ومعه إداوة جميلة قد جنب إليها فرساً وبغلاً، فوقفا علي، فسألاني، فانتسبت لهما عثمانياً، فترلا، وقالوا: رجلان من أهلك، قد نابتنا إليك حاجة، نحب أن تقضيها قبل الشدة، بأمر الحاج، قلت: فما حاجتكما؟ فالأ: نريد إنساناً يوقفنا على قبر عبيد بن سريج. قال: فنهضت معهما، حتى بلغت بما محلة ابن أبي قارة من خزاعة، بمكة، وهم موالى عبيد بن سريج، فالتمست لهما إنساناً يصحبهما، حتى يوقفهما على قبره بدسم، فوجدت ابن أبي دباكل، فأهضته معهما، فأخبرني ابن أبي دباكل أنه لما وقفهما على قبره، نزل أحدهما عن راحلته، وهو عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان، ثم عقرها واندفع يغني غناء الركبان بصوت طليل حسن:

وَقَفْنَا عَلَى قَبْرِ بَدَسْمٍ، فَهَاجَنَا، ... وَذَكَّرْنَا بِالْعَيْشِ إِذْ هُوَ مُصْحَبُ

فَجَالَتْ بَارِجَاءُ الْجُفُونِ سَوَافِحُ ... مِنَ الدَّمْعِ تَسْتَبْكِي الَّذِي تَتَعَقَّبُ

فَإِنْ تَنْفَدَا عَنْ سَاحَةِ عُبَيْدٍ بَعُولَةٍ، ... وَقَلَّ لَهُ مَنَا الْبُكَى وَالتَّحَوُّبُ

فلما أتى عليها نزل صاحبه، فعقر ناقته، وهو رجل من جذام، يقال له عبيد الله بن المنتشر، فاندفع يتغنى عند الخلوات:

فَارْقُونِي وَقَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا، ... مَا لَمَنْ ذَاقَ مَيْتَةً مِنْ إِيَابِ

إِنَّ أَهْلَ الْحِصَابِ قَدْ تَرَكَونِي ... مُودَعًا مُوَلَعًا بِأَهْلِ الْحِصَابِ

أَهْلِ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلْمَنَايَا، ... مَا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ

سَكَنُوا الْجِزْعَ جَزَعُ بَيْتِ أَبِي مُو ... سَى إِلَى الشَّعْبِ مِنْ صَفَى الشَّبَابِ

كم بذاك الحجون من حيّ صديقٍ ... من كُهلٍ أعفٍّ وشَبَابٍ

قال ابن أبي دباكل: فوالله ما أتم منها ثالثاً، حتى غشي على صاحبه، ومضى غير معرج عليه، حتى إذا فرغ جعل ينضح الماء في وجهه، ويقول: أنت أبداً منصوب على نفسك من كلفات ما ترى، فلما أفاق قرب إليه الفرس، فلما علاه استخرج الجذامي من خرج على البغل قدحاً، وإداوة، فجعل في القدح تراباً من تراب القبر، وصب عليه ماء، ثم قال: هاك! فاشرب، هذه السلوة، فاشرب، ثم جعل الجذامي مثل ذلك لنفسه، ثم نزل على البغل، وأردفني، فخرجنا، لا والله ما يعرجان ولا يعرضان بذكر شيء مما كانا فيه، ولا أرى في وجوههما مما كنت أرى قبل شيئاً. قال: فلما اشتمل علينا أبطح مكة مد يده إلي بشيء، وإذا عشرون ديناراً، فوالله ما جلست حتى ذهبت ببيعري، واحتملت أداة الراحلتين، فبعتهما بثلاثين ديناراً.^١

قتلها الجوى

قال أبو منيع عبد لآل الحارث بن عبيد قال: رأيت شيخاً من كلب قاعداً على رأس هضبة، فملت إليه، فإذا هو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: رحمةً لجارية منا كانت تحب ابن عم لها، وكان أهلها بأعلى واد بكلب، فتزوجها رجل من أهل الكوفة، فنقلها إلى الكوفة، فقتلها الجوى وبلغ منها الشوق، فأوت في عليّة لها، فتغنت بهذا الشعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَشْرَفْتُ أَطُولَ مَا أَرَى ... وَكَلَّفْتُ عَيْنِي مَنْظَرًا مُتَعَادِيًا

وَقُلْتُ: زِيَادُ مُؤْنِسِي مُتَهَلِّلٌ، ... أَمْ الشَّوْقُ يُدِينِي مِنْهُ مَا لَيْسَ دَانِيَا

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٤ / ٢٧٩، مصارع العشاق ٢ / ١١٠

وَقُلْتُ لِبَطْنِ الْجِنِّ حِينَ لَقِيْتُهُ: ... سَقَى اللهُ أَعْلَالَ السَّحَابِ الْعَوَادِيَا
ثم قبضت مكانها.^١

فتوى في الحب

كتب بعض أهل الأدب إلى أبي بكر بن داود الفقيه الأصبهاني:

يا ابن داود، يا فقيه العراق ... أفتنا في قَوَاتِلِ الْأَحْدَاقِ
هل عليها الْقِصَاصُ في القتلِ يوماً، ... أم حَلَالٌ لَهَا دَمُ الْعُشَّاقِ؟
فأجابه ابن داود:

عِنْدِي جَوَابُ مَسَائِلِ الْعُشَّاقِ، ... فَاسْمَعُهُ مِنْ قَلِقِ الْحَشَا مُشْتَاقِ
لَمَّا سَأَلْتَ عَنِ الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى ... أَجَرَيْتَ دَمْعاً لَمْ يَكُنْ بِالرَّاقِي
أَخْطَأْتَ فِي نَفْسِ السُّؤَالِ، وَإِنْ تُصِيبُ ... بَكَ فِي الْهَوَى شَفَقاً مِنَ الْأَشْفَاقِ
لَوْ أَنَّ مَعْشُوقاً يُعَذِّبُ عَاشِقاً، ... كَانَ الْمُعَذِّبُ أَنْعَمَ الْعُشَّاقِ^٢

الحب لا يعلق إلا الكرام

^١ مصارع العشاق ٢ / ١١٥

^٢ مصارع العشاق ٢ / ١١٩

اجتمع أبو نواس والعباس بن الأحنف، فاستنشد أبو نواس العباس، فأنشده:

حُبُّ الْحِجَازِيَّةِ أَبْلَى الْعِظَامِ، ... وَالْحُبُّ لَا يَلْقُ إِلَّا الْكَرَامَ

سَيِّدِي، سَيِّدِي! إِنَّهُ ... لَيْسَ لِمَا بِالْعَاشِقِينَ اكْتِنَامٌ

سَيِّدِي، سَيِّدِي! إِنِّي ... أَعْجُزُ عَنْ حَمْلِ الْبَلَايَا الْعِظَامَ

سَيِّدِي، سَيِّدِي! فَاسْمَعِي ... دَعْوَةَ صَبٍّ عَاشِقٍ مُسْتَهَامٍ

ومر في أبيات كثيرة أول كل بيت سيدي سيدي، فقال له أبو نواس: لقد خضعت لهذه المرأة خضوعاً، ظننت معه أنك تموت قبل تمام القصيدة.^١

يزيد بن معاوية وعمارة المغنية

كانت عند عبد الله بن جعفر جارية مغنية يقال لها عمارة، وكان يجذبها وجداً شديداً، وكان لها ثمة مكان لم يكن لأحد من جواريه، فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه فزاره يزيد، ذات يوم، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها، وسمع غناءها، وقعت في نفسه، فأخذها عليها ما لا يملكه، وجعل لا يمنعه من أن ييوح بما يجذبها إلا مكان أبيه مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتم الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها، وكيف الحيلة فيها، فقبل له: إن أمر عبد الله بن جعفر لا يرام، ومثرت له من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت؛ وأنت لا تستجيز

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٢٥

إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبداً، وليس يغني في هذا إلا الحيلة، فقال: انظروا لي رجلاً عراقياً له أدب وظرف ومعرفة، فطلبوه، فأتوه به، فلما دخل رأى بياناً وحلاوةً وفهماً، فقال يزيد: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظك آخر الدهر ويد أكافئك عليها إن شاء الله تعالى؛ ثم أخبره بأمره، فقال له: عبد الله بن جعفر ليس يرام ما في قلبه إلا بالخدعة، ولن يقدر أحد على ما سألت، فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعني بالمال. قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طرف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك، ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعريصة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسل إليه وقال: إني رجل من أهل العراق قدمت بتجارة وأحببت أن أكون في عز جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به، فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرمانة أن أكرم الرجل، ووسع عليه في نزوله.

فلما اطمأن العراقي سلم عليه أياماً وعرفه نفسه، وهياً له بغلةً فارهةً، وثياباً من ثياب العراق والطفافاً، فبعث بها إليه، وكتب معها: يا سيدي! إني رجل تاجر، ونعم الله علي سابغة، وقد بعثت إليك بشيء من تحف وكذا من الثياب والعطر، وبعثت ببغلة خفيفة العنان، وطبقة الظهر، فاتخذها لرجلك، فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألا قبلت هديتي ولم توحشني بردها، إني أدين الله تعالى بحبك وحب أهل بيتك، وإن أعظم أمني في سفرتي هذه أن أستفيد الأُنس بك والتحرم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مر بالعراقي في منزله، فقام إليه، وقبل يده، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وفصاحةً، فأعجب به وسر بتزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بلطف تطرفه، فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكراً، وما نقدر على مكافأته.

فإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس، وسمع غناء عمارة، تعجب، وجعل يزيد في عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سر به إلى أن قال له: هل رأيت مثل عمارة! قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها، وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية، حسن وجهه، وحسن عمل، قال: فكم تساوي عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة؟ قال: تقول هذا لترين لي رأياً فيها وتحتلب سروري؟ قال له: يا سيدي، والله، إني لأحب سرورك، وما قلت لك إلا الجدد، وبعد فإني تاجر أجمع الدراهم إلى الدرهم، طلباً للربح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم! ولم يكن في لك الزمان جارية تعرف بهذا الثمن. فقال له عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتها. قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبد الله لم يشعر إلا بالمال قد جيء به، فقبل لعبد الله: قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار، وقال: هذا ثمن عمارة، فردها، وكتب إليه: إنما كنت أمزح معك، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها. فقال له: جعلت فداك! إن الجدد والمهزل في البيع سواء. فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جاريةً تساوي ما بذلت، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحاً، وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموضعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنت مازحاً، فإني كنت جاداً، وما اطلعت على ما في نفسك وقد ملكت الجارية، وبعثت إليك بثمانها، وليس تحل لك، وما لي من أخذها من بد. فمانعه إياها، فقال له: ليست لي بينة، ولكني أستحلفك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنبره.

فلما رأى عبد الله الجدد قال: بئس الضيف أنت، ما طرقنا طارق، ولا نزل بنا نازل أعظم بليةً منك، أتخلفني فيقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفه وقهره وأجأه إلى أن استحلفه؟ أما والله ليعلمن الله، عز وجل، أي سألبيه، في هذا الأمر، الصبر وحسن العزاء.

ثم أمر قهرمانة بقبض المال منه، وبتجهيز الجارية بما يشبهها من الخدم والثياب والطيب، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، وقال: هذا لك ولك عوضها مما ألطفتنا، والله المستعان.

فقبض العراقي الجارية وخرج بها، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة! إني، والله، ما ملكتك قط، ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري دارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأسلمه أحب الناس إليه لنفسي، ولكني دسيس من يزيد بن معاوية، وأنت له وفي طلبك بعث بي فاستتري مني، وإن داخلني الشيطان في أمرك، أو تافت نفسي إليك فامتنعي.

ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس بمجازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد، فأقام الرجل أياماً، ثم تلى لدخول عليه، فشرح له القصة، ويروى أنه لم يكن أحد من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونسكاً، فلما أخبره قال: هي لك وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، وارجل من يومك، فلا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام.

فرحل العراقي ثم قال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين خرجت بك من المدينة، فأخبرت أنك ليزيد، وقد صرت لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وإني قد رددتك عليه، فاستتري مني.

ثم خرج بها حتى قدم المدينة، فتزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفك الذي صنع بنا ما صنع، وقد نزل العرصة، لا حياه الله، فقال عبد الله: مه! أنزلوا الرجل وأكرموا.

فلما استقر بعث إلى عبد الله: جعلت فداك! إن رأيت أن تأذن لي أذنة خفيفة لأشافهك بشيء فعلت. فأذن له، فلما دخل سلم عليه، وقبل يده، فقربه عبد الله، ثم اقتص عليه القصة،

حتى إذا فرغ قال: قد والله وهبتها لك قبل أن أراها، وأضع يدي عليها، فهي لك، ومردودة عليك. وقد علم الله تعالى أنني ما رأيت لها وجهاً إلا عندك. فبعث إليها، فجاءت وجاء بما جهزها به موفراً، فلما نظرت إلى عبد الله حرت مغشياً عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمها إليه.

وخرج العراقي وتصايح أهل الدار: عمارة عمارة، فجعل عبد الله يقول، ودموعه تجري: أحلم هذا، أحق هذا؟ ما أصدق بهذا. فقال له العراقي: جعلت فداك! قد ردها عليك إيثارك الوفاء وصبرك على الحق وانقيادك له. فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أنني تصبرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسلمت لأمرك، فردتها علي. منك، فلك الحمد! ثم قال: يا أبا العراق ما في الأرض أعظم منة منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقي أياماً، وباع عبد الله غنماً له بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقهريمان: احملها إليه، وقل له: اعذر، واعلم أنني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلاً لأكثر منه، فرحل العراقي محموداً وافر العرض والمال.^١

رقية حميرية

حكى بعضهم عن شيخ من أهل اليمن أنه وجد في كتاب بالمسند، وهي لغة حمير، كلاماً كانت حمير ترقى به العاشق، فيسلو. وهو:

ما أحسنت سلمى إليك صنيعة، ... تَرَكَتْ فؤادَكَ بالفراقِ مَرُوعاً

^١ المجلس الصالح ص ٣٥٢، مصارع العشاق ١٢٥/٢

قال: فحدثت بهذا الحديث كاهنةً كانت هناك، فلما كان من غد ذلك اليوم، لقيتني فقالت: إني رأيت البارحة الشعر يحتاج أن يقلب كلامه وحروفه، حتى يسلو به العاشق. قلت: فكيف يقلب كلامه؟ قالت: يقول مروعاً بالفراق فؤادك تركت صنيعاً إليك سلمى. أحسنت ما.^١

عمر وجميل وبشينة

عن أبي عبد الله القرشي قال: خرج عمر بن أبي ربيعة إلى الجباب، حتى إذا كان بالجباب لقيه جميل بن معمر، فاستنشدته عمر بن أبي ربيعة، فأنشدته كلمته التي يقول فيها:

خَلِيلِيَّ فِي مَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

ثم استنشدته جميل، فأنشدته قافيته التي أولها:

عَرَفْتُ مَصِيفَ الْحَيِّ وَالْمُتْرَبَعَا

حتى بلغ إلى قوله:

وَقَرَّبَنَ أَسْبَابَ الْهَوَى مُتَيِّمٍ ... يَقِيسُ ذِرَاعًا قِسنَ إصْبَعَا

فصاح جميل واستحيا، وقال: لا والله ما أحسن أن أقول مثل هذا. فقال له عمر: اذهب بنا إلى بشينة لتحدث عندها؟ فقال له: إن الأمير قد أهدر دمي متى جئتها، قال: دلني علي

^١ مصارع العشاق ١٣٠/٢

أبياتها؟! فدلّه، ومضى حتى وقف على الأبيات، وتأنّس، وتعرف، ثم قال: يا جارية أنا عمر بن أبي ربيعة، فأعلمني بثينة مكاني! فأعلمتها، فخرجت إليه فقالت: لا والله يا عمر! ما أنا من نسائك اللاتي تزعم أن قد قتلهن الوجد بك. قال:

وإذا امرأة طوالة أدماء حسناء، فقال لها عمر: فأين قول جميل:

وَهُمَا قَالَتَا: لَوْ أَنَّ جَمِيلًا ... عَرَضَ الْيَوْمَ نَظْرَةً فَرَأَانَا

نَظَرْتُ نَحْوَ تَرْبِهَا ثُمَّ قَالَتْ: ... قَدْ أَتَانَا، وَمَا عَلِمْنَا، مُنَانَا

بَيْنَمَا ذَاكَ مِنْهُمَا رَأَيْنِي ... أَعْمِلُ النَّصَّ سِيرَةً زَفَيَانَا

فقالت له: لو استمد جميل منك ما أفلح، وقد قيل: اشدّد البعير مع الفرس إن تعلم جرأته وإلا تعلم من خلقه.^١

العجوز وبنتها الجميلة

قال سودة بن الحسين: خرجت أنا وصاحب لي نبغي ضالةً لنا، فألجأنا الحر إلى أحيبة، فدنونا من خباء منها، فإذا عجوز بفنائها، فسلمنا، فردت السلام، ثم جلسنا نتناشد الأشعار. فقالت العجوز: هل فيكم من يروي لذي الرمة شيئاً؟ قلنا: نعم! قالت: قاتله الله حيث يقول:

وَمَا زَالَ يَنِمِّي حُبُّ مَيَّةَ عِنْدَنَا ... وَيَزْدَادُ حَتَّى لَمْ نَجِدْ مَا يَزِيدُهَا

^١ مصارع العشاق ١٣٣/٢

ثم ولت، واطلعت علينا من الخباء بهكنة كأنها شقة قمر، فقالت: إنها والله ما قالت شيئاً وإن أشعر منه الذي يقول:

وَرَحْصَةَ الْأَطْرَافِ مَمْكُورَةٍ ... تَحْسِبُهَا مِنْ حُسْنِهَا لَوْلَوْ

كَأَنَّهَا بَيِّضَةُ أُذْحِيَّةٍ، ... أَرْخَى عَلَيْهَا هِقْلُهَا جُؤْجُؤَ

قال: فأقبلت على صاحبي متعجباً من حالها، فقالت: مم تعجب؟ فقلت: من جمالك.
قالت: فوالله لو رأيت بنية لي رأيت ما لم يخطر على قلبك من حسن امرأة. قلت: فأرينيها!
قالت: إنه يقبح ذلك. قلت: إنما نريد أن نستتم الحديث، ولعلنا أن لا نلتقي أبداً.

قال: فأشارت إلى جانب الخباء، فسفرت منه جارية كأنها الشمس، فبهتتا ننظر إليها ثم أسبلت الستر، فكان آخر العهد بها.^١

أحيا الناس جميعاً

قال موسى بن علقمة المكي: كان عندنا ههنا بمكة نخاس، وكانت له جارية، وكان يوصف من جمالها وكمالها أمر عجيب، وكان يخرجها أيام الموسم، فتبذل فيها الرغائب، فيمتنع من بيعها، ويطلب الزيادة في ثمنها، فما زال كذلك حيناً، وتسامع بها أهل الأمصار، فكانوا يحجون عمداً للنظر إليها.

^١ مصارع العشاق ١٣٤/٢

قال: وكان عندنا فتى من النساك قد نزع إلينا من بلده، وكان مجاوراً عندنا، فرأى الجارية يوماً، في أيام العرض لها، فوقع في نفسه، وكان يجيء أيام العرض، فينظر إليها، وينصرف. فلما حجت أحزنه ذلك، وأمضه مرضاً شديداً، فجعل يذوب جسمه، وينحل، واعتزل الناس، فكان يقاسي البلاء طول السنة إلى أيام الموسم، فإذا خرجت الجارية إلى العرض خرج فنظر إليها فسكن ما به، حتى تحجب. فبقي على ذلك سنين، ينحل ويذبل، وصار الخلال من شدة الوله وطول السقم. قال: فدخلت عليه يوماً، ولم أزل به، وألح عليه، إلى أن حدثني بحديثه، وما يقاسيه، وسأل أن لا أذيع عليه ذلك، ولا يسمع به أحد، فرحمته لما يقاسي، وما صار إليه، فدخلت إلى مولى الجارية، ولم أزل أحادثه، إلى أن خرجت إليه بحديث الفتى، وما يقاسي، وما صار إليه، وأنه على حالة الموت، فقال: قم بنا إليه حتى أشاهده وأنظر حاله.

فقمنا جميعاً فدخلنا عليه، فلما دخل مولى الجارية ورآه وشاهده، وشاهد ما هو عليه لم يتمالك أن رجع إلى داره، فأخرج ثياباً حسنة سرية، وقال: أصلحوا فلانة، ولبسوها هذه الثياب، واصنعوا بها ما تصنعون لها أيام الموسم، ففعلوا بها ذلك، فأخذ بيدها، وأخرجها إلى السوق، ونادى في الناس، فاجتمعوا، فقال: معاشر الناس! اشهدوا أنني قد وهبت جاريتي فلانة لهذا وما عليها ابتغاء ما عند الله. ثم قال للفتى: تسلم هذه الجارية فهي هدية مني إليك. مما عليها، فجعل الناس يعذلونهم ويقولون: ويحك! ما صنعت؟ قد بذل لك فيها الرغائب، فلم تبعها، ووهبتها لهذا؟ فقال: إليكم عني، فإني قد أحيت كل من على وجه الأرض، قال الله تعالى: "ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعاً".^١

^١ مصارع العشاق ١٣٥/٢

تضحية محمودة

قال محمد بن يعقوب الضبي، سمعت أُمِّي تقول، سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول:

صادفت من أبي عثمان خلوةً، فاغتنمتها، فقلت: يا أبا عثمان! أي عملك أرجى عندك؟ فقال: يا مريم! لما ترعرعت، وأنا بالري، وكانوا يريدوني على التزويج، فأمتنع، جاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان! قد أحبيتك حباً ذهب بنومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب، وأتوسل إليك به أن تتزوج بي. قلت: ألك والد؟ قالت: نعم، فلان الخياط، في موضع كذا وكذا، فراسلت أباهما أن يزوجهما إياي، ففرح بذلك وأحضر الشهود، فتزوجت بها. فلما دخلت بها وجدتها عوراء عرجاء مشوهة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي.

فكان أهل بيتي يلوموني على ذلك، فأزيدها براً وإكراماً، إلى أن صارت بحيث لا تدعني أخرج من عندها، فتركت حضور المجلس إيثاراً لرضاها، وحفظاً لقلبها، ثم بقيت معها على هذه الحال خمس عشرة سنة، وكأني في بعض أوقاتي على الجمر، وأنا لا أبدي لها شيئاً من ذلك إلى أن ماتت، فما شيء أرجى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي.^١

ابن داود وابن سريج والظهار

كان أبو بكر محمد بن داود وأبو العباس بن سريج، إذا حضرا مجلس القاضي أبي عمر، يعني محمد بن يوسف، لم يجريا بين اثنين في ما يتفاوضان أحسن مما يجري بينهما، وكان ابن سريج كثيراً ما يتقدم أبا بكر في الحضور إلى المجلس، فتقدمه في الحضور أبو بكر يوماً، فسأله

^١ مصارع العشاق ١٣٦/٢

حدث من الشافعين عن العود الموجب للكفارة في الظهار ما هو؟ فقال: إنه إعادة القول ثانياً، وهو مذهبه، ومذهب داود، فطالبه بالدليل، فشرع فيه، ودخل ابن سريج، فاستشرحهم ما جرى، فشرحوه، فقال ابن سريج لابن داود: أولاً يا أبا بكر أعزك الله! هذا قول، من من المسلمين تقدمكم فيه؟ فاستشاط أبو بكر من ذلك، وقال: أتقدر أن من اعتقدت أن قولهم إجماع في هذه المسألة، إجماع عندي؟ أحسن أحوالهم أن أعدهم خلافاً، وهيهات أن يكونوا كذلك. فغضب ابن سريج وقال له: أنت يا أبا بكر بكتاب الزهرة أمهر منك في هذه الطريقة. فقال أبو بكر: وبكتاب الزهرة تعيرني! والله ما تحسن تستتم قراءته قراءة من يفهم، وإنه من أحد المناقب إذ كنت أقول فيه:

أُكْرِرُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلِي، ... وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ الْمُحَرَّمَ

رَأَيْتُ الْهَوَى دَعَايَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، ... فَمَا إِنْ أَرَى حُبًّا صَحِيحًا مُسْلَمًا

وَيَنْطِقُ سِرِّي عَنْ مُتَرَجِّمِ خَاطِرِي، ... فَلَوْلَا اخْتِلَاسُ رَدِّهِ لَتَكَلَّمَا^١

الفتى الحاج والجارية المكية

وجدت بخط أبي عمر بن حيويه يقول: حدثنا أبو بكر محمد بن المرزبان، أخبرني أبو جعفر أحمد بن الحارث، حدثنا أبو الحسن المدايني عن بعض رجاله قال: حج ابن أبي العنيس الثقفى، فجاور، ومعه ابن ابنه، وإلى جانبهم قوم من آل أبي الحكم مجاورون، وكان الفتى

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٨/ ١٨٦، المقتطف من أزاهر الطرف ص ٢١٤ ط شركة أمل، القاهرة،

يجلس مجلساً يشرف منه على جارية، فعشقهها، فأرسل إليها، فأجابته، فكان يأتيها يتحدث إليها. فلما أراد جده الرحيل جعل الفتى يبكي، فقال له جده: ما يبكيك يا بني، لعلك ذكرت مصر؟ وكانوا من أهل مصر. فقال: نعم! وأنشأ يقول:

يُسَائِلُنِي، غَدَاةَ الْبَيْنِ، حَدِّي، ... وَقَدْ بَلَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ نَحْرِي:

أَمِنْ جَزَعٍ بَكَيْتَ، ذَكَرْتَ مِصْرًا؟ ... فَقُلْتُ: نَعَمْ! وَمَا بِي ذَكَرُ مِصْرٍ

وَلَكِنْ لِّلِّي خَلْفْتُ خَلْفِي، ... بَكَتْ عَيْنِي، وَقَلَّ الْيَوْمَ صَبْرِي

فَمَنْ ذَا إِنْ هَلَكْتُ وَحَانَ يَوْمِي ... يُخَبِّرُ وَالِدِي دَائِي وَأَمْرِي

فِيَحْفَظُ أَهْلُ مَكَّةَ فِي هَوَاتِي، ... وَإِنْ كَانُوا أَتَوْا قَتَلِي وَضُرِّي

قال: وارتحلوا، فلما خرجوا عن أبيات مكة أنشأ يقول:

رَحَلُوا، وَكُلُّهُمْ يَحِنُّ صَبَابَةً ... شَوْفًا إِلَى مِصْرَ، وَدَارِي بِالْحَرَمِ

لَيْتَ الرِّكَّابِ، غَدَاةَ حَانَ فِرَاقُنَا، ... كَانَتْ لِحُومًا قُسِّمَتْ فَوْقَ الْوَضَمِ

رَاحُوا سِرَاعًا يُعْمِلُونَ مَطْبَهُمْ ... قُدُمًا، وَبَتَّ مِنَ الصَّبَابَةِ لَمْ أَنْمُ

طُوبَى لَهُمْ يَبْغُونَ فَصَدَّ سَبِيلَهُمْ، ... وَالْقَلْبُ مُرْتَهَنٌ بَبَيْتِ أَبِي الْحَكَمِ

ثم إن الفتى اعتل، واشتدت علته، فلما وردوا أطراف الشام

مات فدفنه جده، ووجد عليه وجداً شديداً، وقال يرثيه:

يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ الْغَرِيبِ ... بِالشَّامِ مِنْ طَرَفِ الْكَثِيبِ

بِالشَّعْبِ بَيْنَ صَفَائِحِ ... صُمُّ تُرْصَفُ بِالْجُنُوبِ

مَا إِنْ سَمِعْتُ أَنِيَّهُ، ... وَنِدَاءَهُ عِنْدَ الْمَغِيبِ

أَقْبَلْتُ أَطْلُبُ طِبَّهُ، ... وَالْمَوْتُ يَعْضُلُ بِالطَّيِّبِ

وَاللَّيْلُ مُنْسَدِلُ الدَّجَى، ... وَحَشُّ الْجَنَابِ مِنَ الْغُرُوبِ

هَاجَتْ لِذَلِكَ لَوْعَةٌ ... فِي الصَّدْرِ ظَاهِرَةُ الدِّيْبِ^١

يقتل حبيبته وينتحر

عن أبي مسكين قال: خرج ناس من بني حنيفة يتتزهون فبصر فتى منهم بجارية فعشقها، فقال لأصحابه: انصرفوا حتى أقيم وأرسل إليها، فطلبوا إليه أن يكف، وأن ينصرف، فأبى، وانصرف القوم، وجعل يرأسل الجارية حتى وقع في نفسها، فأقبل في ليلة إضحيان متقلداً قوساً، والجارية نائمة بين إخوتها، فأيقظها، فقالت: يا فاسق انصرف وإلا، والله أيقظت إخواني، فقاموا إليك، فقتلوك، فقال: والله للموت أهون علي مما أنا فيه، ولكن أعطيني يدك أضعها على فؤادي وأنصرف، فأعطته يدها، فوضعها على فؤاده وصدره، ثم انصرف.

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٣٩

فلما كانت الليلة القابلة أتاها، وهي في مثل حالها، فأيقظتها، فقالت: له مثل مقاتلتها الأولى، ورد هو عليها مثل قولها، وقال: لك الله علي إن أمكنتني من شفتيك أرتشفهما أن أنصرف، ثم لا أعود إليك، فأمكنته من شفتيها ثم انصرف، ووقع في نفسها مثل النار، ونذر به الحي، فقالوا: ما لهذا الفاسق في هذا الحي ذاهباً وجائياً؟ انهضوا بنا حتى نخرجه. فأرسلت إليه أن القوم يأتونك الليلة، فالحذر، فلما أمسى خرج ناحية عن الحي، فقعد على مرقب له ومعه قوسه وأسهمه، وكان أحد الرماة، وأصاب الحي من النهار مطر، فلهوا عنه، فلما كان في آخر الليل ذهب السحاب، وطلع القمر، فخرجت تريده، وقد أصابها الندى، فنشرت شعرها، وكانت معها جارية من الحي، فقالت: هل لك في عباس، وهو اسمه، فخرجتتا تمشيان، فنظر إليهما، وهو على المرقب، فظن أنهما ممن يطلبه، فرمى بسهمه فما أخطأ قلب الجارية، ففلقه، وصاحت الجارية التي كانت معها، وانحدر من المرقب الذي كان عليه، فإذا هو بالجارية متضمنخة بدمها، فقال عند ذلك، وهو يبكي:

نَعَبَ الْغُرَابُ بِمَا كَرِهَ ... تُوْلَا إِزَالَةَ لِلْقَدَرِ

تَبْكِي، وَأَنْتَ قَتَلْتَهُمَا، ... فَاصْبِرْ، وَإِلَّا فَانْتَحِرْ

قال: ثم وجأ نفسه بمشاقصه، حتى مات. وجاء الحي فوجدوهما ميتين، فدفنوهما في قبر واحد.^١

الأشتر وجيداء

^١ عيون الأخبار ٤ / ١٣١ ط دار الكتب العلمية - بيروت ، العقد الفريد ٨ / ١٦٨ ط دار الكتب العلمية -

بيروت ، مصارع العشاق ٢ / ١٤٣

عن نمير بن قحيف الهلالي قال: كان في بني هلال فتى يقال له بشر، ويعرف بالأشتر، وكان سيداً حسن الوجه، شديد القلب، سخي النفس، وكان معجباً بجارية من قومه تسمى جيداء، وكانت الجارية بارعة، فاشتهر أمره وأمرها ووقع الشر بينه وبين أهلها، حتى قتلت بينهم القتلى، وكثرت الجراحات، ثم افترقوا على أن لا يتزل أحد منهم بقرب الآخر.

فلما طال على الأشتر البلاء والهجر جاءني ذات يوم، فقال يا نمير! هل فيك من خير؟ قلت: عندي كل ما أحببت. قال: أسعدي على زيارة جيداء، فقد ذهب الشوق إليها بروحي، وتنغصت علي حياتي، قلت: بالحب والكرامة، فانهض إذا شئت.

فركب وركبت معه، فسرنا يومنا وليلتنا، حتى إذا كان قريباً من مغرب الشمس نظرنا إلى منازلهم، ودخلنا شعباً خفياً، فأخذنا راحلتينا، وجلين، فجلس هو عند الراحلتين، وقال: يا نمير! اذهب، بأبي أنت وأمي، فادخل الحي واذكر لمن لقيك أنك طالب ضالة، ولا تعرض بذكرى بين شفة ولسان، فإن لقيت جاريته فلانة الراعية، فأقرئها مني السلام، وسلها عن الخبر، وأعلمها بمكاني.

فخرجت لا أعذر في أمري حتى لقيت الجارية فأبلغتها الرسالة، وأعلمتها بمكانه، وسألتها عن الخبر، فقالت: بلى، والله، مشدد عليها، متحفظ منها، وعلى ذلك فموعدكما الليلة عند تلك الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت.

فانصرفت إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثم هضنا نقود راحلتينا، حتى جاء الموعد، فلم نلبث إلا قليلاً إذا جيداء قد جاءت تمشي حتى دنت منا، فوثب إليها الأشتر، فصافحها وسلم عليها، وقمت مولياً عنهما، فقالا: إنا نقسم عليك إلا ما رجعت، فوالله ما بيننا ريبة، ولا قبيح نخلو به دونك. فانصرفت راجعاً إليهما حتى جلست معهما، فتحدثنا ساعة، ثم أرادت الانصراف، فقال الأشتر: أما فيك حيلة يا جيداء، فتحدث ليلتنا، ويشكو بعضنا إلى بعض؟

قالت: والله ما إلى ذلك من سبيل إلا أن تعود إلى الشر الذي تعلم. قال لها الأشر: لا بد من ذلك، ولا وقعت المساء على الأرض. فقالت: هل في صديقك هذا من خير أو فيه مساعدة لنا؟ قال: الخير كله. قالت: يا فتى! هل فيك من خير؟ قلت: سلي ما بدا لك، فأني منته إلى مرادك، ولو كان في ذلك ذهاب روحي.

فقامت فترعت ثيابها، فخلعتها علي، فلبستها. ثم قالت: اذهب إلى بيتي، فادخل في حباتي، فإن زوجي سيأتيك بعد ساعة، أو ساعتين، فيطلب منك القدح ليحلب به الإبل، فلا تعطه إياه حتى يطيل طلبه، ثم ارم به رمياً، ولا تعطه إياه من يدك، فأني كذا كنت أفعل به، فيذهب فيحلب، ثم يأتيك عند فراغه من الحلب والقدح ملآن لبناً، فيقول: هاك غبوقك، فلا تأخذ منه حتى تطيل نكداً عليه، ثم خذه أو دعه حتى يضعه، ثم لست تراه حتى تصبح، إن شاء الله تعالى.

قال: فذهبت، ففعلت ما أمرتني به، حتى إذا جاء القدح الذي فيه اللبن أمرني أن آخذه فلم آخذه، حتى طال نكدي، ثم أهويت لآخذه، وأهوى ليضعه، واختلفت يدي ويده، فانكفأ القدح، واندفق ما فيه، فقال: إن هذا طماح مفرط. وضرب بيده إلى مقدم البيت فاستخرج منه سوطاً مفتولاً كمتن الثعبان المطوق، ثم دخل علي، فهتك الستر عني وقبض بشعري، وأتبع ذلك السوط متني، فضربني تمام ثلاثين، ثم جاءت أمه وإخوته، وأخت له، فانتزعوني من يده، ولا والله ما أفلعوا، حتى زايلتني روحي، وهممت أن أوجره السكين، وإن كان فيه الموت.

فلما خرجوا عني، وهو معهم، شددت ستري، وقعدت كما كنت، فلم ألبث إلا قليلاً حتى دخلت أم جيداء علي تكلمني، وهي تحسبني ابنتها، فاتقيتها بالسكات والبكى، وتغطيت

بثوبي دونها. فقالت: يا بنية! اتقي الله ربك ولا تعرضي لمكروه زوجك فذاك أولى بك، فأما الأشر، فلا أشر لك آخر الدهر.

ثم خرجت من عندي، وقالت: سأرسل إليك أختك تؤنسك، وتبيت عندك الليلة. فلبثت غير ما كثير، فإذا الجارية قد جاءت فجعلت تبكي وتدعو على من ضربني، وجعلت لا أكلمها، ثم اضطجعت إلى جانبي، فلما استمكنت منها شددت بيدي على فيها، وقلت: يا هذه! تلك أختك مع الأشر، وقد قطع ظهري الليلة في سببها، وأنت أولى بالستر عليها، فاختاري لنفسك، ولها، فوالله لئن تكلمت بكلمة لأصيحن بجهدي حتى تكون الفضيحة شاملة، ثم رفعت يدي عنها، فاهتزت الجارية كما تعثر القصبه من الزرع، ثم بات معي منها أملح رفيق رافقته، وأعفه وأحسنه حديثاً، فلم تزل تتحدث، وتضحك مني ومما بليت به من الضرب حتى برق النور، إذا جيء قد دخلت علينا من آخر البيت، فلما رأتنا ارتاعت، وفزعت، وقالت: ويلك! من هذا عندك؟ قلت: أختك. قالت: وما السبب؟ قلت: هي تخبرك، ولعمر الله إنها لعالمه بما نزل بي.

وأخذت ثيابي منها، ومضيت إلى صاحبي، فركبنا، ونحن خائفان، فلما سري عنا روعنا، حدثته ما أصابني، وكشفت عن ظهري، فإذا فيه ما غرس الله من ضربة إلى جانب أخرى، كل ضربة تخرج الدم وحدها. فلما رأني الأشر قال: لقد عظمت صنيعتك ووجب شكرك، إذ خاطرت بنفسك، فبلغني الله مكافأتك.^١

شامة مشؤومة

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٦/ ٢٦٠، الجليس الصالح ص ٤٢٩، مصارع العشاق ٢/ ١٤٨

كانت عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية عند هشام بن عبد الملك، وكانت من أجمل النساء، فدخل عليها يوماً، وعليها ثياب سود رقاق من هذه التي يلبسها النصارى يوم عيدهم، فملاؤه سروراً حين نظر إليها، ثم تأملها فقطّب، فقالت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ أكرهت هذه، ألبس غيرها؟ قال: لا! ولكن رأيت هذه الشامة التي على كشحك من فوق الثياب، وبك يذبح النساء، وكانت بها شامة في ذلك الموضع، أما إنهم سيزلونك عن بغلة شهباء، يعني بني العباس، وردة، ثم يذبحونك ذبحاً. قال: وقوله يذبح بك النساء، يعني إذا كانت دولة لأهلك ذبحوا بك من نساء القوم الذين ذبحوك.

فأخذها عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان معها من الجواهر ما لا يدرى ما هو، ومعها درع يواقيت وجوهر منسوج بالذهب، فأخذ ما كان معها وخلقى سبيلها. فقالت، في الظلمة: أي دابة تحتي؟ قيل لها: دهماء، في الظلمة، فقالت، نجوت.

قال: فأقبلوا على عبد الله بن علي، فقالوا: ما صنعت؟ أدنى ما يكون يبعث أبو جعفر إليها، فتخبره بما أخذت منها، فيأخذ منك، اقتلها، فبعث في إثرها، وأضاء الصبح، وإذا تحتها بغلة شهباء وردة، فلحقها الرسول، فقالت: مه! فقال: أمرنا بقتلك، قالت: هذا أهون علي، فترلت فشددت درعها من تحت قدميها وكميها.^١

صاحب يساوي الخلافة

^١ مصارع العشاق ٢/ ١٥١، التذكرة الحمدونية ٩/ ٣٩، نهاية الأرب في فنون الأدب ٥/ ١١،

قال علويه: أمرني المأمون وأصحابي أن نغدو إليه لنصطبج، فغدوت، فلقيني عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب. فقال: يا أيها الرجل الظالم المتعدي! أما ترحم ولا ترق ولا تستحي من عريب؟ هي هائمة بك.

قال علويه: وكانت عريب أحسن الناس وجهاً، وأظرف الناس وأحسن غناء مني ومن صاحبي مخارق، فقلت له: مر حتى أجيء معك، فحين دخلنا قلت له: استوثق من الأبواب، فإني أعرف الناس بفضول الحجاب، فأمر بالأبواب فأغلقت ودخلت، فإذا عريب جالسة على كرسي، وبين يديها ثلاث قدور زجاج، فلما رأني قامت إلي، فعانقتني، وقبلتني، وأحلت لسانها في فمي.

قالت: ما تشتهي تأكل؟ قلت: قدراً من هذه القدور، فأفرغت قدراً منها بيني وبينها، فأكلنا. ثم دعت بالنبيذ، فصبت رطلاً، فشربت نصفه، وسقتني نصفه، فما زلنا نشرب حتى سكرنا، ثم قالت: يا أبا الحسن! أخرجت البارحة شعراً لأبي العتاهية فاخترت منه شيئاً. قلت: ما هو؟ قالت:

وَإِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ ... يَرِقُّ وَيَصْفُو إِنَّ كَدْرْتُ عَلَيْهِ

عذيري من الإنسان! لا إِنَّ جَفَوْتُهُ ... صَفَا لِي، وَلَا إِنَّ كُنْتُ طَوَعَ يَدِيهِ

فصيرناه مجلسنا، فقالت: بقي فيه شيء، فأصلحه! قلت: ما فيه شيء. قالت: بلى، في موضع كذا، فقلت: أنت أعلم، فصححناه جميعاً، ثم جاء الحجاب، وكسروا الباب، واستخرجت، فأدخلت على المأمون، فأقبلت أرقص من أقصى الصحن، وأصفق بيدي، وأغني الصوت، فسمع وسمعوا ما لم يعرفوه، فاستطرفوه، فقال المأمون: ادن يا علويه! فدنوت، فقال: رد الصوت! فرددته سبع مرات، فقال: أنت الذي تشتاق إلى ظل صاحب

يرووق ويصفو إن كدرت عليه؟ فقلت: نعم! فقال خذ مني الخلافة، وأعطني هذا الصاحب بدلها.

وسألني عن خبري، فأخبرته، فقال: قاتلها الله، فهي أجل أضرار من أبازير الدنيا.

هذه امرأتي، والله، يا أمير المؤمنين، إنها مع ما ترى من صنيعتي بها، حقاء مرغامة، أكل قمامة، مشوومة الهامة. قال: فما تصنع بها إذا كان هذا قولك فيها؟ قال: إنها ذات جمال، فلا تفرك، وأم صغار، فلا تترك. قال: إذا فشأنك بها.^١

كيد النساء

عن الشرقي بن قطامي قال: كان عمرو بن قمية البكري من أحب الناس إلى مرثد بن قيس بن ثعلبة، وكان يجمع بينه وبين امرأته على طعامه، وكانت إصبع قدم عمرو الوسطى والتي تليها ملصقتين، فخرج مرثد ذات يوم يضرب بالقдах، فأرسلت امرأته إلى عمرو أن عمك يدعوك، فجاءت به من وراء البيوت، فلما دخل عليها، لم يجد عنه، وأنكر شأنها، فأرادته على نفسه، فقال: لقد جئت بأمر عظيم. فقالت: أما لتفعلن أو لأسوءنك. فقال: للمساءة ما دعوتني. ثم قام فخرج، وأمرت بجفنة، فكفئت على أثر قدمه، فلما رجع مرثد وجدها متغضبة، فقال: ما شأنك؟ قالت: رجل قريب القرابة منك جاعني يسومني نفسي. قال: من هو؟ قالت: أما أنا فلا أسميه، وهذا أثر قدمه، فعرف مرثد أثر عمرو، فأعرض عنه، وعرف عمرو من أين أتى، فقال في ذلك:

^١ المجلس الصالح ص ٤٢٥، الأغاني ١١ / ٣٤٧، مصارع العشاق ٢ / ١٥٢

لَعْمُرُكَ! مَا نَفْسِي بِجِدِّ رَشِيدَةٍ، ... تُؤَامِرُنِي سِرًّا لِأَصْرِمَ مَرْتَدًا
عَظِيمُ رَمَادِ الْقَدْرِ، لَا مُتَعَبَسٌ، ... وَلَا مُؤَيَّسٌ مِنْهَا، إِذَا هُوَ أَحْمَدًا
فَقَدْ أَظْهَرَتْ مِنْهُ بَوَائِقُ حِمَّةٍ، ... وَأَفْرَغَ فِي لَوْمِي مِرَارًا وَأَصْعَدًا
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ أَنْ أَكُونَ حَنِيتُهُ، ... سِوَى قَوْلٍ بَاغٍ جَاهِدٍ فَتَحَّهْدًا^١

ماتت حزناً على المأمون

روى يحيى بن أبي حماد الموكي عن أبيه قال: وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف امرأة من الكمال والجمال، فبعث في شرائها، فأتي بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هم ليلبس درعه، خطرت بباله، فأمر، فخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به، فقالت: ما هذا؟ قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. قالت: قتلتنني، والله يا سيدي، وحدرت دموعها على خدها كنظام اللؤلؤ، وأنشأت تقول:

سَادَعُو دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ رَبًّا ... يُثِيبُ عَلَى الدَّعَاءِ وَيَسْتَجِيبُ

لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْفِيكَ حَرْبًا، ... وَيَجْمَعَنَا، كَمَا تَهْوَى الْقُلُوبُ

فضمها المأمون إلى صدره، وأنشأ متمثلاً يقول:

^١ أخبار النساء ص ١٧٧، مصارع العشاق ٢ / ١٥٤

فِيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا ... وَإِذْ هِيَ تُذَرِّي الدَّمْعَ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

صَبِيحَةَ قَالَتْ فِي الْعَتَابِ: قَتَلْتَنِي، ... وَقَتْلِي، بِمَا قَالَتْ، هُنَاكَ تُحَاوِلُ

ثم قال لخدمته: يا مسرور! احتفظ بها وأكرم محلها، وأصلح لها كل ما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي، فكان كما قال الأخطل:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ ... دُونَ النِّسَاءِ، وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ

ثم خرج، فلم يزل الخادم يتعاهدها، ويصلح ما أمر به، فاعتلت علةً شديدةً أشفق عليها منها وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء وتوفيت، وكان مما قالت، وهي تجود بنفسها:

إِنَّ الزَّمَانَ سَقَانَا مِنْ مَرَارَتِهِ ... بَعْدَ الْحَلَاوَةِ أَنْفَاسًا وَأَرْوَآنَا

أَبْدَى لَنَا تَارَةً مِنْهُ، فَأَضْحَكْنَا، ... ثُمَّ انْتَشَى تَارَةً أُخْرَى، فَأَبْكَانَا

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي مَا لَا يَزَالُ لَنَا، ... مِنَ الْقَضَاءِ، وَمَنْ تَلَوَيْنَ دُنْيَانَا

دُنْيَا نَرَاهَا ثَرِينًا مِنْ تَصَرُّفِهَا ... مَا لَا يَدُومُ مُصَافَاةً وَأَحْزَانَا

وَنَحْنُ فِيهَا، كَأَنَّا لَا نُزَايِلُهَا، ... لِلْعَيْشِ أَحْيَاؤُنَا يَبْكُونُ مَوْتَانَا^١

^١ المجلس الصالح ص ١١٧، مصارع العشاق ١٥٧/٢

القاضي المدنف

قال أحمد بن الصلت: كان حمدان البرقي على قضاء الشرقية، فقدمت امرأة طقطق الكوفي زوجها إليه، وادعت عليه مهراً أربعة آلاف درهم، فسأله القاضي عما ذكرت، فقال: أعز الله القاضي، مهرها عشرة دراهم. فقال لها البرقي: أسفري، فسفرت حتى انكشف صدرها، فلما رأى ذلك قال لطقطق: ويحك! مثل هذا الوجه يستأهل أربعة آلاف دينار ليس أربعة آلاف درهم، ثم التفت إلى كاتبه، فقال له: ما في الدنيا أحسن من هذا الشذر على هذا النحر.

فقال له طقطق: فديتك إن كانت قد وقعت في قلبك طلقته. فقال له البرقي: تهددها بالطلاق، وقد قال الله: عز وجل: " فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها "، وإن ههنا ألفاً ممن يتزوجها. فقال طقطق: فإني، والله، ما قضيت وطري منها، وأنا طقطق لست بزيد. فأقبل البرقي على المرأة، فقال: يا حبيبي! ما أدري كيف كان صبرك على مباحة هذا البغيض، ثم أنشأ يقول:

تَرَبَّصْ بِمَا رَيْبَ الْمَنُونِ، لَعَلَّهَا ... تُطَلَّقُ يَوْمًا، أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا

فقام طقطق، وتعلق به وصيف غلام البرقي، فصاح به: دعه يذهب عنا إلى سفر، ثم قال لها: إن لم يصبر لك إلى ما تريدين فصيري إلى امرأة وصيف حتى تعلمني، وأضعه في الحبس.

وكتب صاحب الخبر ما كان، فعلق به البرقي، وصانعه على خمسمائة دينار على أن لا يرفع الخبر بعينه، ولكن يكتب أن عجوزاً خاصمت زوجها، فاستغاثت بالقاضي، فقال لها: ما أصنع يا حبيبي! هو حكم ولا بد أن أقضي بالحق.

وانصرف البرقي متيمماً، فما زال مدنفاً ييكى ويهيم فوق السطوح، ويقول الشعر: فكان
مما يقوله:

وَاحْسَرَتِ عَلَى مَا مَضَى، ... لَيْتَنِي لُضْمُ أَعْرِفِ الْقَضَا

أَحْبَبْتُ أَمراً وَخِيفْتُ اللَّهَ حَقّاً ... فَمَا تَمَّ حَتَّى انْقَضَى

وغير ذلك من شعر لا وزن له ولا روي إلا أنه ارعوى ورجع.^١

جرير والحجاج وأمامة

عن أبي الذيال السلولي، حدثني جرير قال: وفدت على الحجاج في سفرة تسمى سفرة
الأربعين، فأعطاني أربعين راحلةً ورعاءها، وحشو حقائبها القطائف والأكسية لعيالي،
وأوقرها حنطة، ثم خرجت. فلما شددت على راحلتي كورها، وأنا أريد المضي، جاءني خادم
فقال: أجب الأمير، فرجعت معه، فدخلت على الحجاج، فإذا هو قاعد على كرسي، وإذا
جارية قائمة تعممه، فقلت: السلام عليك أيها الأمير. فقال: هات، قل في هذه! فقلت: بأبي
وأمي تمنعني هيبة الأمير، وإجلاله، فأفحمت، فما أدري ما أقول، فقال: بل هات، قل فيها!
فقلت: بأبي وأمي، فما اسمها؟ قال: أمامة، فلما قال أمامة فتح علي فقلت:

وَدَّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ، ... إِنَّ الْوَدَاعَ لَمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ

تِلْكَ الْقُلُوبُ صَوَادِيًا تَيْمَتَهَا، ... وَأَرَى الشَّقَاءَ، وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٥٨

فقال: بل إليه سبيل. خذ بيدها! فأخذت بيدها، فجبذتها، فتعلقت بالعمامة، وجبذتها حتى رأيت عنق الحجاج قد صغت، ومالت مما جبذتها، وتعلق بالعمامة. قال: وخطر ببالي بيت من شعر، فقلت:

إِنْ كَانَ طَبِيبُكَ الدَّلَالُ، فَإِنَّهُ ... حَسَنُ دَلَالِكَ، يَا أُمِيمَ، حَمِيلُ

فقال الحجاج: إنه، والله، ما بها ذاك، ولكن بما بغض وجهك، وهو أهل لذلك. خذها بيدها جرها! فلما سمعت ذلك منه خلعت العمامة، وخرجت بها، فكنيتها أم حكيم، وجعلتها تقوم على عمالي وتعطيهم نفقاتهم بقرية يقال لها الغنية، من قرى الوشم.^١

المأمون والعشق

قال أحمد بن يوسف: كان المأمون يحب أن يعشق ويعمل أشعاراً في العشق، فلم يكن يقع له العشق، ولا يستمر له ما يريد. وكانت عنده جارية اشترتها له، وكانت تسميني أبي، وكان يباثني حديثها وأمرها. وربما شكاهها إلي، فقال: فعلت ببتك كذا وكذا. وله أشعار فيها:

أَوَّلُ الْحُبِّ مَزَاحٌ وَوَلَعٌ، ... ثُمَّ يَزْدَادُ إِذَا زَادَ الطَّمَعُ

كُلُّ مَنْ يَهْوَى، وَإِنْ غَالَتْ بِهِ ... رُبَّةُ الْمُلْكِ، لَمَنْ يَهْوَى تَبَعٌ

فَلَيْدَا هُمَّ وَغَدَرٌ وَنَوَى؛ ... وَلَيْدَا شَوْقٌ وَوَجْدٌ وَجَزَعٌ^١

^١ المجلس الصالح ص ٥٣٤، مصارع العشاق ٢ / ١٦٢

الوليد بن يزيد والفتاة النصرانية

نظر الوليد بن يزيد إلى جارية نصرانية من أهيا النساء يقال لها سفري، فجن بها، وجعل يرأسلها، وهي تأتي، حتى بلغه أن عيداً للنصارى قد قرب، وأنها ستخرج فيه.

وكان في موضع العيد بستان حسن، وكانت النساء يدخلنه، فصانع الوليد صاحب البستان أن يدخله فينظر إليها، فتابعه، وحضر الوليد وقد تقشف وغير حليته، ودخلت سفري البستان، فجعلت تمشي حتى انتهت إليه، فقالت لصاحب البستان: من هذا؟ فقال: رجل مصاب. فجعلت تمازحه وتضحكه، حتى اشتفى من النظر إليها، ومن حديثها، فقيل لها: ويلك أتدريين من ذاك الرجل؟ قالت: لا! فقيل لها: الوليد بن يزيد وإنما تقشف حتى ينظر إليك، فجننت به بعد ذلك، وكانت عليه أحرص منه عليها. فقال الوليد في ذلك:

أضحى فؤادك، يا وليد، عميداً ... صَبًّا كَلِيمًا لِلْحَسَنِ صَيُّودًا

من حبٍّ واضحه العوارضِ طفلةٍ ... برزت لنا نحو الكنيسة عيداً

ما زلت أرمقها بعيني وامي، ... حتى بصرت بها تُقبلُ عوداً

عود الصليب، فويح نفسي من رأى ... منكم صلياً مثله معبوداً

فسألت ربي أن أكون مكانه، ... وأكون في لهب الجحيم وفوداً

قال القاضي أبو الفرج المعافى: لم يبلغ مدرك الشيباني هذا الحد من الخلاعة، إذ قال في عمرو النصراني:

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ لَهُ صَلِيًّا، ... فَكُنْتُ مِنْهُ أَبَدًا قَرِيًّا
أُبْصِرُ حُسْنًا، وَأَشْمُ طَيِّبًا، ... لَا وَاشِيًا أَخْشَى وَلَا رَقِيًّا
فلما ظهر أمره وعلمه الناس قال:

أَلَا حَبْدًا سُفْرَى، وَإِنْ قِيلَ إِنِّي ... كُفِلْتُ بِنَصْرَانِيَّةٍ تَشْرَبُ الْخَمْرَا
يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ نَظْلَّ نَهَارَنَا ... إِلَى اللَّيْلِ لَا أُولَى نُصَلِّي وَلَا عَصْرَا
قضاة لا يقبلون الرُّشَى

قال ابن السراج: ولي من قطعة:

دَمْعِي بِمَكْتُومٍ غَرَامِي وَشَى، ... وَكَانَ مَطْوِيًّا عَلَيْهِ الْحَشَا
يَنْهَلُ دَمْعِي سَاجِمًا كُلَّمَا ... أَبْصَرْتُ رَبْعًا مِنْهُمْ مُوَحِّشًا
صَادَ فُؤَادِي فِي الْهَوَى شَادِنٌ ... سَقَاهُ مِنْ رِيْقَتِهِ فَانْتَشَى
أَبْصَرْتُهُ يَوْمَ شَعَانِيهِ ... يَجْذِبُهُ الرَّدْفُ إِذَا مَا مَشَى
أَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْهَوَى أَنَّهُ ... قُضَائُهُ لَا يَقْبَلُونَ الرُّشَى^١

^١ المجلس الصالح ص ٣٤٠، مصارع العشاق ٢/ ١٦٨

صرعة الحب

قال يونس النحوي: لما اختلط عقل قيس المجنون وامتنع من الطعام والشراب مضت أمه إلى ليلى فقالت لها: يا هذه! قد لحق ابني بسبيك ما قد علمت، فلو صرت معي إليه، رجوت أن يثوب إليه، ويرجع عقله إذا عاينك؟ فقالت: أما نهاراً فلا أقدر على ذلك لأني لا آمن الحي على نفسي، ولكن أمضي معك ليلاً.

فلما كان الليل صارت إليه فقالت له: يا قيس! إن أملك تزعم أن عقلك ذهب بسبي، وأن الذي لحقك أنا أصله. ففتح عينيه، فنظر إليها، وأنشأ يقول:

قَالَتْ جُنِنْتَ عَلَى رَأْسِي، فَقُلْتُ لَهَا: ... الْحُبُّ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْحُبُّ لَيْسَ يُفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ، ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ^١

لم يفرق بين الحبين

روى أبو روق الهراي عن الرياشي أن بعض أهل البصرة اشترى صبيةً، فأحسن تأديبها وتعليمها، وأحبها كل الحبة، وأنفق عليها حتى أملك، ومسه الضر الشديد، فقالت الجارية: إني لأرثي لك، يا مولاي، مما أرى بك من سوء الحال، فلو بعني واتسعت بطني، فلعل الله أن يصنع لك واقع أنا بحيث يحسن حالي، فيكون ذلك أصلح لكل واحد منا.

^١ مصارع العشاق ٢ / ١٨١

قال: فحملها إلى السوق، فعرضت على عمر بن عبيد بن معمر التيمي، وهو أمير البصرة يومئذ، فأعجبته، فاشتراها بمائة ألف درهم، فلما قبض المولى الثمن، وأراد الإنصراف، استعبر كل واحد منهما لصاحبه باكياً، وأنشأت الجارية تقول:

هَنِيئاً لَكَ الْمَالُ الَّذِي قَدْ حَوَيْتَهُ، ... وَلَمْ يَبْقَ فِي كَفِّيْ غَيْرُ التَّذَكُّرِ
أَقُولُ لِنَفْسِي، وَهِيَ فِي عَيْشِ كُرْبَةٍ: ... أَقْلِي، فَقَدْ بَانَ الْحَبِيبُ، أَوْ اكْثِرِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ عِنْدَكَ حِيلَةٌ، ... وَلَمْ تَجِدِي شَيْئاً سِوَى الصَّبْرِ، فَاصْبِرِي
واشتد بكاء المولى، ثم أنشأ يقول:

فَلَوْلَا قُعودُ الدَّهْرِ بِي عَنْكَ لَمْ يَكُنْ ... يُفَرِّقُنَا شَيْءٌ سَمَى الْمَوْتَ، فَاصْبِرِي
أَرْوَحُ بِهِمْ فِي الْفُؤَادِ مُبَرِّحٌ، ... أَنَا جِي بِهِ قَلْباً طَوِيلَ التَّفَكُّرِ
عَلَيْكَ سَلامٌ، لَا زِيَارَةَ بَيْنَنَا، ... وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرٍ

فقال له ابن معمر: قد شئت، خذها، ولك المال، فانصرفا راشدين، فوالله لا كنت سبياً لفرقة محبين.^١

مالك يفتي في الحب

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ١٦٨، التذكرة الحمدونية ٢/ ٣٤٧، مصارع العشاق ٢/ ١٨٤

قال معن بن عيسى: دخل ابن سرحون السلمي على مالك بن أنس، وأنا عنده، فقال له: يا أبا عبد الله! إني قد قلت أبياتاً، وذكرتك فيها، قال: اجعلني في حل، قال: أحب أن تسمعها، قال: لا حاجة لي بذلك. فقال: بلى! قال: هات! فأنشد:

سَلُّوا مَالَكُ الْمُفْتِي عَنِ اللّهُوِّ وَالْغِنَى ... وَحَبِّ الْحِسَانِ الْمُعْجِبَاتِ الْفَوَارِكِ

يُنَبِّئُكُمْ أَنِّي مُصِيبٌ، وَإِنَّمَا ... أُسَلِّي هُمُومَ النَّفْسِ عَنِّي بِذَلِكَ

فَهَلْ فِي مُحَبِّ، يَكْتُمُ الْحُبَّ وَالْهَوَى، ... إِنَّمَا، وَهَلْ فِي ضَمَّةِ الْمُتَهَالِكِ؟

فضحك مالك، وسري عنه، وقال: لا! إن شاء الله. وكان ظن أنه هجاه.^١

ذو الرمة ومي

قال أبو صالح الفزاري: ذكر ذو الرمة في مجلس فيه عدة من الأعراب، فقال عصمة بن مالك، شيخ منهم، قد أتى له مائة سنة، فقال: كان من أظرف الناس.

قال: كان آدم، خفيف العارضين، حسن المنظر، حلو المنطق، وكان إذا أنشد بربر وحبس صوته، وإذا واجهك لم تسأم حديثه وكلامه.

وكان له إخوة يقولون الشعر، منهم: مسعود وهمام وخرواش، فكانوا يقولون القصيدة، فيزيد فيها الأبيات؛ فيغلب عليها، فتذهب له. فأتى يوماً، فقال لي: يا عصمة! إن مية منقرية،

^١ الموشى ص ٩١، المجلس الصالح ص ٢٧٥، مصارع العشاق ٢/ ١٨٥

وبنو منقر أخبث حي، وأبصره بأثر وأعلمه بطريق، فهل عندك من ناقة نزار عليها مية؟
فقلت: نعم، عندي الجؤذر. قال: علي بها.

فركبناها جميعاً حتى أشرفنا على بيوت الحي، فإذا هم خلوف وإذا بيت مية خال، فملنا
إليه فتقوض النساء نحونا، ونحو بيت مية، فطلعت علينا، فإذا هي جارية أملود، واردة الشعر،
وإذا عليها سب أصفر، وقميص أخضر، فقلن: أنشدنا يا ذا الرمة! فقال: أنشدن يا عصمة!
فنظرت إليهن وأنشدن:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي، ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُحَاطِطُهُ

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَتَّبُهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

حتى بلغت إلى قوله:

بَكِي وَامَقُّ جَاءَ الْفِرَاقُ وَلَمْ يُجِلْ ... حَوَائِلُهَا أَسْرَارُهُ وَمَعَاتِبُهُ

فقال ظريفة من حضر: فليجل الآن! فنظرت إليها حتى أتيت على القصيدة إلى قوله:

إِذَا سَرَحْتُ مِنْ حُبِّ مَيِّ سَوَارِحٍ ... عَلَى الْقَلْبِ آتَبُهُ جَمِيعاً عَوَازِبِ

فقال الظريفة منهن: قتلته قتلت. فقالت مي: ما أصحه وهنيئاً له! فتنفس ذو الرمة نفساً

كاد من حره يطير شعر وجهه، ومضيت في الشعر حتى أتيت على قوله:

وَقَدْ حَلَفْتُ بِاللَّهِ مِيَّةُ مَا الَّذِي ... أَقُولُ لَهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ

إِذَا فَرَمَانِي اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى، ... وَلَا زَالَ فِي دَارِي عَدُوُّ أُحَارِبُهُ

فقالت الظريفة: قتلته، قتلك الله. فقالت مي: خف عواقب الله يا غيلان!

ثم أتيت على الشعر حتى انتهيت إلى قولي:

إِذَا رَاجَعْتَكَ الْقَوْلَ مَيَّةً، أَوْ بَدَّلَكَ الْوَجْهَ مِنْهَا، أَوْ نَضَّا الدَّرْعَ سَالِبُهُ

فَيَا لَكَ مِنْ خَدِّ أَسِيلٍ وَمَنْطِقٍ ... رَحِيمٍ، وَمِنْ خُلُقٍ تَعَلَّلَ جَاذِبُهُ

فقالت تلك الظريفة: ها هذه، وهذا القول؛ قد راجعتك وقد واجهتها، فمن لك أن ينضو الدرع سالبه؟ فالتفتت إليها مية، فقالت: قاتلك الله ما أعظم ما تجهين به! فتحدثنا ساعة ثم قالت الظريفة: إن لهذين شأنًا، فقمنا بنا! فقمنا وقمت معهن، فجلست بحيث أراهما، فجعلت تقول له: كذبت، فلبث طويلاً ثم أتاني ومعه قارورة فيها دهن، فقال: هذا دهن طيب أتخفنا به مية، وهذه قلادة للجوذر، والله لا أخرجتها من يدي أبداً. فكان يختلف إليها، حتى إذا انقضى الربيع، ودعا الناس الصيف أتاني فقال: يا عصمة! قد رحلت مي، فلم يبق إلا الآثار، فاذهب بنا ننظر إلى آثارهم، فخرجنا حتى انتهينا، فوقف وقال:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى، ... وَلَا زَالَ مِنْهَا لِجَرَائِكِ الْقَطْرُ

فَإِنْ لَمْ تَكُونِي غَيْرَ شَامٍ بِقَفَرَةٍ، ... تَجَرُّ بِهَا الْأَذْيَالَ صَيِّفِيَّةً كُدْرُ

فقلت له: ما بالك؟ فقال لي: يا عصمة! إني لجلد، وإن كان مني ما ترى. وكان آخر

العهد به.^١

^١ المجلس الصالح ص ٢٨٠، العقد الفريد ٨ / ١٢١، مصارع العشاق ٢ / ١٨٦

أم البنين ووضاح اليمن

عن هشام بن محمد بن السائب قال: كانت عند يزيد بن عبد الملك بن مروان أم البنين بنت فلان، وكان لها من قلبه موضع، فقدم عليه من ناحية مصر بجوهر له قدر وقيمة، فدعا خصياً له، فقال: اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها: أتيت به الساعة، فلبعثت به إليك. فأتاها الخادم، فوجد عندها وضاح اليمن، وكان من أجمل العرب، وأحسنه وجهاً، فعشقتة أم البنين، فأدخلته عليها، فكان يكون عندها، فإذا أحست بدخول يزيد بن عبد الملك عليها أدخلته في صندوق من صناديقها، فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته الصندوق، فرآه الغلام، ورأى الصندوق الذي دخل فيه، فوضع الجواهر بين يديها، وأبلغها رسالة يزيد، ثم قال: يا سيدتي هي لي منه لؤلؤة! قالت: لا ولا كرامة، فغضب وجاء إلى مولاه، فقال: يا أمير المؤمنين إني دخلت عليها وعندها رجل، فلما رأيته أدخلته صندوقاً، وهو في الصندوق الذي من صفته كذا وكذا، وهو الثالث أو الرابع، فقال له يزيد: كذبت، يا عدو الله! جئوا عنقه، فوجئ في عنقه، ونحوه عنه.

قال: فأمهل قليلاً، ثم قام، فلبس نعله، ودخل على أم البنين، وهي تمتشط في خزانتهما، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصف له الخادم فقال لها: يا أم البنين! ما أحب إليك هذا البيت؟ قالت: يا أمير المؤمنين ادخله لحاجتي وفيه خزانتي فما أردت من شيء أخذته من قرب. قال: فما في هذه الصناديق التي أراها؟ قالت: حلي، وأثاثي. قال: فهبي لي منها صندوقاً. قالت: كلها لك يا أمير المؤمنين لك. قال: لا أريد إلا واحداً، ولك علي أن أعطيك زنته وزنة ما فيه ذهباً. قالت: فخذ ما شئت. قال: هذا الذي تحتي. قالت: يا أمير المؤمنين عد عن هذا، وخذ غيره، فإن لي فيه شيئاً يقع بمحيتي. قال: ما أريد غيره. قالت: هو لك.

قال: فأخذه ودعا الفراشين فحملوا الصندوق، فمضى به إلى مجلسه، فجلس، ولم يفتحه، ولم ينظر ما فيه، فلما جنة الليل دعا غلاماً له أعجمياً فقال له: استأجر أجراً غرباء ليسو من أهل المصر.

قال: فحماه بهم وأمرهم، فحفروا له حفيرة في مجلسه، حتى بلغوا الماء، ثم قال: قدموا لي الصندوق. فألقي في الحفيرة. فألقي في الحفيرة، ثم وضع فمه على شفيره، فقال: يا هذا! قد بلغنا عنك خبر، فإن يك حقاً، فقد قطعنا أثره، وإن يك باطلاً، فإنما دفنا خشباً.

ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى، قال: فلم ير وضاح اليمن حتى الساعة. قال: فلا، والله، ما بان لها في وجهه ولا في خلائقه شيء حتى فرق الموت بينهما.^١

العاشق المظلوم

عن الهيثم بن عدي قال: كان لعمر بن دويرة السحمي أخ قد كلف بابتة عم له كلفاً شديداً، وكان أبوها يكره ذلك ويأباه، فشكا إلى خالد بن عبد الله القسري، وهو أمير العراق، أنه يسيء جواره، فحبسه، فسئل خالد في أمر الفتى، فأطلقه، فلبث الفتى مدةً كافاً عن ابنة عمه، ثم زاد ما في قلبه وغلب عليه الحب، فحمل نفسه على أن تسور الجدار إليها، وحصل معها الفتى، فأحس به أبوها، فقبض عليه، وأتى به خالد بن عبد الله القسري وادعى عليه السرقة، وأتاه بجماعة يشهدون أنهم وجدوه في منزله ليلاً، وقد دخل دخول السراق، فسأل خالد الفتى، فاعترف بأنه دخل ليسرق، ليدفع بذلك الفضيحة عن ابنة عمه، مه أنه لم يسرق شيئاً، فأراد خالد أن يقطعه، فرفع عمرو أخوه إلى خالد رقعةً فيها:

أَخَالِدُ! قَدْ وَاللَّهِ أُوطِئْتَ عَشْوَةً، ... وَمَا الْعَاشِقُ الْمَظْلُومُ فِينَا بِسَارِقٍ

^١ المجلس الصالح ص ١٩٣، مصارع العشاق ٢ / ١٩٢

أَقْرَبَ بِمَا لَمْ يَأْتِهِ الْمَرْءُ، إِنَّهُ ... رَأَى الْقَطْعَ خَيْرًا مِنْ فَضِيحَةِ عَاتِقٍ
وَلَوْلَا الَّذِي قَدْ خَفْتُ مِنْ قَطْعِ كَفِّهِ ... لأُلْفَيْتُ فِي أَمْرِ لَهُمْ غَيْرَ نَاطِقٍ
إِذَا مُدَّتِ الْعَايَاتُ فِي السَّبْقِ لِلْعُلَى، ... فَأَنْتَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَوَّلُ سَابِقٍ

وأرسل خالد مولى له يسأل عن الخبر، ويتجسس عن جلية الأمر، فأتاه بتصحيح ما قال
عمرو في شعره، فأحضر الجارية وأخذ بتزويجها من الفتى، فامتنع أبوها وقال: ليس هو بكفو
لها. قال: بلى! والله إنه لكفو لها إذ بذل يده عنها، ولئن لم تزوجها لأزوجنه إياها وأنت
كاره. فزوجه، وساق خالد المهر عنه، من ماله، فكان يسمى العاشق إلى أن مات.

إِنْ تُرْدِ وَصَلًا، فَقَدْ ... أَمَكَّنَكَ الظِّيُّ الْأُلُوفُ

فأجابها الفتى:

إِنْ تَرَبَّيْتُ زَانِي الْعَيْنِي ... نِ، فَالْفَرْجُ عَفِيفُ

لَيْسَ إِلَّا التَّظَرُّ الْفَا ... تِرُ، وَالشَّعْرُ الظَّرِيفُ

فكتبت إليه:

قَدْ أَرَدْنَاكَ بِأَنْ تَع ... شَقَّ إِنْسَانًا أُلُوفًا

فَتَأَيَّيْتُ، فَلَا زِلْ ... تَ لِقَيْدَيْكَ حَلِيفًا

فأجابها الفتى:

مَا تَأَيَّيْتُ لِأَنِّي ... كُنْتُ لِلظِّيِّ عِيُوفًا

غَيْرَ أَنِّي خِفْتُ رَبًّا، ... كَانَ بِي بَرًّا لَطِيفًا

فداع الشعر، وبلغ الخبر الوالي، فدعا به فزوجه إياها، ودفعها إليه.^١

الدموع ألسنة القلوب

قال محمد بن سلام: قلت لصديق لي: إن كنت تحسن إنشاد الغزل فأنشدني أبياتاً تشوي القلب رقةً أكتب بها إلى رجل مستهتر بجارية له، فأنشأ يقول:

وَقَائِلَةٌ، وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَجْرِي ... عَلَى الْخَدَّيْنِ كَالْمَاءِ السَّكُوبِ
قَمِيصُكَ وَالْدُمُوعُ تَجُولُ فِيهِ، ... وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الْكَثِيبِ
نَظِيرُ قَمِيصِ يَوْسُفَ حِينَ جَاؤُوا ... عَلَى لَبَاتِهِ بِدَمٍ كَذُوبِ
دُمُوعُ الْعَاشِقِينَ، إِذَا تَوَالَتْ، ... بِظَهْرِ الْغَيْبِ أَلْسِنَةُ الْقُلُوبِ

فخشيت أن أكتب بها إلى صديقي، فتوافق منه بعض ما أعرف، فيموت عشقاً قلبه.^٢

هلال مكلل بشموس

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٤/ ٢٦٣، مصارع العشاق ٢/ ١٩٧

^٢ مصارع العشاق ٢/ ٢٠٠

قال أحمد بن المرزبان: كان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع قد هوي جارية نصرانية، رآها في دير مار جرجس في بعض أعياد النصارى، فكان لا يفارق البيع شغفاً بها، فخرج في عيد مار جرجس إلى بيعة تعرف بدير مار جرجس، فوجدها في بستان إلى جانب البيعة، وقد كان قبل ذلك يرسلها ويعلمها محبته لها، فلا تقدر على مواصلته، ولا لقائه، إلا على ظهر الطريق، فلما ظفر بها التوت عليه، وأبت بعض الإباء، ثم ظهرت له، وجلست معه مع نسوة كانت تأنس بهن، فأكلوا وشربوا، وأقام معها أسبوعاً، ثم انصرف في يوم خميس وقال في ذلك:

رُبَّ صَهْبَاءَ مِنْ شَرَابِ الْمَجُوسِ ... قَهْوَةٍ بَابِلِيَّةٍ خَنْدَرِيسِ
قَدْ تَحَلَّيْتُهَا بَنَائِي وَعُودٍ ... قَبْلَ ضَرْبِ الشَّمَّاسِ بِالتَّاقُوسِ
وَعَزَّالٍ مُكَحَّلٍ ذِي دَلَالٍ ... سَاحِرِ الطَّرْفِ سَامِرِيَّ عَرُوسِ
قَدْ خَلَوْنَا بِطَبِيبِهِ نَجْتَنِيهِ، ... يَوْمَ سَبَتْ إِلَى صَبَاحِ الْخَمِيسِ
بَيْنَ وَرْدٍ وَبَيْنَ آسٍ جَنِيٍّ، ... وَسَطِ بُسْتَانِ دَيْرِ مَارِ جَرْجِيسِ
تَشْتَى فِي حُسْنِ جِيدٍ غَزَالٍ، ... فِي صَلِيبٍ مُفَضَّضٍ أَبْنُوسِ
كَمْ لَثَمْتُ الصَّلِيبَ فِي الْجِيدِ مِنْهَا ... كَهَلَالٍ مُكَلَّلٍ بِشُمُوسِ^١

قمر نام في قمر

^١ الأغاني ١٩ / ٢٥١، مصارع العشاق ٢ / ٢٠٦

قال أبو عبد الله أحمد بن أبي محمد القرشي: كان بعض الظرفاء يتعشق جاريةً لبعض المغنيات، فدعاها يوماً، فأقامت عنده، وأتى الليل، فشغل ببعض أموره، فصعدت الجارية، فنامت فوق سطح له في القمر، فلما فرغ من أمره صعد، فرآها نائمة، فاستحسن وجهها، فجعل مرةً ينظر إليها، ومرةً ينظر إلى القمر، وأنشأ يقول:

قَمَرٌ نَامَ فِي قَمَرٍ ... مِنْ نُعَاسٍ وَمِنْ سَكَرٍ

لَيْسَ يَدْرِي مُجِيبُهُ، ... وَهُوَ ذُو فِطْنَةٍ، خَبِرْ

أَبْهَذَا انْجَلَى الدَّجَى، ... أَمْ بَذَا أَشْرَقَ الْقَمَرُ^١

عاشق زوجة أخيه

عن عبيدة السلماني قال: كان في الجاهلية أخوان من حي يدعون بني كنه، أحدهما متزوج، والآخر عزب، فقضي أن المتزوج خرج في بعض ما يخرج الناس فيه، وبقي الآخر مع امرأة أخيه، فخرجت، ذات يوم، حاسرةً، فرآها أحسن الناس وجهاً وثغراً، فلما علمت أن قد رآها، ولولت وصاحت وغطت بمعصمها وجهها. قال القاضي: المعصم موضع السوار، فزاده ذلك فتنة، فحمل الشوق على بدنه، حتى لم يبق إلا رأسه وعيناه تدوران فيه.

وقدم الأخ، فقال: يا أخي! ما الذي أرى بك؟ فاعتل عليه، وقال: الشوصة، والشوصة تسميها العرب اللوى وذات الجنب. فقال له ابن عمر: لا تكذبه، ابعث إلى الحارث بن كلدة، فإنه من أطب العرب، فجيء به، فلمس عروقه فإذا ساكنها ساكن، وضاربها ضارب، فقال: ما بأخيك إلا العشق. فقال: سبحان الله تقول: هذا الرجل ميت؟ فقال: هو كذلك،

^١ مصارع العشاق ٢ / ٢٠٦

أعندكم شيء من شراب؟ فجيء به ثم دعا بمسعط، فصب فيه من الشراب، وحل صرةً من
صرره فذر فيه، ثم سقاه الثانية، ثم الثالثة، فانتشى يغني:

يَهِيحُ مَا يَهِيحُ وَيَذْكُرُ ... أَيُّهَا الْقَلْبُ الْحَزِينُ مَا يَكُنُّهُ

أَلَمَّا بِي عَلَى الْأَبْيَاتِ ... تِ مِنْ خَيْفٍ أَرْزُهُنَّ

غَزَالًا مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ ... مَ فِي دُورِ بَنِي كُنُّهُ

غَزَالَ أَحْوَرُ الْعَيْنِ، ... وَفِي مَنْطِقِهِ غُنُّهُ

فقال الرجل: هذه دور قومنا، فليت شعري من؟ فقال الحارث: ليس فيه مستمتع غير
هذا اليوم، ولكن أغدو عليكم من الغد، ففعل به كفعله بالأمس، فانتشى يغني سكرًا، واسم
امرأة أخيه ريا، فقال:

أَيُّهَا الْحَيَّ فَاسْلُمُوا، ... كَيْ تُحْيُوا وَتُكْرَمُوا

خَرَجَتْ مَزْنَةٌ مِنْ آلِ ... بَحْرٍ رِيًّا تُحْمَحِمُ

لَمْ تَكُنْ كَنَّتِي ... وَتَزْعُمُ أَنِّي لَهَا حَمُو

فقال الرجل لمن حضره: أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، ليرجع إلى أخي فؤاده، فإن المرأة
توجد، والأخ لا يوجد. فجاء الناس يقولون له: هنيئاً لك أبا فلان، فإن فلاناً قد نزل لك عن
فلانة. فقال لمن حضر: أشهدكم أنها علي مثل أمي إن تزوجتها.

قال عبد الله بن عثمان: قال المفضل: قال ابن سيرين: قال عبيدة السلماني: ما أدري أي الرجلين أكرم الأول أم الآخر.^١

المملوك المالك

قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع: حلف الرشيد لا يدخل إلى جارية له أياماً، وكان لها مكان من قلبه، فمضت الأيام، ولم تسترضه، فأحضر جعفر بن يحيى، وعرفه الخبر، وأنشده شعراً عمله، وقال: أجزه لي، والشعر:

صَدَّ عَنِّي إِذْ رَأَيْتُ مُفْتَتَنًا... وَأَطَالَ الصَّدَّ لَمَّا أَنْ فَطَنَ

كَانَ مَمْلُوكِي، فَأُضْحَى مَالِكِي، ... إِنَّ هَذَا مِنْ أَعَاجِبِ الزَّمَنِ

فقال له جعفر بن يحيى: إن أبا العتاهية محبوس، بلا جرم، وهو أقدر الناس على أن يأتي بشيء مليح، قال: وجه البيتين إليه، وقل له أجزهما بما يشاههما، فلما قرأهما أبو العتاهية كتب تحتها:

ضَعُفَ الْمُسْكِينُ عَنْ تِلْكَ الْمِحْنِ ... بِهَلَاكِ الرُّوحِ مِنْهُ وَالْبَدَنِ

وَلَقَدْ كُفِّ شَيْئًا عَجَبًا ... زَادَ فِي النُّكْبَةِ وَاسْتَوْفَى الْمِحْنَ

قِيلَ: فَرَحْنَا، وَيَأْبَى فَرَحٌ ... أَنْ يُؤَاتِيَنِي مِنْ نَيْتِ الْحَزَنِ

^١ المجلس الصالح ص ٥٤٦ ، مصارع العشاق ٢ / ٢٠٩

فلما قرأ الأبيات استحسناها الرشيد، وأمر بإطلاقه وصلته، وقال: صدق، والله،
احضروه، فحضر، فقال: أجز بيبي! فقال: الآن طاب القول، وأطاع الفكر، وأنشد:

عِزَّةُ الْحُبِّ أَرَتْهُ ذِلَّتِي، ... فِي هَوَاهُ، وَلَهُ وَجْهٌ حَسَنٌ

فَلِهَذَا صِرْتُ مَمْلُوكًا لَهُ، ... وَلِهَذَا شَاعَ أَمْرِي وَعَلَنُ

فقال الرشيد: جئت، والله، بما في نفسي، وأطلقه وزاد في صلته.^١

ليلي الحارثية

عن يحيى بن يحيى الغساني قال: سمعت عروة يحدث أن عبد الرحمن بن أبي بكر خرج في
نفر من قريش إلى الشام يمتارون، فمروا بامرأة يقال لها ليلي، فراعها جمالها، وقد وقع منها في
نفسه شيء، فرجع وهو يشيب ويقول:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى، وَالسَّمَاءُ بَيْنَنَا، ... وَمَا لَابَنَةِ الْجُودِيِّ لَيْلَى، وَمَا لِيَا

زاده مصعب بيتين ليس من حديث ابن عيينة:

وَأَنْتِ تَعَاطَى ذِكْرَهُ حَارِثِيَّةٌ، ... تُقِيمُ بَبَصْرَى أَوْ تَحِلُّ الْجَوَايَا

وَأَنْتِ تَلَاقِيهَا؟ بَلَى، وَلَعَلَّهَا ... إِنَّ النَّاسُ حَجَّوْا قَابِلًا أَنْ تُؤْفِيَا^٢

^١ الأغاني ٤ / ٧٨ ، مصارع العشاق ٢ / ٢١٢

^٢ مصارع العشاق ٢ / ٢١٤

العود الصليب

قال محمد بن مريد: حدثت عن بعض أصحاب ابن عباس فقال: إني وابن عباس بفناء الكعبة، وهو في جماعة، فإذا بفتيان يحملون بينهم فتى حتى وضعوه بين يدي ابن عباس، فقالوا: استشف له! فكشفوا عنه، فإذا وجه حلو، وعود صليب، وجسم ناحل، فقال له: ما يؤملك؟ فقال:

بنا من جوى الأحزانِ والحبِّ لوعةً ... تكادُ لها نفسُ الشقيقِ صليبُ

ولكنَّما أبقي حُشاشةً ما تَرى ... على ما تَرى عُودَ هُناكَ صليبُ

فقال ابن عباس: رأيتم وجهاً أعتق أو عوداً أصلب أو منطقاً أفصح من هذا؟ فتيل الحب، لا عقل ولا قود! فما سمعنا ابن عباس دعا بشيء إلى أن أمسى إلا بالعافية مما أصاب الفتى.^١

الأصمعي والجواري

^١ التذكرة الحمدونية ٦/ ١٦١، نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/ ١٨٤، مصارع العشاق ٢/ ٢١٧

قال الأصمعي : مررت بالبادية على رأس بئر، وإذا على رأسه جوار، وإذا واحدة فيهن كأنها البدر، فوق علي الرعدة، وقلت لها:

يَا أَحْسَنَ النَّاسِ إِنْسَانًا، وَأَمْلَحَهُمْ! ... هَلْ بَاشْتَكَايَ إِلَيْكَ، الْيَوْمَ، مِنْ بَاسٍ

فَبَيَّنِي لِي بِقَوْلٍ غَيْرِ ذِي خُلْفٍ: ... أَبَالصَّرِيْمَةِ يَمْضِي عَنْكَ أَمْ يَاسٍ

قال: فرفعت رأسها وقالت لي: احسأ، فوق في قلبي مثل جمر الغضا، فانصرفت عنها، وأنا حزين. قال: ثم رجعت إلى رأس البئر، وإذا هي هناك، فقالت:

هَلُمَّ نَمَحُ الَّذِي آذَاكَ أَوَّلُهُ، ... وَنُحْدِثِ الْآنَ إِقْبَالًا مِنَ الرَّاسِ

حَتَّى يَكُونَ ثَبِيرًا فِي مَوَدَّنَا ... مَثَلُ الَّذِي يَحْتَذِي نَعْلًا بِمِقْيَاسِ

فانطلقت معها إلى أبيها، فتزوجتها، فابني علي منها.^١

القباح غوال وإن رخصن

قال الأصمعي، حدثني الحسن الوصيف حاجب المهدي قال: كنا بزيالة، وإذا أعرابي يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداءك! إني عاشق. قال: وكان يحب ذكر العشاق والعشق، فدعا الأعرابي، فلما دخل عليه قال: سلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، ثم

^١ مصارع العشاق ٢ / ٢٢١

قعد. فقال له: ما اسمك؟ فقال: أبو مياس. قال: يا أبا مياس! من عشيقتك؟ قال: ابنة عمي، وقد أبي أبوها أن يزوجنيها. قال: لعله أكثر منك مالاً؟ قال: لا! قال: فما القصة؟ قال: أدن مني رأسك؟ قال: فجعل المهدي يضحك وأصغى إليه رأسه، فقال: إني هجين، قال: ليس يضرك ذاك، إخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن. يا غلام علي بعمه.

قال: فأتي به، فإذا أشبه خلق الله بأبي مياس كأنهما باقلاةً فلقت. فقال المهدي: ما لك لا تزوج أبا مياس وله هذا اللسان والأدب وقرابته منك؟ قال: إنه هجين. قال: فإخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن، فليس هذا مما ينقصه، زوجها منه، فقد أصدقته عنه عشرة آلاف درهم، قال: قد فعلت. فأمر له بعشرين ألف درهم، فخرج أبو مياس، وهو يقول:

ابْتَعْتُ أَسْوَاقَ الْقَبَاحِ لِأَهْلِهَا؛ ... إِنَّ الْقَبَاحَ وَإِنْ رَخِصْنَ غَوَالٍ^١

من توفاك يحبك

قال المعافي بن زكريا الجريري: استشرف بعض المترفين إلى طريقة الصوفية والاختلاط بهم وملابستهم، فشاور في هذا بعض مشيختهم، فردده عما تشوف إليه من هذا، وحذره التعرض له، فأبى نفسه إلا ما جذبته الدعاوى إليه، وعطفته الخواطر عليه، فمال إلى فريق من هذه الطائفة، فعلق بهم، واتصل بمجملتهم، ثم صحب جماعة منهم متوجهةً إلى الحج فعجز في بعض الطريق عن مسايرتهم، وقصر عن اللحاق بهم، فمضوا وتخلف عنهم، واستند إلى بعض الأميال إرادة الاستراحة من الإعياء والكلال. فمر به الشيخ الذي كلمه في ما حصل فيه قبل أن يتسنمه، فنهاه عنه وحذره منه، فقال هذا الشيخ مخاطباً له:

إِنَّ الَّذِينَ بَخِرَ كُنْتَ تَذْكُرُهُمْ ... قَضَوْا عَلَيْكَ وَعَنْهُمْ كُنْتَ أَهْمَاكَ

^١ مصارع العشاق ٢ / ٢٢٢

فقال له الفتى: ما أصنع الآن؟ فقال له:

لَا تَطْلُبَنَّ حَيَاةً عِنْدَ غَيْرِهِمْ، ... فَلَيْسَ يُحْيِيكَ إِلَّا مَنْ تَوَفَّكَ^١

بشار يصف مجلس غناء

قال إسحق بن إبراهيم الموصلي: كان بالبصرة لرجل من آل سليمان بن علي جارية، وكانت حسناء بارعة الظرف والجمال، وكان بشار بن برد صديقاً لمولاهما ومداحاً له، فحضر مجلسه، والجارية تغنيهم، فشرب مولاهما وسكر ونام، ونهض للانصراف من كان بالحضرة، فقالت الجارية لبشار: أحب أن تذكر مجلسنا هذا في قصيدة

وترسلها إلي على أن لا تذكر فيها اسمي ولا اسم سيدي، فقال بشار، وبعث بها مع رسوله إليها:

وَذَاتِ دَلٍّ كَأَنَّ الشَّمْسَ صُورَتْهَا، ... بَاتَتْ تُعَيِّي عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكَرَانَا

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ ... قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَا يُحْيِينَا قَتْلَانَا

فقلت: أَحْسَنْتِ يَا سَوَّلِي وَيَا أَمَلِي، ... فَأَسْمِعِينِي، جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَانَا

يَا حَبْدَا جَبَلِ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ؛ ... وَحَبْدَا سَاكِنِ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَا

قالت: فهلاً، فذلتك النفس، أحسن من ... هذا لمن كان صبب القلب حيرانا

^١ المجلس الصالح ص ٣١، مصارع العشاق ٢/ ٢٢٥

يا قَوْمُ أَذِنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةً ... وَالْأَذُنُ تَعَشِّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

فَقُلْتُ: أَحْسَنْتِ! أَنْتِ الشَّمْسُ طَالِعَةٌ، ... أَضْرَمْتِ فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ نِيرَانًا

فَاسْمِعِينَا غِنَاءَ مُطَرِّبٍ هَزَجًا، ... يَزِيدُ صَبًّا مُحِبًّا فِيكَ أَشْجَانًا

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثَقَا حَا مُفْلِحَةً، ... أَوْ كُنْتُ مِنْ قُضْبِ الرِّيحَانِ رِيحَانًا

حَتَّى إِذَا وَجَدْتَ رِيحِي فَأَعْجَبَهَا، ... وَنَحْنُ فِي خَلْوَةٍ مِثْلَتْ إِنْسَانًا

فَحَرَكْتَ عَوْدَهَا، ثُمَّ انْثَنَتْ طَرْبًا، ... تَشْدُو بِهِ ثُمَّ لَا تُخْفِيهِ كَيْمَانًا

أَصْبَحْتُ أَطْوَعَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ ... لِأَكْثَرِ الْخَلْقِ لِي فِي الْحُبِّ عَصِيَانًا

فَقُلْتُ: أَطْرَبْنَا يَا زَيْنَ مَجْلِسِنَا، ... فَغَنَّنَا أَنْتِ بِالْإِحْسَانِ أَوْلَانَا

فَغَنَّتِ الشَّرْبَ صَوْتًا مُوْتَقًا رَمَلًا ... يُذَكِّي السَّرُورَ وَيُيَكِّي الْعَيْنَ أَلْوَانًا

لَا يَقْتُلُ اللَّهُ مَنْ دَامَتْ مَوَدَّتُهُ، ... وَاللَّهُ يَقْتُلُ أَهْلَ الْعَدْرِ أَحْيَانًا^١

الفضل بن يحيى وخشف

قال إدريس بن بدر: كان أبي منقطعاً إلى الفضل بن يحيى، فكان معه يوماً في موكبه،

فقال أبي: فرأيت من الفضل حيرة وجولة، ففطن أني قد استتبت ما كان منه، فقال: عرفني يا

بدر كيف قال المجنون: وداع دعا، فأنشدته:

^١ المجلس الصالح ص ١٣٨، الأغاني ٣/ ١٥٩، مصارع العشاق ٢/ ٢٢٥

وَدَاعِ دَعَا، إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَيٍّ، ... فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الْفُؤَادِ، وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بَلِيلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

قال: هذه، والله، قصتي، كنت أهوى جاريةً يقال لها خشف ثم ملكتها فقربت من قلبي، فسمعت الساعة صائحاً يصيح: يا خشف، فكان مني ما رأيت، ونالني مثل ما قال المجنون.

ابتنى معاوية بالأبطح مجلساً، فجلس عليه، ومعه ابنة قرظة، فإذا هو بجماعة على رحال لهم، وإذا بشاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَا جِدًّا ... أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ

قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر. قال: خلوا له الطريق، فليذهب؛ ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يغني:

بَيْنَمَا يَذْكُرْتَنِي أَبْصَرْتَنِي ... دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الْأَغَرَّ

قِيلَ تَعْرِفَنَ الْفَتَى؟ قُلْنَ نَعَمْ! ... قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ؟

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة. قال: خلوا له الطريق، فليذهب. قال: ثم إذا بجماعة، وإذا رجل منهم يسأل ويقول: رميتُ قبل أن أحلق، وحلقت قبل أن أرمى، لا شيء أشكلت من مسائل الحج. فقال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن عمر. فالتفت إلى بنت قرظة، فقال: هذا وأبيك الشرف لا ما نحن فيه.^١

^١ المجلس الصالح ص ٥٠٥، مصارع العشاق ٢٢٧/٢

الحبان الوفيان

قال عبيد الله بن محمد الهروي، حدثني أبي، حدثني صديق لي ثقة: أنه كان ببغداد رجلاً من أولاد النعم، ورث مالا جليلاً، وكان يعشق قينة، فأنفق عليها مالا كثيراً ثم اشتراها، وكانت تحبه كما يحبها، فلم يزل ينفق ماله عليها إلى أن أفلس، فقالت له الجارية: يا هذا قد بقينا كما ترى، فلو طلبت معاشاً؟ قال: وكان الفتى لشدة حبه الجارية وإحضاره الأستاذات ليزيدوها في صنعتها قد تعلم الضرب والغناء فخرج صالح الضرب والحدق فيهما، فشاور بعض معارفه فقال: ما أعرف لك معاشاً أصلح من أن تغني للناس، وتحمل جاريتهك إليهم، فتأخذ على هذا الكثير، ويطيب عيشك، فأنف من ذلك، وعاد إليها فأخبرها بما أشير به عليه، وأعلمها أن الموت أسهل عنده من هذا. فصبرت معه على الشدة مدة، ثم قالت له: قد رأيت لك رأياً. قال: قولي! قالت: تبيعني، فإنه يحصل لك من ثمن ما إن أردت أن تتجر به، أو تنفقه في ضيعة عشت عيشاً صالحاً، وتخلصت من هذه الشدة وأحصل أنا في نعمة، فإن مثلي لا يشتريها إلا ذو نعمة، فإن رأيت هذا، فافعل.

فحملها إلى السوق، فكان أول من اعترضها فتى هاشمي من أهل البصرة، ظريف، قد ورد بغداد للعب والتمتع، فاستامها، فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عينا. قال الرجل: فحين لفظت بالبيع، وأعطيت المال، ندمت واندفعت في بكاء عظيم، وحصلت الجارية في أقبح من صورتي، وجهدت في الإقالة فلم يكن إلى ذلك سبيل، فأخذت الدنانير في الكيس لا أدري أين أذهب لأن بيتي موحش منها، ووقع علي من اللطم والبكاء ما هوّسني.

فدخلت مسجداً، وجعلت أبكي وأفكر في ما أعمل، فغلبتني عيني، فتركت الكيس تحت رأسي، فانتبهت فزعاً، فإذا شاب قد أخذ الكيس، وهو يعدو، فقممت لأعدو وراءه، فإذا

رجلي مشدودة بخيط قنب في وتد مضروب في أرض المسجد، فما تخلصت من ذلك حتى غاب الرجل عن عيني، فبكيت ولطمت ونالني أمر أشد من الأمر الأول، وقلت: فارقت من أحب لأستغني بشفه عن الصدقة، فقد صرت الآن فقيراً ومفارقاً.

فجئت إلى دجلة، فلففت وجهي بإزار كان على رأسي، ولم أكن أحسن العوم، فرميت نفسي في الماء لأغرق، فظن الحاضرون أن ذلك لغلط وقع علي، فطرح قوم نفوسهم خلفي فأخرجوني، فسألوني عن أمري، فأخبرتهم، فمن بين راحم ومستجهل إلى أن خلا بي شيخ منهم، فأخذ يعظني، ويقول: ما هذا؟ ذهب مالك فكان ماذا حتى تتلف نفسك، أو ما علمت أن فاعل هذا في نار جهنم! ولست أول من افتقر بعد غنى، فلا تفعل، وثق بالله تعالى. أين متزلك؟ قم معي إليه.

فما فارقتني حملي إلى منزلي وأدخلني إليه، وما زال يؤنسني ويعظني إلى أن رأى مني السكون، فشكرته، وانصرف، فكدت أقتل نفسي لشدة وحشتي للجارية، وأظلم منزلي في وجهي، وذكرت النار والآخرة، فخرجت من بيتي هارباً إلى بعض أصدقائي القدماء، فأخبرته خبري، فبكي رقة لي، وأعطاني خمسين درهماً، وقال: اقبل رأيي! اخرج الساعة من بغداد، واجعل هذا نفقة إلى حيث تجد قلبك مساعدك على قصده، وأنت من أولاد الكتاب، وخطك جيد وأدبك صالح، فاقصد بعض العمال واطرح نفسك عليه، فأقل ما في الأمر أن يصرفك في شغل أو يجعلك محرراً بين يديه وتعيش أنت معه، ولعل الله أن يصنع لك.

فعملت على هذا، وجئت إلى اللبيين، وقد قوي في نفسي أن أقصد واسطاً، وكان لي بها أقارب فأجعلهم ذريعة إلى التصرف مع عاملها، فحين جئت إلى اللبيين، إذا بزال مقدم، وإذا خزانة كبيرة وقماش فاخر كثير ينقل إلى الخزانة والزال، فسألت عن ملاح يحملني إلى واسط، فقال لي أحد ملاحي الزلال: نحن نحملك في هذا إلى واسط بدرهمين. ولكن هذا

الزلال لرجل هاشمي من أهل البصرة، ولا يمكننا حملك معه على هذه الصورة، ولكن تلبس من ثياب الملاحين، وتجلس معنا، كأنك واحد منا.

فحين رأيت الزلال، وسمعت أنه لرجل هاشمي من أهل البصرة، طمعت أن يكون مشترى جاريي، فأتفرج بسماعهما إلى واسط، فدفعت الدرهمين إلى الملاح، وعدت فاشتريت جبةً من جباب الملاحين، وبعثت تلك الثياب التي علي، وأضفت ثمنها إلى ما معي من النفقة، واشتريت خبزاً وأدماً وجلست في الزلال، فما كان إلا ساعة، حتى رأيت جاريي بعينها، ومعها جاريتان تخدمانها، فسهل علي ما كان بي وما أنا فيه، وقلت: أراها وأسمع غناءها من هاهنا إلى البصرة، واعتقدت أن أجعل قصدي البصرة، وطمعت في أن أدخل مولاهما، وأصير أحد ندمائه، وقلت: لا تخليني هي من المواد، فإني واثق بها.

فلم يكن بأسرع من أن جاء الفتي الذي اشتراها راكباً ومعه عدة ركبان، فترلوا في الزلال، وانحدرنا، فلما صرنا بكلواذي، أخرج الطعام، فأكل هو. وصعدت فجلست معه، فدبرت أمره وضبطت دخله، وخرجه، وكان غلمانة يسرقونه، فأدبت إليه الأمانة.

فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائداً، وخرجه ناقصاً، فحمدني، وكنت معه إلى أن حال الحول، وقد بان له الصلاح في أمره فدعاني إلى أن أتزوج بابنته ويشاركني في الدكان، ففعلت، ودخلت بزوجتي، ولزمت الدكان والحال تقوى إلا أتي في خلال ذلك منكسر النفس، ميت النشاط، ظاهر الحزن، وكان البقال ربما شرب فيجذبني إلى مساعدته، فأمتنع وأظهر أن سبب ذلك حزن على موتى لي.

واستمرت بي الحال على هذا سنين كثيرة، فلما أن كان ذات يوم، رأيت قوماً يجتازون بجون ونبذ اجتيازاً متصلاً، فسألت عن ذلك، فقل لي: اليوم يوم الشعانين ويخرج أهل الظرف واللعب بالنبيذ والطعام والقيان إلى الأبلّة فيرون النصارى، ويشربون ويتفرجون.

فدعيتني نفسي إلى التفرج، وقلت: لعلني أن أفق لأصحابي على خير، فإن هذا من مظاههم، فقلت لحميي: أريد أن أنظر هذا المنظر، فقال: شأنك.

وأصلح لي طعاماً وشراباً، وسلم إلي غلاماً وسفينةً، فخرجت وأكلت في السفينة، وبدأت أشرب حتى وصلت إلى الأبله، وأبصرت الناس، وابتدأوا ينصرفون، وانصرفت، فإذا أنا بالزلزال بعينه في أوساط الناس سائراً في نهر الأبله، فتأملته، فإذا بأصحابي على سطحه، ومعهم عدة مغنيات، فحين رأيتهم لم أتمالك فرحاً، فصرت إليهم، فحين رأوني عرفوني وكبروا، وأخذوني إليهم، وقالوا: ويحك أنت حي! وعانقوني، وفرحوا بي وسألوني عن قصتي، فأخبرتهم بما على أتم شرح، فقالوا: إنا لما فقدناك في الحال، وقع لنا أنك سكرت، ووقعت في الماء فغرقت، ولم نشك في هذا، فمزقت الجارية ثيابها، وكسرت عودها، وجزت شعرها وبكت، ولطمت، فما منعناها من شيء من هذا، ووردنا البصرة، فقلنا لها: ما تحبين أن نعمل لك؟ فقد كنا وعدنا مولاك بوعد تمنعنا المروءة من استخدامك معه في حال فقدته أو سماع غنائك. فقالت: تمكوني من القوت اليسير، وليس الثياب السود، وأن أعمل قبرا في بيت من الدار، وأجلس عنده، وأتوب من الغناء، فمكنها من ذلك، فهي جالسة عنده إلى الآن.

وأخذوني معهم، فحين دخلت الدار ورأيتها بتلك الصورة، ورأيتني شهقت شهقة عظيمة، ما شككت في تلفها، واعتنقنا، فما افترقنا، ساعة طويلة، ثم قال لي مولاها: قد وهبتها لك. فقلت: بل تعتقها، وتزوجني منها، كما وعدتني، ففعل ذلك ودفع إلينا ثياباً كثيرة وفرشاً، وقماشاً، وحمل إلي خمسمائة دينار، وقال: هذا مقدار ما أردت أن أجريه عليك في كل شهر، منذ أول يوم دخولي البصرة، وقد اجتمع هذا لهذه المدة، فخذ، والجائزة لك مستأنفة في كل شهر، وشيء آخر لكسوتك وكسوة الجارية؛ والشرط في المنادمة وسماع الجارية من وراء ستارة باق عليك، وقد وهبت لك الدار الفلانية.

قال: فجئت إليها، فإذا بذلك الفرش والقماش الذي أعطانيه فيها، والجارية، فجئت إلى البقال فحدثته حديثي، وطلعت ابنته، ووفيتها صداقها، وأقمت على تلك الحال مع الهاشمي سنتين، فصلحت حالي، وصرت رب ضيعة ونعمة، وعادت حالي، وعدت إلى قريب مما كنت عليه، فأنا أعيش كذلك إلى الآن مع جاريتي.^١

الجارية الحميراء وابن جامع

قال إسماعيل بن جامع السهمي: ضمني الدهر ضمّاً شديداً بمكة، فانتقلت منها بعيالي إلى المدينة، فأصبحت يوماً ولا أملك إلا ثلاثة دراهم، فخرجت، وهي في كمي. فإذا بجارية حميراء على رقبتها جرة تريد الركي، وتمشي بين يدي، وتترنم بصوت شجي، تقول فيه:

شَكَوْنَا إِلَى أَحِبَائِنَا طَوْلَ لَيْلِنَا، ... فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا

وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عُيُونَهُمْ ... سَرَاعاً، وَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمَ أَعْيُنًا

مَا دَنَا اللَّيْلُ الْمَضْرَّ بِذِي الْهَوَى، ... جَزَعْنَا، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا

فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُلاقُونَ مِثْلَ مَا ... نُلَاقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

فوالله ما دار لي منه حرف واحد. فقلت لها: يا جارية! ما أدري أوجهك أحسن أم صوتك أم جرمك، فلو شئت أعدته علي. فقالت: حباً وكرامةً، ثم أسندت ظهرها إلى جدار كان بالقرب منها، ورفعت إحدى رجليها فوضعتها على ركبته، وحطت الجرة على ساقها،

^١ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢٧٤/٥، مصارع العشاق ٢٢٩/٢

واندفعت تغني بأحسن صوت، فوالله ما دار لي منه حرف واحد، فقلت: لقد أحسنت وتفضلت، فلو شئت أعدته مرةً أخرى.

فقطبت وكلحت، وقالت: ما أعجب هذا! أحذكم يحيى إلى الجارية عليها ضريبة، فيقول لها: أعيدي مرةً بعد أخرى، فضربت يدي إلى ثلاثة دراهم، ودفعتها إليها، وقلت لها: أقيمي بهذا وجهك اليوم إلى أن نلتقي، فأخذتها كالمكرهة، وقالت: الآن تريد أن تأخذ عني صوتاً أحسبك تأخذ عليه ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار، ثم اندفعت تغني، وأعملت فكري في غنائها، فدار لي الصوت، وفهمته، وانصرفت به مسروراً، وذكر باقي الخبر.

قال ابن السراج: وقد ذكرت هذا الخبر بتمامه في أثناء كتابي هذا، فلذلك ما استوعبته هاهنا.^١

مأساة بشر وهند

عن أبي سعد عن أبيه قال: ذكر أنه كان في بدء الإسلام، وبعضهم يزيد على حديث بعض، شاب، وكان يقال له بشر، وكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان من بني أسيد بن عبد العزى، وكان طريقه، إذا غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله، أن يأخذ على جهينة، وإذا فتاة من جهينة، فنظرت إليه، فعشقتة، وكان لها من الحسن والجمال حظ عظيم، وكان لها زوج يقال له سعد بن سعيد، فكانت تقعد كل غداة لبشر، حتى يجتاز بها، لينظر إليها، فلما أخذها حبه كتبت إليه هذه الأبيات:

^١ المجلس الصالح ص ٥٢٨، الأغاني ٦/ ٣٢٦، مصارع العشاق ٢/ ٢٣٤

تَمَرَّ بِبَابِي لَيْسَ تَعْلَمَ مَا الَّذِي ... أُعَالِجُ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْكَ وَمِنْ جُهْدٍ
 تَمَرَّ رَحِيَّ الْبَالِ مِنْ لَوْعَةِ الْهَوَى، ... وَأَنْتَ خَلِيُّ الذَّرْعِ مِمَّا بَدَأَ عِنْدِي
 فَدَيْتُكَ، فَانْظُرْ نَحْوَ بَابِي نَظْرَةً، ... فَإِنَّكَ أَهْوَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عِنْدِي
 فَوَاللَّهِ لَوْ قَصَّرْتَ عَنَّا فَلَضْمٌ تَكُنْ ... تَمَرَّ بِنَا أَصْبَحْتُ لَا شَكَّ فِي لَحْدِ
 فَأَجَابَهَا الْفَتَى يَقُولُ:

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ، إِنَّهُ ... نَهَى عَنْ فُجُورٍ بِالنِّسَاءِ مُوَحِّدُ
 وَصَبْرًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَا تَقْرَبِ الَّذِي، ... نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّتِي مُحَمَّدُ
 فَوَاللَّهِ لَا آتِي حَلِيلَةَ مُسْلِمٍ ... إِلَى أَنْ أُدَلِّيَ فِي الْقُبُورِ، وَأُفْقَدَ
 أَحَاذِرُ أَنْ أَصْلَى جَحِيمًا، وَأَنْ أَرَى ... صَرِيحًا لِنَارٍ حَرُّهَا يَتَوَقَّدُ
 فَلَا تَطْمَعِي فِي أَنْ أَزُورَكَ طَائِعًا، ... وَأَنْتِ لِعَيْرِي، بِالْخِنَاءِ مُعَوِّدُ
 فَأَجَابَتْهُ الْفَتَاةُ تَقُولُ:

أَمَرْتُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالصَّبْرِ وَالتَّقَى، ... فَكَيْفَ؟ وَمَا لِي مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الصَّبْرِ
 وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ حَرَى حَزِينَةً ... مُعَذِّبَةً بِالْحُبِّ مُوقِرَةً الظَّهْرِ؟
 وَوَاللَّهِ مَا أَدْعُوكَ يَا حُبُّ لِلَّذِي ... تَظُنُّ، وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ وَلِلشَّعْرِ
 وَكَيْ تَنْدَاوِي مَا تَرَاكَدَ دَاوُهُ ... مِنَ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ الَّذِي لَكَ فِي صَدْرِي

وَكَيْتُ، فَدَتِكَ النَّفْسُ، أَبْغَيْكَ مَحْرَمًا، ... وَمَا ذَاكَ مِنْ شَأْنِي وَلَا ذَاكَ مِنْ أَمْرِي
وَمَا حَاجَتِي إِلَّا الْحَدِيثُ وَمَجْلِسٌ ... يُسَكِّنُ دَمْعًا يَسْتَهْلُ عَلَى النَّحْرِ
قال فأجابها الفتى:

مَعَ الزَّيَارَةِ أَنْ أَزُورَكَ طَائِعًا، ... أَحْشَى الْفَسَادَ، إِذَا فَعَلْتُ، فَنَعْتَدِي
أَحْشَى دُنُوًّا مِنْكَ غَيْرَ مُحَلَّلٍ، ... فَأَكُونُ قَدْ خَالَفْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ
فَأُخَافُ أَنْ يَهْوَاكَ قَلْبِي شَارِفًا، ... فَيَكُونُ حَتْفِي بِالَّذِي كَسَبْتُ يَدِي
فَالصَّبْرُ خَيْرٌ عَزِيمَةٍ، فَاسْتَعْصِمِي، ... وَإِلَى إِلَهِكَ ذِي الْمَعَارِجِ فَاقْصِدِي
وَإِذَا أَتَيْتُكَ وَسَاوِسُ وَتَفَكَّرْتُ، ... وَتَذَكَّرْتُ، فَلِكُلِّ ذَلِكَ فَاطْرُدِي
وَعَلَيْكَ يَا سَيْنَ، فَإِنَّ بَدْرَ سَهْمَا ... تُنْفِي الْهُمُومَ، وَذَاكَ نَفْسِكَ عَوْدِي
فأجابته الفتاة وهي تقول:

لَعَمْرُكَ مَا يَاسِينَ تُغْنِي مِنَ الْهَوَى، ... وَقُرْبُكَ مِنْ يَاسِينَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِي
فَدَعْ ذِكْرَ يَاسِينَ، فَلَيْسَ بِنَافِعِي، ... فَلَا فِي غَمْرِ الْحَيَاةِ، وَفِي كَرْبِ
تَحَرَّجَتْ عَنْ إِيْتَانِنَا، وَحَدِيثِنَا، ... فَقَتَلْتَنِي، إِنَّ فِكْرَتَ، مِنْ أَكْبَرِ الذَّنْبِ
وَإِيْتَانِنَا أَدْنَى إِلَى اللَّهِ زُلْفَةً، ... وَأَحْسَنُ مِنْ قَتْلِ الْمُحِبِّ بِلَا عَتَبِ

قال: فلما قرأ بشر هذه الأبيات غضب غضباً شديداً، وحلف لا يمر بباب هند ولا يقرأ لها كتاباً، فلما امتنع كتبت إليه تقول:

سألتُ ربي، فقد أصبحت لي شحناً، ... أن تُبَتِّلِي هَوَى مَنْ لَا يُبَالِيكَ
حتى تَذوقَ الذي قد ذُقتُ من نَصَبٍ، ... وَتَطْلُبَ الوَصْلَ مِمَّنْ لَا يُؤَاتِيكَ
رَمَاكَ رَبِّي بِحُمَاةٍ مُقْلِقَةٍ، ... وَبَامْتِنَاعٍ طَيِّبٍ لَا يُدَاوِيكَ
وَأَنْ تَظَلَّ بِصَحْرَاءٍ عَلَى عَطَشٍ، ... وَتَطْلُبَ الْمَاءَ مِمَّنْ لَيْسَ يَسْقِيكَ

فلما لج بشر وترك الممر بياها، أرسلت إليه بوصيفة لها فأنشدته هذه الأبيات، فقال للوصيفة: لأمر ما لا أمر، فلما جاءت الوصيفة أخبرتها بقول بشر، فكتبت وهي تقول:

كَفَرَّ يَمِينُكَ! إِنَّ الذَّنْبَ مَغْفُورٌ، ... وَأَعْلَمَ بِأَنَّكَ كَفَرْتَ مَا جُورُ
لَا تَطْرُدَنَّ رَسُولِي وَارْتَيْنَ لَهُ، ... إِنَّ الرَّسُولَ قَلِيلُ الذَّنْبِ مَأْمُورُ
وَأَعْلَمَ بِأَنِّي أَبَيْتُ اللَّيْلَ سَاهِرَةً، ... وَدَمَعُ عَيْنِي عَلَى خَدَيَّ مَحْدُورُ
أَدْعُوهُ بِاسْمِكَ فِي كَرْبٍ وَفِي تَعَبٍ، ... وَأَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا قَرِيرُ الْعَيْنِ مَسْرُورُ

فلم لج بشر وترك الممر بياها، اشتد عليها ذلك، ومرضت مرضاً شديداً، فبعث زوجها إلى الأطباء، فقالت: لا تبعث إلي طبيباً، فإنني عرفت دائي، قهرني جنِّي في مغتسلي، فقال لي: تحولي عن هذه الدار، فليس لك في جوارنا خير.

فقال لها زوجها: فما أهون هذا. فقالت: إني رأيت في منامي أن أسكن بطحاء تراب.
قال: اسكني بنا حيث شئت، فاتخذت داراً على طريق بشر، فجعلت تنظر إليه، كل غداة، إذا
غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى برأت من مرضها، وعادت إلى حسنهما، فقال
لها زوجها: إني لأرجو أن يكون لك عند الله خير لما رأيت في منامك أن اسكني بطحاء
تراب، فأكثري من الدعاء.

وكانت مع هند في الدار عجوز، فأفشت إليها أمرها، وشكت ما ابتليت به، وأخبرتها
أنها خائفة إن علم بشر بمكانها أن يترك الممر في طريقه، ويأخذ طريقاً آخر، فقالت لها
العجوز: لا تخافي، فإني أعلم لك أمر الفتى كله، وإن شئت أقعدتك معه، ولا يشعر بمكانك.
قالت: ليت ذاك قد كان.

فقعدت العجوز على باب الدار، فلما أقبل بشر قالت له العجوز: يا فتى؟ هل لك أن
تكتب لي كتاباً إلى ابن لي بالعراق؟ قال بشر: نعم! فقعد يكتب، والعجوز تلمي عليه وهند
تسمع كلامهما، فلما فرغ بشر قالت العجوز لبشر: يا فتى! إني لأظنك مسحوراً، قال بشر:
وما أعلمك بذلك؟ قالت له: ما قلت لك حتى علمت، فما الذي هم؟ قال لها: إني كنت أمر
على جهينة، وإن قوماً منهم كانوا يرسلون إلي ويدعونني إلى أنفسهم، ولست آمنهم أن
يكونوا قد أضمروا لي شراً. قالت له العجوز: انصرف عني اليوم حتى أنظر في أمرك.

فلما انصرف دخلت إلى هند فقالت: هل سمعت ما قال؟ قالت: نعم!

قالت: ابشري، فإني أراه فتى حدثاً، لا عهد له بالنساء، ومتى ما أتى وزينتك هنيئةً
وطيبتك، وأدخلتك عليه، غلبت شهوته وهواه دينه، فانظري يخرج زوجك إلى القرية،
فأخبريني.

فسألت هند زوجها، فأخبرها أنه خارج يوم كذا وكذا، وأخبرت هند العجوز، وواعدت بشراً ميعاداً، لتتظر له في نجمه، فلما كان في ذلك الوقت جاء بشر إلى العجوز، فقالت: إني شاكية لست أقدر أن أجعل النشرة. ولكن بيئي أستر عليك، فدخل معها البيت، وجاءت هند خلفها، فدخلت البيت على بشر، فلما دخلت خرجت العجوز، فأغلقت الباب عليهما، وقدم زوج هند من الخروج في ذلك اليوم إلى الضيعة فجاء حتى دخل داره، فوجد مع امرأته رجلاً في البيت، فطلقها، وللب بالفتى فذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا نبي الله! سليمان هذا بأي حق دخل داري، وجامع زوجتي، فبكى بشر، وقال: والله يا رسول الله ما كذبتك منذ صدقتك، وما كفرت بالله منذ آمنت بك، ولا زينت منذ شهدت أن لا إله إلا الله، فقص على النبي صلى الله عليه وآله، قصته.

فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى العجوز وهند، فأحضرهما، فأقرتا بين يديه، فقال: الحمد لله الذي جعل من أمي نظير يوسف الصديق. ثم قال لهند: استغفري لذنبك، وأدب العجوز، وقال لها: أنت رأس الخطيئة، فرجع بشر إلى منزله، وهند إلى منزلها، فهاج بشر حب هند، فسكت حتى إذا قضت عدتها بعث إليها يخطبها، فقالت: لا والله لا يتزوجني وهو قد فضحني عند رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم مرض من حبها، وعاد إليها الرسول، فقال: إنه مريض، وإنك إن لم تفعلي ليموتن، فقالت: أماته الله، فطال ما أمرضني.

قال: ومرض بشر فاشتد مرضه وبلغ أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا إليه يعودونه، فقال بعضهم: أنا أرجو أن يعذب الله هنداً، وأنشأ يقول:

إلهي إني قد بُليتُ مِنَ الهَوَى ... وأصبحتُ يا ذا العرشِ في أشغلِ الشغلِ

أُكَابِدُ نَفْسًا قَدْ تَوَلَّى بِهَا الْهَوَى، ... وَقَدْ مَلَّ أَخَوَانِي وَقَدْ مَلَّنِي أَهْلِي

وَقَدْ أَيْقَنْتُ نَفْسِي بِأَنِّي هَالِكٌ ... بِهِنْدٍ وَأَنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَهَا قَتْلِي

وَأَنِّي وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ مُسِيئَةٌ، ... يَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ تُعَذِّبَ مِنْ أَجْلِي

قال: فشهِق شهقةً فمات، رحمه الله تعالى، وأقامت عليه أخته مأتماً، فقامت تندبه، فجاءت هند، وأخته تقول:

وَابْشِرَاهُ مِنْ لَوْعَةِ الْهَوَى قَدْ تَوَلَّى، ... وَاْبْشِرَاهُ ذُو الْحَاجَاتِ لَا تُقْضَى

وَاْبْشِرَاهُ شَبَابُهُ مَا تَمَلَّى، ... وَاْبْشِرَاهُ صَحِيحًا قَدْ تَوَلَّى

وَاْبْشِرَاهُ لِكِتَابِهِ مَا أَقْرَأَ، ... وَاْبْشِرَاهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ لَا يُرَى

وَاْبْشِرَاهُ لِلضَّيْفِ مَا أَقْرَى، ... وَاْبْشِرَاهُ مُعَجَّلًا إِلَى الْغُرَبَا

قال: فلما سمعت هند صرخت صرخةً، ووقعت ميتةً، رحمهما الله، وذهب بها فدفنت مع بشر، فلما مضت أيام جاءت العجوز إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله، أنا رأس الخطيئة، كما قلت، أنا التي كنت سبب الأمر، وقد خشيت أن لا تكون لي توبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: استغفري لذنبك وتوبي، فإن الله تعالى يقبل التوبة النصوح.

آخر حديثهما.^١

^١ مصارع العشاق ٢/٢٣٥

البن مضر للمشغوف

قال أبو عبد الرحمن الغلابي: قال إسحاق: جاء رجل من التجار بقينة يعرضها على الرشيد، وأمر بإدخالها مقصورةً لتهيأ فيها، فدخل الفضل بن الربيع ليعترضها، ويخبر أمير المؤمنين، فأخذت العود، وأصلحته، وجعلت تنظر في وجه مولاه، وعيناها تذرّفان، وغنت:

قَدْ حَانَ مِنْكَ، فَلَا تَبْعُدْ بِكَ الدَّارُ، ... بَيْنَ، وَفِي الْبَيْنِ لِلْمَشْغُوفِ أَضْرَارُ

فأخبر الفضل بن الربيع الرشيد الخبر، فأمر بردها على مولاه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.^١

الفتول الخنعية وحلف الفضول

عن مفيّ بن عبد الله بن عنبسة: أن رجلاً من خثعم قدم مكة تاجراً، ومعه بنت له يقال لها الفتول، فعلقها نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة، فلم يبرح حتى نقلها إليه وغلب أباه عليها، فقتل لأبيها: عليك بحلف الفضول. فأتاهم، فشكا ذلك إليهم، فأتوا نبيه بن الحجاج، فقالوا له: أخرج ابنة هذا الرجل، وهو يومئذ متبد بناحية مكة، وهي معه. فقال: يا قوم متعوني منها الليلة. قالوا له: لا والله، ولا ساعة، فأخرجها، فأعطوها أباه، وركبوا وركب معهم الخنعمي، فلذلك يقول نبيه بن الحجاج:

^١ مصارع العشاق ٢/٢٤٢

رَاحَ صَحْبِي وَلَمْ أُحْيِ الْفُتُولَا، ... لَمْ أُودِّعْهُمْ وَدَاعًا حَمِيلًا
إِذْ أَجَدَّ الْفُضُولُ أَنْ يَمْنَعُوهَا ... قَدْ أَرَانِي، وَلَا أَخَافُ الْفُضُولَا^١

سواء في الهوى

عن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله الحرر، قال : أخبرني بعض أصحابنا، أخبرني صديق لي من أهل المدينة قال: كان لنا عبد أسود يستقي الماء، فهو يجره لبعض المدنيين سوداء، وكان يواصلها سرّاً منا، فلم يزالا كذلك حتى اشتهر أمرهما، وظهر، فشكا مولى الجارية الغلام إلى أبي، فضربه وحبسه وقيدته، فمكث أياماً على هذه الحال ثم دخلت إليه فقلت له: ويلك! قد فضحتنا وشهرتنا بحبك لهذه السوداء، وتعرضت فيها للمكروه، فهل تجد بك مثل وجدك بها؟ فبكى، وأنشأ يقول:

كَلَانَا سَوَاءٌ فِي الْهَوَى غَيْرَ أَنَّهَُا ... تَجَلَّدُ أحياناً، وَمَا بِي تَجَلَّدُ
تَخَافُ وَعَيْدَ الْكَاشِحِينَ، وَإِنَّمَا ... جَنَوِي عَلَيْهَا حِينَ أُنْهَى وَأُوْعَدُ

قال: فخبرت بذلك أبي، فحلف أنه لا يبيت أو يجمع بينهما، فاشتراها له أبي باثني عشر ديناراً وزوجها منه.^٢

قتيل لا قود له ولا دية

^١ الأغاني ١٧ / ٢٨٥ ، مصارع العشاق ٢ / ٢٤٣

^٢ أخبار النساء ص ١٨٢ ، مصارع العشاق ٢ / ٢٤٥

عن عطاء أن عكرمة قال: كنا عند ابن عباس في آخر أيام العشر في المسجد الحرام، إذ أقبل فتیان يحملون فتىً، حتى وضعوه بين يدي ابن عباس فقالوا: استشف الله له تؤجر.

فقال لهم: ما به؟ فأنشأ الفتى يقول:

وَبِي مِنْ جَوَى الْأَسْقَامِ وَالْحَبِّ لَوْعَةً، ... تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَذُوبُ

وَلَكِنَّمَا أَبْقَى حُشَّاشَةً مَا تَرَى ... عَلَى مَا بِهِ عُوْدُ هُنَاكَ صَلِيبُ

قال ابن عباس: والله ما رأيت وجهاً أعتق، ولا لساناً أذلق، ولا عوداً أصلب من هذا، هذا والله قتيل الحب والهوى، لا قود له ولا دية.^١

حياة الكلام وموت النظر

عن أعرابي من عذرة يكنى أبا المعرج قال: نزل أعرابي من بني أسد بأعرابية من طي في يوم صائف، فأتته بقرى حاضر وماء بارد، فنظر إليها، ففتنته بنظرها من وراء البرقع، فراودها عن نفسها، فقالت: يا هذا! أما يقدعك الإسلام والكرم؟ كل وقل، وإن أردت غير ذلك فارتحل، فأنشأ الأسدي يقول:

تَقُولُ لِي عَمْرَةَ قَوْلَ الْمُبْتَعِلِ: ... لِلضَّيْفِ حَقٌّ يَا فَتَى فَكُلْ وَقُلْ

فَعِنْدَنَا مَا شِئْتَ مِنْ بَرْدٍ وَظِلٍّ، ... أَمَّا الَّذِي تَطْلُبُهُ، فَلَا يَحِلُّ

^١ مصارع العشاق ٢ / ٢٤٥

يَمْنَعُ مِنْهُ الدِّينُ وَالْعِرْقُ الْأَصْلُ

قال: وعلقها، فقال: فزوجيني نفسك. فقالت: شأنك وأوليائي؟ فأتاهم، فخاف أن لا يزوجه للعداوة التي بينهم، فانتسب عذرياً، فزوجه، فأقام معها زماناً ثم علم به أهلها، فقالوا: يا هذا والله إنك لكفو كريم، ولكننا نكره أن تنكح منا وأنت حربنا، فخل عن صاحبتنا، وقد كان تزايد وجده بها لما رأى من موافقتها وحسنها، وكانت تمالكه عند الجماع، فطلقها وقال:

أَحْبَبْتُ يَا عَمَرَ حُبَّ الْمُسْرِ، ... لِطُولِ الْحَيَاةِ وَأَمْنِ الْغَيْرِ
وَيُعْجِبُنِي مِنْكَ عِنْدَ الْجِمَا ... عَ حَيَاةُ الْكَلَامِ وَمَوْتُ النَّظَرِ
وَهَجْرُكَ يَرْمِينِ بِالْمُنْكَرَاتِ ... أَغَالِيظُ ذُو السَّكْرِ الْمُبْتَهَرِ
وَذُو أَشَرِّ بَارِدٍ طَعْمُهُ، ... وَرَأْيِي الْمَجَسَّةِ سُخْنِ الْقَعْرِ^١

الأخوات الثلاث وكتابهن

قال الزبير بن بكار، حدثني عم لي قال: ذكر لي رجل من أهل المدينة أن رجلاً خرج حاجاً، فبينما هو قد نزل تحت سرحة في بعض الطريق، بين مكة والمدينة، إذا هو بكتاب معلق في السرحة مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أيها الحاج القاصد بيت الله إن ثلاث أخوات فتيات خلون يوماً، فبحن بهواهن، وذكرن أشجانهن، فقالت الكبرى منهن:

عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجَعِي، ... وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظاً كَانَ أَعْجَبَا

^١ مصارع العشاق ٢ / ٢٤٨

وقالت الوسطى:

ما زَارَنِي فِي النَّوْمِ إِلَّا خَيَالُهُ، ... فَقُلْتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرَحَبًا

وقالت الصغرى:

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ ... ضَجِيعِي، وَرِيَاءُ مِنَ الْمِسْكِ أَطْيَبَا

وفي أسفل الكتاب: رحم الله من نظر في كتابنا هذا وقضى بيننا بالحق ولم يجر في القضية. قال: فأخذ الكتاب فتى وكتب في أسفله:

أُحَدِّثُ عَنْ حُورٍ تَحَدَّثَنَ مَرَّةً، ... حَدِيثَ امْرِئٍ سَأَسَ الْأُمُورَ وَجَرَّبَا

ثَلَاثَ كَبْكِرَاتٍ الْهَجَانِ عَطَابِلٍ، ... نَوَاعِمَ يَقْتُلْنَ اللَّيْمَ الْمُسَبِّبَا

خَلَوْنَ، وَقَدْ غَابَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ، ... مِنَ اللَّاءِ قَدْ يَهُوِينَ أَنْ يَتَغَيَّبَا

فَبَحْنَ بِمَا يُخْفِينَ مِنْ لَاعِجِ الْهَوَى، ... مَعًا، وَاتَّخَذْنَ الشَّعَرَ مَلْهَى وَمَلْعَبَا

عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجِعِي، ... وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَانَ أَعْجَبَا

وَإِذْ أَخْبَرْتُ مَا أَخْبَرْتُ وَتَضَاكَكَتْ، ... تَنَفَّسَتْ الْأُخْرَى، وَقَالَتْ تَطَرُّبَا:

وَمَا زَارَنِي فِي النَّوْمِ إِلَّا خَيَالُهُ، ... فَقُلْتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرَحَبًا

وَشَوْقَتِ الْأُخْرَى وَقَالَتْ مُجِيبَةً ... لَهُنَّ بِقَوْلٍ كَانَ أَشْهَى وَأَعْدَبَا:

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ ... ضَجِيعِي، وَرِيَاءُ مِنَ الْمِسْكِ أَطْيَبَا

فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ الَّذِي قُلْنَ وَأَنْبَرَى ... لِي الْحُكْمُ لَمْ أَتْرُكْ لَدَى الْقَوْلِ مَعْتَبَا
قَضَيْتُ لَصُغْرَاهُنَّ بِالظَّرْفِ، إِنِّي ... رَأَيْتُ الَّذِي قَالَتْ إِلَى الْقَلْبِ أَطْرَبَا^١

غريبان وجارية

قال ابن علي الكاتب، أخبرني بعض أصحابنا من الكتاب قال: دخلت البصرة أنا وصديق لي، فرأيت جارية قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر، فقلت لصاحبي: لو ملت بنا إليها فاستسقيناه ماء؟ ففعل، فقلنا له: جعلنا الله فداءك، اسقينا ماء، فقالت: نعم، وكرامة! فدخلت وأخرجت كوز ماء، وهي تقول:

أَلَا حَيَّ شَخْصِي قَاصِدِينَ أَرَاهُمَا ... أَقَامَا فَمَا أَنْ يَعْرِفَا مُبْتَغَاهُمَا
هُمَا اسْتَسْقَيَا مَاءً عَلَى غَيْرِ ظَمَاءٍ ... لَيْسَتَمَتَا بِاللَّحْظِ مِمَّنْ سَقَاهُمَا

فقلت لها: جعلني الله فداءك، فهل لك في الخلوة؟ فقلت، وهي تقول: شه! أجهل أنا فيركبني اثنان؟^٢

المضل إبله والجارية الموجهة القلب

عن الأصمعي قال: سمعت رجلاً من بني تميم يقول: أضللت إبلاً لي، فخرجت في طلبهن، فمررت بجارية أعشى نورها بصري، فوقفتم بها، فقالت: ما حاجتك؟ قلت: إبل لي

^١ المجلس الصالح ص ٢٨٤، مصارع العشاق ٢ / ٢٥٠

^٢ مصارع العشاق ٢ / ٢٥١

أضللتها، فهل عندك شيء من علمها؟ قالت: أفلا أدلك على من عنده علمهن؟ قلت: بلى!
قالت: الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختيار.
ثم تبسمت، وتنفست الصعداء، ثم بكّت وأطالت البكاء، وأنشأت تقول:

إني وإن عَرَضْتُ أشياء تُضْحِكُنِي، ... لُمُوجِعُ الْقَلْبِ مَطْوِيٌّ عَلَى الْحَزَنِ

إذا دَجَا اللَّيْلُ أَحْيَا لِي تَذَكُّرُهُ، ... وَالصَّبْحُ يَبْعَثُ أَشْجَانًا عَلَى شَجَنِ

وَكَيْفَ تَرْقُدُ عَيْنٌ صَارَ مُؤْنِسُهَا ... بَيْنَ التَّرَابِ، وَبَيْنَ الْقَبْرِ وَالْكَفَنِ

أَبْلَى الثَّرَى وَتُرَابُ الْأَرْضِ جِدَّتُهُ، ... كَأَنَّ صُورَتَهُ الْحَسَنَاءَ لَمْ تَكُنْ

أَبْكِي عَلَيْهِ حَنِينًا حِينَ أَذْكُرُهُ، ... حَنِينَ وَالْهَةِ حَنَّتْ إِلَى وَطَنِ

أَبْكِي عَلَى مَنْ حَنَّتْ ظَهْرِي مُصِيبَتُهُ، ... وَطَيْرَ النَّوْمِ عَنْ عَيْنِي وَأَرْقَنِي

وَاللَّهِ لَا أَنْسَ حَبِّي الدَّهْرَ مَا سَجَعْتُ ... حَمَامَةً، أَوْ بَكَى طَيْرٌ عَلَى فَنَنِ

فقلت، عندما رأيت من جمالها وحسن وجهها وفصاحتها وشدة جزعها: هل لك من
بعل لا تدم خلائقه وتؤمن بوائقه؟ فأطرقت ملياً ثم أنشأت تقول:

كُنَّا كَعُصْنَيْنِ فِي أَصْلِ غِذَاؤُهُمَا ... مَاءُ الْجَدَاوِلِ فِي رَوْضَاتِ جَنَاتِ

فَاجْتَثَّ خَيْرُهُمَا مِنْ جَنْبِ صَاحِبِهِ، ... دَهْرٌ يَكُرُّ بِفَرَاحَاتٍ وَتَرْحَاتِ

وَكَانَ عَاهِدَنِي، إِنَّ خَائِنِي زَمَنْ، ... أَنْ لَا يُضَاجِعَ أَنتَى بَعْدَ مَثَوَاتِي

وَكُنْتُ عَاهِدْتُهُ أَيْضًا، فَعَاجَلَهُ ... رَيْبُ الْمُنُونِ مُذْ سُنِّيَاتِ

فأصْرِفْ عِنَانَكَ عَمَّنْ لَيْسَ يَرُدُّهُ ... عَنِ الْوَفَاءِ خِلَابٌ فِي التَّحِيَّاتِ^١

اليَدُ الْمَسْمُوطَةُ

قال أبو العباس بن عطاء:

كان يحضر حلقتي شاب حسن الوجه يخبي يده. قال: فوقع لي أن الرجل قد قطعت يده على حال من الأحوال، قال: فجاءني يوم الجمعة، وقد جاءت السماء بالبركات، ولم يجئني في ذلك اليوم أحد، فطالبتني نفسي بمخاطبته، فدفعته مراراً كثيرة إلى أن غلب علي كلامه، فكلَّمته فقلت له: يا فتى ما بال يدك تحببها، لم لا تخرجها، فإن كان بها علة دعوت الله تعالى لك بالعافية، فما سببها؟ فأخرجها، فرأيت فيها شيئاً بالشلل، فقلت: يا فتى ما أصاب يدك؟ قال: حديثي طويل. قلت: ما سألتك إلا وأحب أن أسمع.

فقال لي الغلام: أنا فلان بن فلان، خلف لي أبي ثلاثين ألف دينار، فعلفت نفسي بجمارية من القيان، فأنفقت عليها جملة، ثم أشاروا علي بشرائها، فاشتريتها بستة آلاف دينار، فلما حصلت عندي وملكتها قالت: لم اشتريتي، وما في الأرض أبغض إلي منك، وإني لأرى نظري إليك عقوبة، فاسترد مالك، فلا متعة لك بي، مع بغضي لك. قال: فبذلت لها كل ما يئذله الناس، فما ازدادت إلا عتواً، فهممت بردها، فقالت لي داية لي: دعها تموت ولا تموت أنت.

قال: فاعتزلت في بيت، ولم تأكل ولم تشرب، وإنما كانت تبكي وتتضرع حتى ضعف الصوت، وأحسنا منها بالموت، وما مضى يوم إلا وأنا أجيء إليها وأبذل لها الرغائب، وما ينفع ذلك ولا تزداد إلا بغضاً لي.

^١ مصارع العشاق ٢/٢٥٢

فلما كان اليوم الرابع أقبلت عليها وسألتها عما تشتهي، فاشتتهت حريرةً فحلفت لا يعملها أحد سواي، وأوقدت النار ونصبت القدر، وبقيت أمرس ما جعل فيها، والنار تعمل، وقد أقبلت علي تشكو ما مر بها من الآلام في هذه الأيام، فأقبلت دايتي، فقالت: يا سيدي سليمان يدك؟ قد ذهبت، فرفعتها وقد انسمطت علي ما تراها.

قال أبو العباس: فصعقت صعقةً، وقلت: يا بأبي هذا في طلب المعشوق أقبل عليك، فنالك هذا كله.^١

ود ووفاء حتى الموت

عن مولى لعلبي بن أبي طالب، قال: إن فتىً من قريش من أهل المدينة هوي جارية منهم، فاشتد وجد كل واحد منهما بصاحبه، ثم بلغه عنها أنها تبدلت، فشكا ذلك إلى أخ له، فكان يستريح إليه، وكانت الجارية قد خرجت مع صواحب لها تبدى، فقال له صاحبه: الرأي أن تتلقاها فتعلمها ذلك، فإن كانت قد فعلت كان اعتزالك عنها، وإن كانت لم تفعل لم تعجل عليها بقطيعة.

قال: فخرجنا حتى أتينا القصر الذي هي فيه، وأرسل إليها: إني أريد أن أكلمك، فأرسلت إليه: إني لا أقدر نهاراً، ولكن موعداً الليلة من وراء القصر. فلقيها لموعدها، فشكا إليها وذكر شدة وجده بها وما هو فيه. فقالت: قد أكثرت علي، وما أدري بما أجيبك، إلا أن مثلي ومثلك ما قال جميل:

فما سِرْتُ من ميلٍ ولا سِرْتُ لَيْلَةً ... مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا اعْتَادَنِي مِنْكَ طَائِفُ

^١ مصارع العشاق ٢٥٦/٢

وَلَا مَرَّ يَوْمٌ مُذْ تَرَامَتْ بِكَ النَّوَى ... وَلَا لَيْلَةٌ إِلَّا هَوَى مِنْكَ رَادِفُ

أَهْمٌ سُلُوءاً عَنْكَ ثُمَّ تُرَدِّي ... إِلَيْكَ وَتَتَنِي عَلِيكَ الْعَوَاطِفُ

فَلَا تَحْسِنِ النَّأْيَ أَسْلَى مَوَدِّي، ... وَلَا أَنْ عَيْنِي رَدَّهَا عَنْكَ عَاطِفُ

وَكَمْ مِنْ بَدِيلٍ قَدْ وَجَدْنَا وَطَرَفَةٍ، ... فَتَأْبَى عَلَيَّ النَّفْسَ تِلْكَ الطَّرَائِفُ

ثم افترقا وقد خرج ما كان في قلوبهما فلم يزاالا على الوفاء والود حتى ماتا.^١

وفاء أعرابية لزوجها

قال الأصمعي: رأيت أعرابية ذات جمال فائق. معني، وهي تتصدق، فقلت لها: يا أمة الله تتصدقين، ولك هذا الجمال؟ فقالت: قدر الله فما أصنع؟ قلت: فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج نتقممهم، ونغسل ثيابهم. قلت: فإذا ذهب الحاج، فمن أين؟ فنظرت إلي، وقالت لي: يا صلت الجبين! لو كنا إنما نعيش من حيث تعلم لما عشنا.

فوقعت بقلبي. فقلت لها: هل لك زوج يعفك ويغنيك الله بسعيه وكده؟ قالت: هيهات، ما أنا إذاً من العرب، ولم أف له! فعلمت أن زوجها توفي وآلت أن لا تتزوج بعده، فتركتها.^٢

^١ مصارع العشاق ٢٦١/٢

^٢ العقد الفريد ١٦٢/٣، عيون الأخبار ٣٥٢/١، مصارع العشاق ٢٦٣/٢

عمر ونصر بن حجاج

بينما عمر بن الخطاب يطوف ذات ليلة في سكة من سكك المدينة، إذ سمع امرأة وهي تهتف من خدرها وتقول:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمِرٍ فَأَشْرَبَهَا، ... أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
إِلَى فِتْيٍ مَاجِدٍ الْأَعْرَاقِ مُقْتَبِلٍ، ... سَهْلٍ الْمُحَيَّا، كَرِيمٍ، غَيْرِ مِلْجَاجٍ

قال: فقال عمر، رحمة الله عليه: ألا أرى معي في المصر رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن؟ علي بنصر بن حجاج! فأني به، فإذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً، فقال: علي بالحجام، فجز شعره، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال: اعتم، فاعتم، ففتن الناس. فقال عمر: والله لا تساكني ببلد أنا فيه. قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين! قال: هو ما قلت لك. فسيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يدر إليها عمر بشيء، فдست إليه أبياتاً تقول فيها:

قُلْ لِلْإِمَامِ الَّذِي تُخَشَى بَوَادِرُهُ: ... مَا لِي وَلِلْخَمْرِ أَوْ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
إِنِّي عَنِتُّ أَبَا حَفْصٍ بَغَيْرِهِمَا، ... شَرِبَ الْحَلِيبِ وَطَرَفٍ غَيْرِهِ سَاجِي
إِنَّ الْهَوَى ذِمَّةُ التَّقْوَى، فَقَيْدُهُ ... حَتَّى أَقْرَّ بِالْجَامِ وَإِسْرَاجٍ
لَا تَجْعَلِ الظَّنَّ حَقًّا، أَوْ بُيِّنَهُ، ... إِنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ الْخَائِفِ الرَّاحِي

قال: فبعث إليها عمر: قد بلغني عنك خبر، وإني لم أخرجك من أجلك، ولكن بلغني أنه يدخل على النساء، ولست آمنهن.

قال: وبكى عمر، وقال: الحمد لله الذي قيد الهوى حتى أفر بإلجام وإسراج. ثم إن عمر كتب إلى عامله بالبصرة كتباً، فمكث الرسول عنده أياماً، ثم نادى مناديه: الا إن يريد المسلمين يريد أن يخرج، فمن كانت له حاجة فليكتب! فكتب نصر بن حجاج كتاباً، ودسه في الكتب، ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين سلام عليك! أما بعد فلعمري، يا أمير المؤمنين، لئن سيرتني أو حرمتني وما نلت مني عليك بحرام، وكتب بهذه الأبيات:

أَنَّ غَنَّتِ الذَّلْفَاءُ يَوْماً بِمُنِيَّةٍ، ... وَبَعْضُ أَمَانِي التَّسَاءِ غَرَامُ
ظَنَنْتَ بِي الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ ... بَقَاءٌ، فَمَا لِي فِي النَّدِيِّ كَلَامُ
وَيَمْنَعُنِي مِمَّا تَظُنُّ تَكْرُمِي، ... وَأَبَاءُ صِدْقٍ سَالِفُونَ كِرَامُ
وَيَمْنَعُهَا مِمَّا تَظُنُّ صَلَاتُهَا، ... وَحَالُهَا فِي قَوْمِهَا وَصِيَامُ
فَهَذَانِ حَالَانَا! فَهَلْ أَنْتَ رَاجِعِي، ... فَقَدْ جُبَّ مَنِي كَاهِلُ وَسَنَامُ

فقال عمر، لما قرأ الكتاب: أما ولي سلطان فلا، فما رجع إلى المدينة إلا بعد وفاة عمر، وله خبر طويل ليس هذا موضعه، ويقال إن هذه الممتنية أم الحجاج.^١

نصيب وزينب

عن الضحاك بن عثمان الخزاعي قال: خرجت في آخر الحج، فتزلت بخيمة بالأبواء على امرأة، فأعجبني ما رأيت من حسننها، فتمثلت بقول نصيب:

^١ مصارع العشاق ٢/٢٦٦

بَزِينَبِ الْمِمِّ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ ... وَقُلْ إِنْ تَمَلَّيْنَا فَمَا مَلَكِ الْقَلْبُ
 وَقُلْ فِي تَجَنِّيْهَا لَكَ الذَّنْبُ: إِنَّمَا ... عَتَابُكَ مَنْ عَاتَبْتَ فِيمَا لَهُ عَتَبُ
 خَلِيلِيٍّ مِنْ كَعْبٍ أَلَمَّا، هُدَيْتُمَا، ... بَزِينَبِ، لَا يَفْقَدُكُمَا أَبَدًا كَعْبُ
 وَقُولَا لَهَا: مَا فِي الْبُعَادِ لِذِي الْهَوَى ... بُعَادُ، وَمَا فِيهِ لَصَدْعِ التَّوَى شَعْبُ
 فَمَنْ شَاءَ رَامَ الْوَصْلَ، أَوْ قَالَ ظَالِمًا ... لِصَاحِبِهِ ذَنْبُ، وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ

قال: فلما سمعني أتمثل بالأبيات قالت: يا فتى! أتعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم! ذاك نصيب. قالت: نعم، هو ذاك، أفتعرف زينب؟ قلت: لا! قالت: أنا والله زينب. قلت: فحياتك الله. قالت: أما إن اليوم موعده من عند أمير المؤمنين. خرج إليه عام أول، وعدني هذا اليوم. ولعلك لا تبرح حتى تراه.

قال: فما برحت من مجلسي، وإذا أنا براكب يزول مع السراب. فقالت: ترى خبيب ذاك الراكب؟ إني أحسبه إياه.

ثم أقبل الراكب حتى أناخ قريباً من الخيمة، فإذا هو نصيب، ثم ثنى رجله عن راحلته، فترل ثم أقبل، فسلم علي، وجلس ناحية، وسلم عليها، وسألهما وسألهته فأحفيا، ثم سأله أن ينشدها ما أحدث من الشعر بعدها، فجعل ينشدها، فقلت في نفسي: عاشقان أطلاا التناهي، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة.

فقممت إلى راحلتي أشد عليها، فقال لي: على رسلك! أنا معك. فجلست حتى نهض، ونهضت معه، فتسايرنا ساعة، ثم التفت إلي فقال: قلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. قلت: نعم! قد كان ذاك. قال: فلا ورب هذه

البنية التي إليها نعلم ما جلست منها مجلساً قط أقرب من مجلسي الذي رأيت، ولا كان بيننا مكروه قط.^١

العاشق المتكتم

قال إسحق بن جعفر الفارسي: سمعت عمر بن عبد الرحمن يحكي عن بعض العمرين قال: بينا أنا يوماً في منزلي إذ دخل علي خادم لي، فقال لي: رجل بالباب معه كتاب. فقلت له: ادخله، أو خذ كتابه. قال: فأخذت الكتاب منه، فإذا فيه هذه الأبيات:

تَجَنَّبَكَ الْبَلَاءُ، وَلَقِيتَ خَيْرًا، ... وَسَلَّمَكَ الْمَلِيكُ مِنَ الْعُمُومِ

شَكَّوْنَ بَنَاتُ أَحْشَائِي إِلَيْكُمْ ... هَوَايَ حِينَ أَلْفَتَنِي كُتُومُ

وَحَاوَلَنَ الْكِتَابَ إِلَيْكَ فِي مَا ... يُخَامِرُهَا، فَدَتَكَ مِنَ الْهُمُومِ

وَهَنَ يَقْلَنَ يَا ابْنَ الْجُودِ: إِنَّا ... بَرِمْنَا مِنْ مُرَاعَاةِ النَّجُومِ

وَعِنْدَكَ، لَوْ مَنَنْتَ، شِفَاءٌ سُقْمِي ... لِأَعْضَاءِ صَنِينَ مِنَ الْكُلُومِ

فلما قرأت الأبيات قلت: عاشق. فقلت للخادم: ادخله، فخرج إليه الخادم بالخبر فلم يجده، فقلت أخطأت، فما الحيلة؟ فارتببت في أمره، وجعل الفكر يتردد في قلبي، فدعوت

^١ روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٣٢٧ ط دار الكتب العلمية ، مصارع العشاق ٢/٢٧٠

جواري كلهن ممن يخرج منهن ومن لا يخرج فجمعتهن ثم قلت: أخبرني الآن قصة هذا الكتاب.

قال: فجعلن يحلفن، وقلن: يا سيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سبباً وإنه لباطل. ثم قلن: من جاء بهذا الكتاب؟ فقلت: قد فاتني، وما أردت بهذا القول لأني ضننت عليه. بمن يهوى منكن، فمن عرفت منكن أمر هذا الرجل، فهي له فلتذهب إليه متى شاءت، وتأخذ كتابي إليه.

قال: فكتبت إليه كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله، وعما يقصده، ووضعت الكتاب في موضع من الدار، وقلت: من عرف شيئاً فليأخذه، فمكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه أحد ولا أرى للرجل أثراً، فاغتممت غماً شديداً ثم قلت: لعله من بعض فتياننا، ثم قلت: إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع، وقد قنع ممن يحبه بالنظر، فدبرت عليه، فحجبت جواري من الخروج.

قال: فما كان إلا يوم وبعض آخر، حتى دخل الخادم ومعه كتاب، فقلت له: ما هذا؟ قال: أرسل به إليك فلان، وذكر بعض أصدقائي، فأخذا الكتاب ففضضته، فإذا فيه هذه الأبيات:

ماذا أردتَ إلى رُوحٍ مُعَلَّقَةٍ ... عند التراقي، وحادي الموتِ يحذوها

حشّتَ حادِيها ظُلماً، فجَدَّ بها ... في السَّيرِ، حتى تَوَلَّتْ عن تَرَاقيها

حَجَبْتَ من كان يحْيِي عند رُؤْيَتِهِ ... رُوحِي، ومن كان يَشْفِينِي تَلَاقيها

فالتَّفَسُّ تَرْتاحُ نحوَ الظَّلمِ جاهِلَةً، ... والقلبُ مني سَلِيمٌ ما يُؤَاتِيها

واللهِ لو قِيلَ لي تأتي بفاحِشَةٍ، ... وإنَّ عُقباك دُنِيانا وما فيها

لَقُلْتُ: لَا وَالَّذِي أَحْشَى عُقُوبَتَهُ ... وَلَا بِأَضْعَافِهَا مَا كُنْتُ آتِيهَا

لَوْ لَا الْحَيَاءُ لُبَحْنَا بِالَّذِي كَتَمْتُ ... بِنْتُ الْفُؤَادِ، وَأَبْدَيْنَا تَمَنِّيَهَا

قال: قلت لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل، وقلت للخادم: لا يأتيك أحد بكتاب إلا قبضت عليه حتى تدخله إلي، ولم أعرف له بعد ذلك خبراً.

قال: فبينما أنا أطوف بالكعبة، إذا أنا بفتى قد أقبل نحوي، وجعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني، وقد صار مثل العود. قال: فلما قضيت طوافي خرجت واتبعني، فقال: يا هذا! أتعرفني؟ قلت: ما أنكرك لسوء، قال: أنا صاحب الكتابين.

قال: فما تمالككت أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبي أنت وأمي، والله لقد شغلت علي قلبي، وأطلت غمي لشدة كتمانك لأمرك، فهل لك فيما سألت وطلبت؟ قال: بارك الله لك وأقر عينك إنما أتيتك مستحلاً من نظر كنت أنظره على غير حكم الكتاب والسنة، والهوى داع إلى كل بلاء، وأستغفر الله. فقلت: يا حبيبي أحب أن تصير معي إلى المنزل، فأنس بك وتجري الحرمة بيني وبينك. قال: ليس إلى ذلك سبيل، فاعذر وأجب إلى ما سألتك. فقلت: يا حبيبي! غفر الله لك ذنبك، وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار تعيش بها، ولك في كل سنة كذا وكذا.

قال: بارك الله لك فيها فلولا عهود عاهدت الله تعالى بها وأشياء وكدها على نفسي لم يكن شيء في الدنيا أحب إلي من هذا الذي تعرضه علي، ولكن ليس إليه سبيل، والدنيا فانية منقطعة.

حدثني قلت له: فأما إذ أبيت أن تصير إلى ما دعوتك إليه، فأخبرني من هي من جوارى حتى أكرمها لك ما بقيت. فقال: ما كنت لأسميها لأحد أبداً، ثم سلم علي، ومضى فما رأيته بعد ذلك.^١

طريد العشق

قال علي بن صالح عن ابن دأب: كان من حديث جاركز الربابي، والرباب بنو عبد مناة، أن أباه كان رجلاً من طابخة، يقال له حباب، وكان شجاعاً فاتكاً، وأنه قتل رجلاً من بني حباب بن هبل بن كلب بن وبرة، فرهنهم بالدية امرأته وابنه حية، وهو صغير، وخرج حباب في جمع الدية، فهلك، وبقيت امرأته وابنة في يدي كلب، وشب ابنه حية، فشرب أحسن فتى في العرب وأوضأهم، فعلق جارية من جوارى الحي، وعلقتة، وفسدت به فساداً شديداً، حتى جلس نسوة من كلب، ذات ليلة، يلعبن، ويتذاكرن الشراب، ففطن به، وسمعت بذلك كلب، وكان قد علق فتاة منهم، فطلبته كلب، فخرج هارباً، فأدركه أخوها، فرماه حية، فقتله، وانطلق، فلحق بقوم من بلقين، فاستجار بهم، فأجاروه، فعاث في نسائهم، وعلقتة امرأة منهم، فطلبته بلقين، فأعجزهم، وهرب حتى أتى أمه ليلاً، فقالت: ويلك! إن القوم قاتلوك. فقال: والله ما أجد مذهباً.

قال: وأخفته وذكر ذلك لظئر لها، هو أخو ابن لها أرضعته، فقالت: أرسله، فأرسلته إليها، فأخذته فخيطة عليه عباءة، فجعلته كهيئة الكرز، ثم طرحته بفناء بيتها، حتى مر بها عدي بن أوس الكلبي، فقالت: يا عدي! إني قد أردت أن أظعن، وإني أريد أن تجير لي كرزي

^١ روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٥٤ ، مصارع العشاق ٢/٢٧١

هذا، وما فيه، قال: قد أجزته، وأمر به، فحمل إلى بيته، فلما نظر إلى الكرز أنكره، ففتشه، فإذا فيه حية، فقال: لا أنعم الله بك عينا، ولكن أجاره وبرز، فقالت له أمه: ويلك مهلاً عن نساء الحي! فلم يلتفت إليها، ورأته ابنة عدي، فعلقته، وعلقها، فمكثت بذلك مدة، وعدي لا يعلم، فقال:

ما زلت أطوي الحيَّ أسمعُ حسَّهم، ... حتى وقَعْتُ على رَيْبَةٍ هَوْدَجٍ

فَوَضَعْتُ كَفِّي عِنْدَ مَقْطَعِ حَصْرِهَا، ... فَتَنَفَّسَتْ بُهْرًا، وَلَمَّا تَنَهَجَ

وَتَنَاوَلَتْ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ، ... مُخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجٍ

قَالَتْ: وَعَيْشِ أَبِي وَنَعْمَةِ وَالدي، ... فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تُحْرَجِ

قال: فلما بلغ عدي بن أوس الخبر، وأنشد الشعر، أمر به فربط، ثم أخرج إلى خارج البيوت فقتل.^١

أعوذ بالله من الحرام

قال سلم بن عبد الرحمن: كان عندنا بالمدينة فتى من أهل الأدب والدين، وكان له جمال، فعلقته امرأة من أهل المدينة، من قريش، فأرادت كلامه، فاستحيت منه، فكتبت إليه:

أَلَا مَنْ عَذِيرِي مِنْ هَوَايَ وَمَنْ قَلْبِي، ... فَقَدْ بَرَّحَا بِي، فَاشْتَكَيْتُ إِلَى رَبِّي

هُمُومِي وَأَحْزَانِي وَطُولُ بِلْيَتِي ... مَنَ غَابَ عَن عَيْنِي، فَطَالَ بِهِ نَحْيِي

^١ مصارع العشاق ٢/٢٧٥

فَدَيْتُكَ لَوْلَا حَيْفَةُ اللَّهِ فِي الَّذِي ... تُكَاتِمُهُ نَفْسِي لِأَظْهَرْتُ مَا حُبِّي

قال: فلما أتاه الكتاب أظهر تعجباً، وكان في غفلة عن ذلك، فكتب إليها: وصل إلي كتابك، وفهمت ما سألت، فعلى أي وجه يكون وصالنا، وأصل فراق أم وصل اتفاق؟ فإن كان وصل فراق، فلا حاجة لنا فيه، وإن كان وصل اتفاق، فذاك الذي نريد.

قال: فأرسلت إليه: معاذ الله من وصل فرقة يدعو إلى حسرة، وما سألتك إلا الحق، وإني أعوذ بالله من فعل الحرام.

قال: ففكر في نفسه. فقال: هذه امرأة لها شرف وقدر، ومه هذا يسار، وليس يخطئني ما أحذره من قول الناس.

قال: فأرسل إليها: يا هذه قد فكرت في هذا الأمر، وتدبرته، فلم أر الذي أخاف من عاقبته يخطئني، وإني أكره أن أتعرض لقالة الناس وكلامهم، وكتب إليها:

صُدِّي الْفُؤَادَ عَنِ الطَّرِيقِ الْأَبْعَدِ ... ثُمَّ اسْلُكِي قَصْدَ السَّبِيلِ الْأَقْصَدِ

وَدَعِي التَّشَاغُلَ بِالَّذِي أَصْبَحْتُمْ ... فِيهِ، فَإِنِّي قَدْ أَحَالَكَ تُرْشَدِي

قال: فأمسكت عنه فلم تعاوده.^١

الفتى المتعبد والمفتونة به

^١ مصارع العشاق ٢٧٧/٢

عن عبد الواحد بن زياد الافريقي، حدثني أبي قال: سمعت شيخاً من أهل العلم يقول:
كان عندنا فتى متعبد، حسن السيرة، فأحبته جارية من قومه، وجعلت تكاتم أمرها مخافة
الغيب، فمكثت بذلك حيناً، فلما بلغ الحب منها أرسلت إليه بكتاب وضمنته هذه الأبيات:

تَطَاوَلَ كِتْمَانِي الْهُوَى، فَأَبَادَنِي، ... فَأَصْبَحْتُ أَشْكُو مَا أَلَاقِي مِنَ الْوَجْدِ

إِنْ كُنْتُ مُعْتَصِماً بِاللَّهِ تَخْدُمُهُ، ... فَإِنَّ تَحْلِيلَنَا فِي مُحْكَمِ السُّورِ

فلما وصل إليه الكتاب قال: ما هذا؟ قالت: تقرأه، فأبى، فلم تزل تلطف به حتى فتحه،
فقرأه، ثم رمى به إليها. فقالت: ما له جواب؟ قال: بلى! قالت: ما هو؟ قال: قولي لها: وهو
الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار.

فصارت إليها، فأخبرتها بما جرى بينهما، فكتبت إليه:

فَرَجَّ عَنْ الْقَلْبِ بَعْضَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ، ... وَجَدْتُ بَوْصِلَكَ، وَالْمِجْرَانَ فَاجْتَبِ

إِنَّا سَأَلْنَاكَ أَمْرًا مَا نُرِيدُ بِهِ ... إِلَّا الصَّلَاحَ، وَأَنْ نَلْقَاكَ عَنْ قُرْبِ

فَإِنْ أَجَبْتَ إِلَى مَا قَدْ سَأَلْتُ، فَقَدْ ... نَلْتُ الْمُنَى، وَالْهُوَى، يَا مُنْتَهَى أَرْبِي

وَإِنْ كَرِهْتَ وَصَالِي قُلْتُ: أَكْرَهُهُ، ... وَإِنِّي رَاجِعٌ عَنْ ذَاكَ مِنْ كَثْبِ

قال: فجاءت بالكتاب إليه، فأخذه، وقال لها: اجلسي، ففتحه، وقرأه عن آخره، وكتب
إليها كتاباً كان هذا الشعر آخره:

إِنِّي جَعَلْتُ هُمُومِي ثُمَّ أَنْفَاسِي ... فِي الصَّدْرِ مَنِّي وَلَمْ يُظْهِرْهُ قَرْطَاسِي

وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا مَا بِي إِلَى أَحَدٍ ... إِنِّي إِذَا لَقِيلُ الْعِلْمُ بِالنَّاسِ
 فَاسْتَعَصِمِي اللَّهَ، مِمَّا قَدْ بُلِيَتْ بِهِ، ... وَاسْتَشْعِرِي الصَّبْرَ، عَمَّا قُلْتُ، بِالْيَاسِ
 إِنِّي عَنِ الْحُبِّ فِي شُغْلٍ يُورِّقُنِي ... تَذْكَارُ ظُلْمَةَ قَبْرِ فِيهِ أَرْمَاسِي
 فَفِيهِ لِي شُغْلٌ لَا زِلْتُ أَذْكُرُهُ، ... مِنَ السَّوَالِ وَمِنْ تَفْرِيقِ أَحْلَاسِي
 وَلَيْسَ يَنْفَعُنِي فِيهِ سِوَى عَمَلِي، ... هُوَ الْمُؤَانَسُ لِي مِنْ بَيْنِ أَنْاسِي
 فَاسْتَكْثِرِي مِنْ تُقَى الرَّحْمَنِ وَاعْتَصِمِي، ... وَلَا تَعُودِي، فِي شُغْلٍ عَنِ النَّاسِ
 فلما قرأت الكتاب أمسكت وقالت: إنه لقبيح بالحرمة المسلمة العارفة مواضع الفتنة كثرة
 التعرض للفتن، ولم تعاوده.^١

لا صبر على الفراق

قال دعبل بن علي الخزاعي:

كان بالكوفة رجل من بني أسد عشق جارية لبعض أهل الكوفة، فتعاضم أمره وأمرها،
 فكان يقول فيها الشعر، وذكر بعض أهل الكوفة أنه مات من حبها، وصنعوا له كتاباً في ذلك
 مثل كتاب جميل وبثينة، وعفراء وعروة، وكثير وعزة، فباعها مولاهما لرجل من أهل بغداد،
 من الهاشميين، فيروى أنه مات حين أخرجت من الكوفة، وأنها لما بلغها موته ماتت أسفاً عليه،
 فمن شعره فيها عند فراقها:

^١ مصارع العشاق ٢٧٨/٢

جَدَّ الرَّحِيلُ، وَحَثَّنِي صَحْبِي، ... قالوا: الرَّحِيلُ، فَطَيَّرُوا لِي
 وَاشْتَقْتُ شَوْقًا كَادَ يَقْتَلَنِي، ... فَالْتَفَسْتُ مُشْرِفَةً عَلَى نَحْبِ
 لَمْ يَلَقَ، يَوْمَ الْبَيْنِ، ذُو كُلْفٍ ... يَوْمًا كَمَا لَاقَيْتُ مِنْ كَرْبِي
 لَا صَبَرَ لِي عِنْدَ الْفِرَاقِ عَلَى ... فَقَدْ الْحَيِّبَ وَلَوْعَةَ الْحُبِّ^١

العاشق البكاء

قال عبد الرحمن بن صالح: قيل للنضر بن زياد المهلبى: هل كان عندكم بالبصرة أحد
 شهر بالعشق، كما شهر من نسمع به من سائر الأمصار؟ قال: نعم! كان عندنا فتى من
 النساك، له فضل وعلم وأدب، فجعل يذوب ويتغير ويصفر، لا يعرف له خبر، فعاتبه أهله
 وإخوانه في أمره، وقالوا: لو تداويت وشربت الدواء، فإن العلاج مبارك، وما أنزل الله تعالى
 داءً إلا وله دواء، فلما أكثروا عليه قال:

وَقَالَ أَنَسٌ لَوْ تَعَالَجْتَ بِالدَّوَاءِ، ... فَقُلْتُ: الَّذِي يَخْشَى عَلَيَّ رَقِيبُ
 تُعَالِجُ أَدْوَاءَ وَلِلْحُبِّ لَوْعَةٌ، ... تَكَادُ لَهَا نَفْسُ اللَّيِّبِ تَذُوبُ
 وَلَوْ كَانَ شُرْبِي لِلْهَلِيلِجِ نَافِعًا ... مِنَ الْحُبِّ لَمْ تُعْكَفْ عَلَيَّ كُرُوبُ
 بَلَى! فِي عِلَاجِ الْحُبِّ أَنَّ ذُنُوبَهُ ... حِسَانٌ وَإِحْسَانِي عَلَيَّ ذُنُوبُ

^١ مصارع العشاق ٢/٢٨٠

وإن رُمْتُ صَبْرًا أَوْ تَسَلَّيْتُ سَاعَةً ... فَصَبْرِي لِمَنْ أَهْوَى عَلَيَّ رَقِيبُ

قال: ثم سكت، فعوتب، فلم يجب بشيء، وكان، بعدما بدا هذا القول منه، لا يكلمه أحد ممن يعرفه في شيء من الأشياء إلا بكى، ولا يستفيق من البكى، فلم يزل على ذلك حتى مات كمدًا.

قال: فأنا أدركت بعض من كان ينسب إليه من ولده أو ولد ولده ينسبون إلى البكاء.

في أمرها حتى اجتمعت معها في ليلة مظلمة شديدة السواد، في موضع خال، فحدثتها ساعة. ثم دعتني نفسي إليها، فقلت: يا هذه! قد طال شوقي إليك، فقالت: وأنا كذلك، فقلت لها: وقد عسر اللقاء. قالت: نحن كذلك. قلت: هذا الليل قد ذهب، والصبح قد قرب. قالت: وهكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات. قلت لها: لو أدنيتني منك؟ فقالت: هيهات هيهات إني أخاف العقوبة من الله تعالى. قلت لها: فما الذي دعاك إلى الحضور معي في هذا المكان؟ قالت: شقوتي وبلائي، قلت: فمتى أراك؟ قالت: ما أراي أنساك، وأما الاجتماع معك فما أراه يكون.

قال: ثم تولت من بين يدي، فاستحييت مما سمعت منها، فرجعت، وقد خرج من قلبي ما كنت أحد من حبها، ثم أنشأت أقول:

تَوَقَّتْ عَذَابًا لَا يُطَاقُ انتِقَامُهُ، ... وَلَمْ تَأْتِ مَا تَخْشَى بِهِ أَنْ تُعَذَّبَا

وَقَالَتْ مَقَالًا كِدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْحَيَا ... أَهْيِمُّ عَلَى وَجْهِي حَيًّا وَنَعَجَبَا

أَلَا أَفَّ لِلْحُبِّ الَّذِي يُورِثُ الْعَمَى ... وَيُورِدُ نَارًا لَا تَمَلُّ التَّوْبَتَا

فَأَقْبَلَ عَوْدِي فَوْقَ بَدْءِ مُفَكَّرًا، ... وَقَدْ زَالَ عَنِ قَلْبِي الْعَمَى فَتَسَرَّبَا

قال: فلم أر امرأةً كانت أصون منها لدينها ولا أعقل.^١

سيد العشاق

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: عشق رجل من ولد سعيد بن العاص جاريةً مغنيةً بالمدينة، فهام بها دهرًا وهو لا يعلمها بذلك، ثم إنه ضجر، فقال: والله لأبوحن لها، فأتاها عشيّةً، فلما خرجت إليه، قال لها: بأبي أنت أتغيني؟

أَتَجْزُونَ بِالْوُدِّ الْمُضَاعَفِ مِثْلَهُ، ... فَأَنْ الْكَرِيمَ مِنْ جَزَى الْوُدِّ بِالْوُدِّ

قالت: نعم! وأغني أحسن منه، ثم غنت:

لَلَّذِي وَدَّنا الْمَوَدَّةَ بِالضَّعِّ ... فِ، وَفَضْلُ الْبَادِي بِهِ لَا يُجَاوِزِي

لَوْ بَدَأَ مَا بَنَى لَكُمْ مَلَأَ الْأَرْضَ ... ضَ، وَأَقْطَارَ شَامِهَا وَالْحِجَازَ

فاتصل ما بينهما بعمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فابتاعها له، وأهداها إليه، فمكثت عنده سنة، ثم ماتت، فبقي مولاها شهرًا، أو أقل، ثم مات كمدًا عليها، فقال أبو السائب المخزومي: حمزة سيد الشهداء وهذا سيد العشاق، فامضوا حتى ننحدر على قبره سبعين نخرة، كما كبر النبي، صلى الله عليه وآله، على عمه حمزة سبعين تكبيرة.

قال: وبلغ أبا حازم الخبر، فقال: أما من محب في الله يبلغ هذا؛ هذا ولي.^٢

^١ روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٥٧، مصارع العشاق ٢/٢٨٢

^٢ مصارع العشاق ٢/٢٨٣

موت الأحوص وجاريته بشرة

قال محمد بن زياد الأعرابي: خرج الأحوص بن محمد إلى دمشق، ومعه جارية له يقال لها بشرة، وكان شديد الإعجاب بها، لا يكاد أن يصبر عنها، وكانت هي أيضاً له من المحبة على أكثر من ذلك، فاشتكى الأحوص، واشتدت علته وحضرته الوفاة، فأخذت رأسه فوضعت في حجرها وجعلت تبكي، فقطرت من دموعها على خده، فرفع رأسه إليها، فقال:

ما لجديد الموتِ يا بشر لذة، ... وكلُّ جديدٍ تُستَلدَّ طرائفه

فلا ضمير، إنَّ اللهَ يا بشرَ ساقني ... إلى بلدٍ جاورتُ فيه خلائفه

فلستُ، وإنَّ عيشٌ تَوَلَّى، بجازِعٍ ... ولا أنا ممَّا حمَمَ الموتَ خائفه

ثم مات من يومه، فجزعت عليه بشرة جزعاً شديداً ولم تزل تبكي وتندبه إلى أن شهقت شهقةً فماتت، فدفنت إلى جانب قبره.^١

إهدار دم المجنون وزواج ليلي

قال أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي إن قيس بن الملوح، وهو مجنون، لما نسب بليلى، وشهر بجبها، اجتمع إليه أهلها، فمنعوه من محادثتها وزيارتها، وتهددوه بالقتل، وكان يأتي امرأة من بني هلال ناكحاً في بني الحريش، وكان زوجها قد مات، وخلف عليها صبية صغاراً، فكان المجنون إذا أراد زيارة ليلي جاء إلى هذه المرأة فأقام عندها وبعث بها إلى ليلي،

^١ مصارع العشاق ٢/٢٨٤

فعرفت له خبرها وعرفت بها خبره، فعلم أهل ليلى بذلك فنهوها أن يدخل قيس إليها، فجاء قيس كعادته، فأخبرته المرأة الخبر وقالت: يا قيس! أنا امرأة غريبة من القوم ومعي صبية، وقد هوي أن أوويك، وأنا حائفة أن ألقى منهم مكروهاً، فأحب أن لا تجيء إلي هاهنا، فأنشأ يقول:

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيَّانِ هَاهُنَا، ... وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ
فَلَا تَزْجِرْنِي عَنْكَ خِيفَةٌ جَاهِلٍ ... إِذَا قَالَ شَرًّا أَوْ أُخِيفَ لَبِيبُ

قال: وترك الجلوس إلى الهاللية، وكان يترقب غفلات الحي في الليل، فلما كثر ذلك منه خرج أبو ليلى، ومعه نفر من قومه، إلى مروان بن الحكم، فشكوا إليه ما نالهم من قيس، وما قد شهرهم به، وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم بمنعه من كلام ليلى، وبخطبه إليهم، فكتب لهم مروان كتاباً إلى عامله يأمره فيه أن يحضر قيساً ويتقدم إليه في ترك زيارة ليلى، فإن أصابه أهلها عندهم، فقد أهدر دمه.

فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى قيس وأبيه، وأهل بيته، فجمعهم، وقرأ عليهم كتاب مروان، وقال لقيس: اتق الله في نفسك، لا يذهب دمك هدرًا، فانصرف قيس وهو يقول:

أَلَا حُجِبَتْ لَيْلَى، وَآلَى أُمِيرُهَا ... عَلَيَّ يَمِينًا جَاهِدًا لَا أَزُورُهَا
وَأَوْعَدَنِي فِيهِمْ رِجَالٌ، أَبَوُهُمْ ... أَبِي وَأَبَوَهَا، خُسْنَتْ لِي صُدُورُهَا
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهَا، ... وَأَنْ فَوَادِي عِنْدَ لَيْلَى أَسِيرُهَا

فلما أيس منها، وعلم أن لا سبيل إليها، صار شبيهاً بالتائه العقل، وأحب الخلوة، وحديث النفس، وتزايد الأمر به، حتى ذهب عقله، ولعب بالحصا والتراب، ولم يكن يعرف شيئاً إلا ذكرها وقول الشعر فيها، وبلغها هي ما صار إليه قيس، فجزعت أيضاً لفراقه وضيئت ضناً شديداً.

وإن أهل ليلى خرجوا حجاباً، وهي معهم، حتى إذا كانوا بالطواف رأوا رجلاً من ثقيف وكان غنياً كثير المال، فأعجب بها، على تغييرها وسقمها، فسأل عنها، فأخبر من هي، فأتى أباه، فخطبها إليه وأرغبه في المهر، فزوجه إياها، وبلغ الخبر قيساً، فأنشأ يقول:

أَلَا تِلْكَ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةُ أَصْبَحَتْ ... تَقَطُّعُ إِلَّا مِنْ ثَقِيفٍ وَصَالِهَا

هُمْ حَبَسُوهَا مَحْبَسَ الْبُدْنِ وَابْتَغَى ... بِهَا الْمَالَ أَقْوَامٌ تَسَاحَفَ مَالُهَا

إِذَا التَّفَتَتْ وَالْعَيْسُ صُعُرٌ مِنَ الْبُرَى ... بَنَخْلَةٍ خَلَّى عِبْرَةَ الْعَيْنِ حَالُهَا^١

مات أبوها فتزوجها

عن لقيط بن بكير المحاربي قال: كان رجل من كلب عاشقاً لابنة عم له، وكانت هي له كذلك، وكان الفتى مقلداً، فخطبها إلى عمه، فأبى وسأله مالا كثيراً، فلما رأت الجارية شدة أبيها على ابن عمها، أرسلت إليه أن اخرج فاطلب الرزق، ولك علي أن أصبر عامين على أن تحلف لي وتوثق لي أنك إن أصبت مالا، لا تتزوج إلا أن يبلغك موتي. فحلف لها، وحلفت له، فخرج الفتى، فرزقه الله مالا، فبلغ الجارية أنه قد تزوج، فكتبت إليه:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرْتَ بَعْدَنَا ... أَمْ أَنْتَ عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي كُنْتُ أَعْهَدُ

^١ الأغاني ٢/ ٤٤، مصارع العشاق ٢/ ٢٨٧

فكتب إليها:

عَلَيْكَ بِحُسْنِ الظَّنِّ يَا هِنْدُ، وَاعْلَمِي ... بِأَنَّ وَصَالِي، مَا حَيِّتُ، مُجَدِّدُ

فكتبت إليه:

إِنَّ الرَّجَالَ أُولُو غَدَرٍ، وَإِنْ حَلَفُوا ... وَقَوْلُهُمْ غَرَرٌ، وَالْوَدَّ مَمْدُوقُ

فكتب إليها:

أَمِنْتَ مِنْ غَدَرِنَا مَا دُمْتَ سَالِمَةً، ... وَمَا أَضَاءَ لَنَا، يَا حَمْدَةُ، الْأُفُقُ

فكتبت إليه:

لَوْ كَانَ غَيْرُكَ مَا صَدَّقْتُهُ أَبَدًا، ... وَأَنْتَ عِنْدِي امْرُؤٌ بِالصِّدْقِ مَعْرُوفُ

فكتب إليها:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ ذَا صِدْقٍ وَذَا ثِقَةٍ، ... فَإِنَّ قَلْبِي بِكُمْ، يَا حَمْدَ، مَشْغُوفُ

فكتبت إليه:

أَقْبِلْ إِلَيْنَا وَعَجِّلْ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا ... تَمَكُّثُ، فَإِنَّ أَبِي قَدْ قَارَبَ الْأَجَلَ

فكتب إليها:

إِنِّي إِلَيْكَ سَرِيعٌ، فاعلميه، إِذَا ... هَلَّ الْهَلَالُ، فَلَا تَبْغِي لِي الْعِلَلَا

فقدم، وقد مات أبوها، فتزوجها.^١

صخر العقيلي وزوجته وابنة عمه ليلي

عن أبي زكريا العجلاني أن رجلاً من بني عقيل كان يسمى صخرًا، وكانت له ابنة عم تدعى ليلي، وكان بينهما ود شديد، وحب مبرح، ولم يكن واحد منهما يفتقر عن صاحبه ساعة، ولا يوماً، وكان لهما مكان يلتقيان فيه، ولليلي جارية تبلغ صخرًا رسائلها، وتبلغها عنه، وتسعى بينهما، حتى طال ذلك منهما، وكانا يتحدثان في كل ليلة، ثم ينصرفان إلى منازلهما.

ثم إن أبا صخر زوج صخرًا امرأة من الأزد وصخر لذلك كاره مخافة أن تصرمه ليلي، فلما بلغ ليلي خبره، قطعتة وتركت إتيان المكان الذي كانا يلتقيان فيه، فمرض صخر مرضاً شديداً، وكان قد أفشى سره إلى ابن عم له، وكانوا يقولون: قد سحرته ليلي، لما كان يصنع بنفسه. فكان ابن عمه يحمله إلى ذلك المكان الذي كانا يلتقيان فيه، فلا يزال يبكي على آثارها وعهدتها حتى يصبح، وابن عمه يسعفه ثم يرده.

وكانت ليلي أشدَّ وجداً به، وحباً له منه لها، فأرسلت جاريته إليها، وقالت: اذهبي إلى مكاننا، فانظري هل ترين صخرًا هنالك، فإذا رأيته فقولي له:

تَعْسًا لِمَنْ لَغَيْرِ ذَنْبٍ يَصْرِمُ، ... قَدْ كُنْتَ يَا صَخْرَ زَمَانًا تَزْعُمُ:

أَنْتَ مَشْعُوفٌ بِنَا مُتِّيمٌ، ... فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يُنْعِمُ

^١ مصارع العشاق ٢/٢٨٩

لَمَّا بَدَأَ مِنْكَ لَنَا الْمُجَمِّعُ، ... وَاللَّهُ رَبِّي شَاهِدٌ قَدْ يَعْلَمُ

أَنْ رُبَّ حِطْبٍ شَأْنُهُ يُعْظَمُ، ... رَدَدْتُه، وَالْأَنْفُ مِنْهُ يُرْغَمُ

قال: فانطلقت الجارية، فإذا هي بصخر، فأبلغته قولها، فوجدته كالشن البالي قد هلك
حزناً ووجداً. فقال لها: يا حسن أحسني بي فعلاً، وأبيني لي عذراً، وسلي لي غفراً وصلحاً،
فوالله ما ملكت أمري، وقولي لها:

فهمتُ الذي عَيَّرْتَ يَا حَيْرَ مَنْ مَشَى، ... وَمَا كَانَ عَنْ رَأْيِي وَمَا كَانَ عَنْ أَمْرِي

دُعَيْتُ فَلَمْ أَفْعَلْ، وَزُوَّجْتُ كَارِهَاً، ... وَمَا لِي ذَنْبٌ، فاقبلي وَاضِحِ الْعُذْرِ

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ سُمِّيتُ صَخْرًا، فَإِنِّي ... لِأُضْعِفُ عَنْ حَمَلِ الْقَلِيلِ مِنَ الصَّخْرِ

وَكَسْتُ، وَرَبَّ الْبَيْتِ، أَبْغِي مُحَدَّثًا ... سِوَاكَ، وَلَوْ عَشْنَا إِلَى مُلْتَقَى الْحَشْرِ

فقلت له حسن: يا صخر! إن كنت تزعم أنك كاره تزويج أيبك إياك فاجعل أمر
امراتك بيدي لأعلم ليلي أنك لها محب ولغيرها قال، وأنت كنت مكرهاً. فقال: لا! ولكن
قد جعلت ذلك في يد ابنة عمي.

فانصرفت إليها فأخبرتها بما دار بينهما، وقالت: قد جعل الأمر إليك، وما عليه عتب
فطلقيها منه. قالت ليلي: هذا قبيح، ولكن عديهِ الليلة إلى موضع متحدثنا، ثم أطلق إن جعل
أمرها إليك، فإنه لم يكن ليردك بحضرتي.

فمضت الجارية، فأخذت مواعده، فاجتمعا وتشاكيا، وتعاتبا، ثم قالت له الجارية: اجعل
أمر أهلك إلي، فوالله إن ليلي لأفضل بني عقيل نسباً وأكرمهم أباً وحسباً، وإنها لأشد لك

حباً، فقال صخر: فأمرها في يدك. قالت: فهي طالق منك ثلاثاً، فأظهرت ليلي من ذلك جزءاً، وأن الذي فعلت جاريتها شق عليها. فتراجعا إلى ما كانا عليه من اللقاء ولم يظهر صخر طلاق امرأته حتى قال له أبوه: يا صخر ألا تبني بأهلك؟ قال له: وكيف أبني بها، وقد بانت مني عصمتها في بمين حلفت بها؟ فأعلم أبوه أهل المرأة، وقالت المرأة تهجو ليلي وقومها:

ألا أبلغاً عني عُقِيلاً رِسَالَةً، ... وَمَا لِعُقِيلٍ مِنْ حَيَاءٍ وَلَا فَضْلٍ

نساؤُهُمْ شَرُّ النِّسَاءِ، وَأَنْتُمْ ... كَذَلِكَ، إِنَّ الْفَرْعَ يَجْرِي عَلَى الْأَصْلِ

أَمَّا فِيكُمْ خُرٌّ يَغَارُ عَلَى اخْتِيهِ؛ ... وَمَا خَيْرُ حَيٍّ لَا يَغَارُ عَلَى الْأَهْلِ

قال: وهجتها ليلي، وتناولتا حتى شاع خبرهما، فأجمعوا على تزويج ليلي من صخر، لما انكشف لهم من وجد كل واحد منهما بصاحبه، فزوجهما من صخر، فعاشا على أنعم حال وأحسن مودة.^١

^١ مصارع العشاق ٢/٢٩٤

